المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٩٧٣

فنون النثر في أدب ابن الخطيب الأندلسي

المتوفى عام ٧٧٦ هـ

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

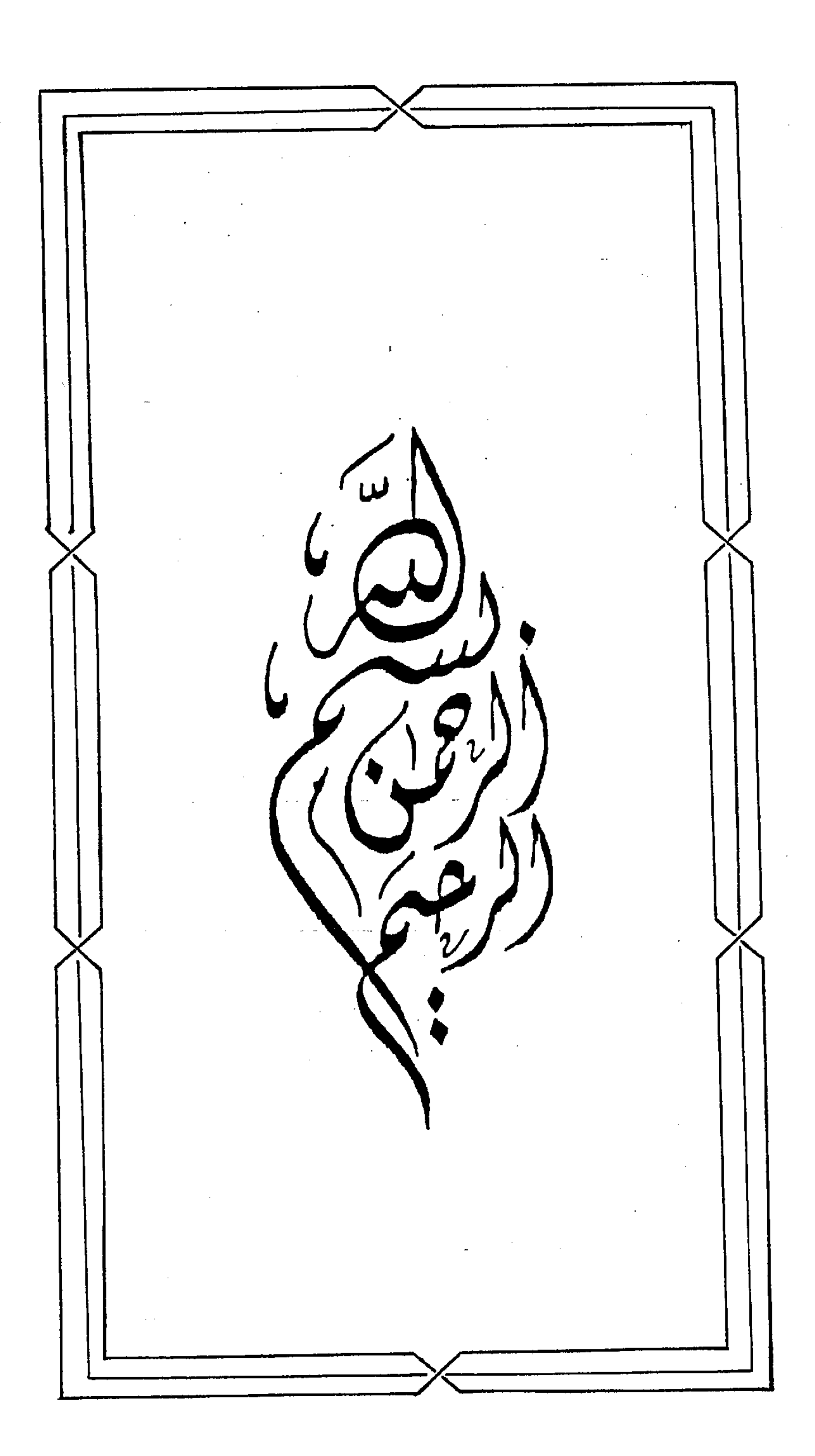
اعداد الطالب
سعود غازي محمد الجودي

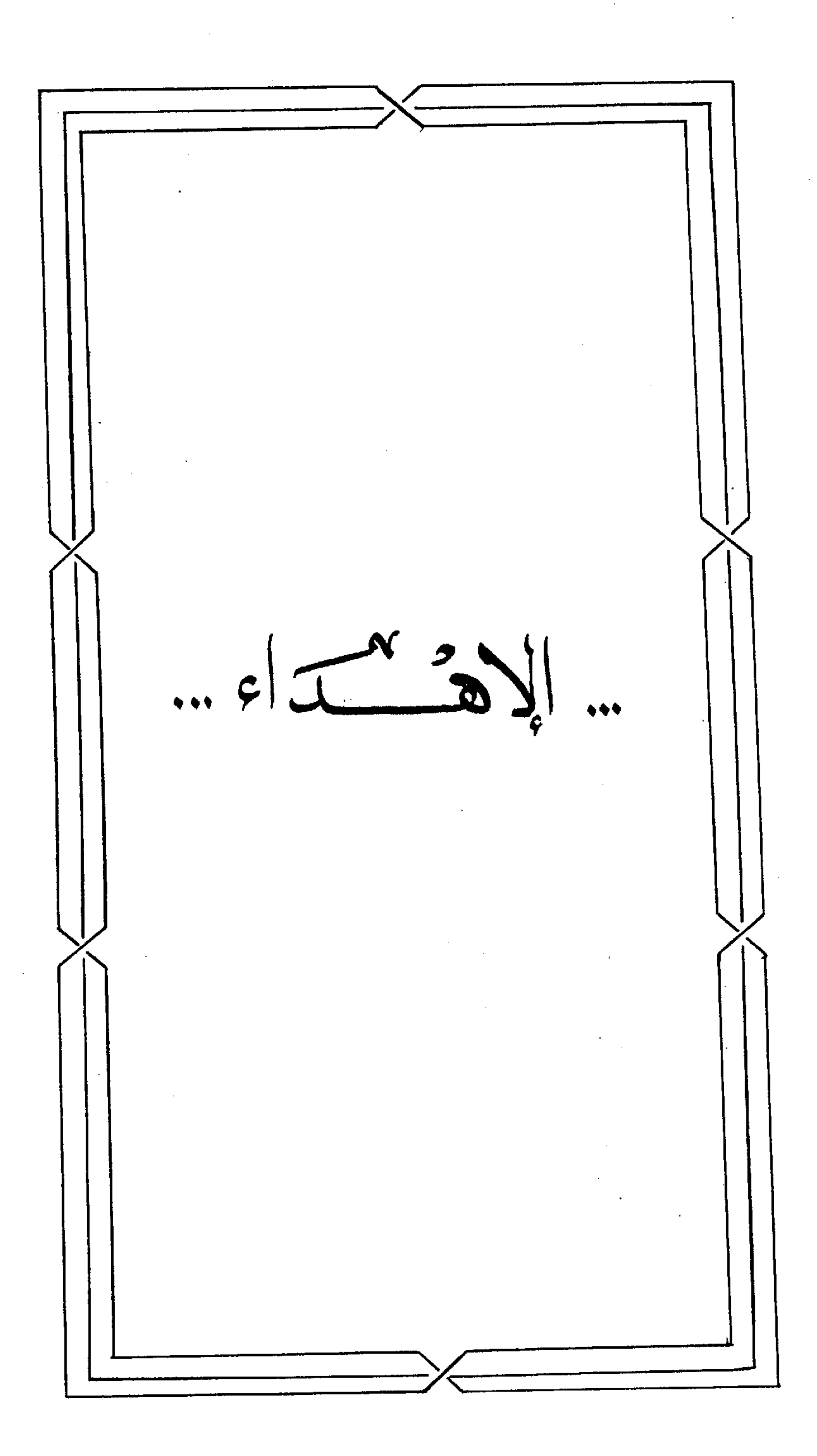
١٩٧٣

اشراف
الأستاذ الدكتور أحمد عبد الواحد ابراهيم

٤٢٢٥

عام ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م


بسم الله الرحمن الرحيم



... الإهـــداء ...

* الاهـــــــــداء *

الى كل من ساهم معي في هذا البحث ، وتحمل معي عناءه منذ أن كان فكرة ، حتى أصبح حقيقة ، أهدي هذا الجهد المتواضع .

* المقدمة *

* مقدمة *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فان لسان الدين ابن الخطيب شخصية متميزة في الأدب الأندلسي في القرن الثامن الهجري ، بل ولعله يُعدّ في تلك الفتر أشهر شخصية أدبية ، اذ كانت له منزلة اجتماعية عالية بحكم عمله كوزير في دولة بني الأحمر النصرية في غرناطة ، وكان له ـ بفضل مواهبه الأدبية ـ اسهام في اثراء أدب تلك الفترة ، من المنظوم والمنثور ، حتى قاربت مؤلفاته في الأدب والتاريخ وغيرهما الستين كتابا ، بين رسائل صغيرة ، ومجلدات ضخمة.

وظهرت ـ في عصرنا الحديث ـ كثير من الدراسات الأدبية حول تراث هذا الرجل ، سواء من المحققين لبعض كتبه ، أو من بعض الدارسين الأفذاذ الذين كان لهم اسهام كبير في مجال الدراسات الأدبية ، أمثال الدكتور شوقي ضيف ، والدكتور مصطفى الشكعة ، الا أن هذه الدراسات في مجملها كانت سريعة وشبه مختصرة ، نظرا لأنها لم تفرد أدبه بدراسة خاصة ، ولم تستوف ـ في أغلبها ـ ماينبغي من التحليل والتفصيل ، ولم تستوعب القدر الكافي من الشواهد والنماذج .

ومن هنا جاء اختياري لموضوع (فنون النثر في أدب ابن الخطيب الأندلسي) ليكون دراسة تحليلية وتفصيلية ونقدية معتمدة على الكثير من الشواهد والنماذج في تراث هذا الأديب الفذ .

وقد جعلت البحث في مقدمة وبابين ، تحدثت في المقدمة عن حياة ابن الخطيب وعصره ، وحاولت فيها التعريف بمراحل حياته ، ثم الاشارة الى أهم الممالك الاسلامية في عصره ، والتي كان له بها اتصال ، أو تم بينه وبينها مراسلات ، ثم أشرت الى أهم خصائص النثر في عصره ، محاولا في ذلك كله الايجاز والاختصار.

واستعرضت في الباب الأول فنون النثر في أدبه ، فجاءت في أحد عشر فصلا ، كل فصل يتناول فنا من فنون النثر وهي كالتالي :

- الفصل الأول : الانشاء .
- الفصل الثاني : الأخوانيات.
- الفصل الثالث: الرسائل الأدبية .
- الفصل الرابع: الدعابة والفكاهة .
- الفصل الخامس: المقامات .
- الفصل السادس: الخطابة والزجر والوعظ .
- الفصل السابع: التاريخ .

- الفصل الثامن : التراجم .
- الفصل التاسع : الحلى والصفات .
- الفصل العاشر : الأدب الجغرافي .
- الفصل الحادى عشر : نثر التصوف .

وحاولت عند الحديث عن كل فن من هذه الفنون التمهيد لتاريخ ذلك الفن في مقدمة قصيرة ، ثم أدرس بالتفصيل والتحليل ذلك الفن في أدب ابن الخطيب ، مع ايراد الشواهد والنماذج .

وقد استغرق هذا الباب من البحث الصفحات الكثيرة نظرا لأنني حاولت فيه التفصيل والتحليل لكل مصنفات ابن الخطيب التي وقعت عليها يدى .

وجاء الباب الثاني في أربعة فصول هي كالتالي :

- الفصل الأول : الخصائص الفنية في نثره .
- الفصل الثاني : آراء النقاد والعلماء فيه .
- الفصل الثالث : أهم المؤثرات في تكوينه النفسي والأدبي .
- الفصل الرابع : منزلته بين الناثرين .

والحق أن الخلل في التوازن الشكلي في البحث ظاهر ، ومرجعه الى أن الباب الأول هو صلب الدراسة ، ولذا جاء في أكثر من ثلثي الصفحات .

غير أن البحث في مجمله أوضح أهم سمات القوة والضعف في نثر ابن الخطيب بما يكشف عن طبيعة فنه ، ويبين منزلته في الناثرين.

وأخيرا أرجو أن أكون قد أوفيت موضوع هذه الدراسة حقها ، مع الاعتذار عن التقصير والنقص ، اذ الكمال لله سبحانه :

وحسبي أني قد بذلت به جهدى
وأنفقت من وجدى على قدر ماعندى

والله ولي التوفيق ،،،

(مقدمة عن حياته وعصـــــره)

١ـ حياتـــــــــــه.

٢ـ أهم الممالك في عصره.

٣ـ النثر في عصره.

لسان الدين ابن الخطيب [(١)]

حياته وعصره

١ - حياته

نسبه وأصله :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ، يلقب بلسان الدين ، ويكنى بأبي عبد الله .

والسلماني نسبة الى سلمان ، وهو حي من مراد من عرب القحطانية ، وأصلها من اليمن ، ثم نزحت الى الشام ، ثم انتقل منهم جماعة الى الأندلس عقب فتحها في القرن الهجري الأول ، واستقروا بقرطبة ، حيث كانت منزل قبائل الشام الوافدة منذ الفتح [(٢)] ، ولما وقعت ثورة الربض الشهيرة سنة (٢٠٢ هـ) [(٣)] ، والتي قام بها الفقهاء ضد الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، فرّ سلف ابن الخطيب مع كثير من المعارضين بعد أن نكل بهم الحكم أشد تنكيل ، واستقرت أسرة ابن الخطيب في طليطلة قرابة قرن ونصف ، فلما أحست بخطر النصارى الذى يحدق بطليطلة غادرتها الى لوشة . [(٤)]

---

(١) يلقب بابن الخطيب ، وبذى الوزارتين ، السيف والقلم ، وبذى العمرين لاشتغاله في النهار بالدولة وفي الليل بالتصنيف ، وقد ترجم له كثير من الكتاب ، سواء من المعاصرين له ، أو المتأخرين عنه ، كما ترجم هو لنفسه في أكثر من موضع من كتبه ، وقد حاول بعض محققي تراثه الاشارة الى المصادر التي تحدثت عنه ، انظر: روضة التعريف بالحب الشريف ، جـ/ ١ ص ١٥ هامش رقم (٢) ، جيش التوشيح ص ط ، الهامش.

(٢) انظر: فجر الأندلس ص ٢٠١ ومابعدها .

(٣) انظر تفصيلا عن هذه الثورة في تاريخ أسبانية الاسلامية ص ١٥ ، التاريخ الأندلسي ص ٢٤٢ .

(٤) راجع مقدمة الاحاطة مج/ ١ ص ١٨ ، ١٩ .

وفي لوشة استقر سعيد بن علي السلماني ، الجدّ الأعلى لابن الخطيب ، وكان يومئذ قاضيها وخطيبها ، واليه يرجع السبب في تسمية بيت ابن الخطيب بهذا الاسم ، بعد أن كان يعرف ببني الوزير ، وخلف سعيد عبد الله الذى كان "على وتيرة حسنة من الخير والنباهة"[1] ، ثم سار سعيد ابن عبد الله هذا ، والجدّ الأدنى للسان الدين على سيرة والده وأسلافه حتى وقعت ثورة بلوشة على السلطان ، فاتهم سعيد فيها "ثم بان عذره ، وبرئت ساحته ، واستظهر به السلطان ،وأقام بغرناطة مكرما ، مؤثرا ، مؤتمنا ، وصاهر في أشراف بيوتها"[2].

وفي عام ٦٧٢ هـ ، أنجب سعيد عبد الله والد لسان الدين[3] ، واستقر عبد الله حينا في غرناطة ، ثم عاد الى مقر بيتهم القديم بلوشة (من أعمال غرناطة) وهناك ولد لسان الدين.

وعادت أسرة لسان الدين الى غرناطة مرة أخرى ، عندما عمل والده في خدمة السلطان أبي الوليد اسماعيل الذى ولي عرش غرناطة عام ٧١٣ هـ ، وتوفي قتيلا عام ٧٢٥ هـ ، ثم في خدمة ولده من بعده السلطان أبي عبد الله محمد بن اسماعيل المتوفى عام ٧٣٣ هـ ، ثم في خدمة أخيه السلطان أبي الحجاج

---

(١) الاحاطة مج / ٣ ص ٣٨٧.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) ترجم ابن الخطيب لوالده في الاحاطة مج / ٣ ص ٣٨٦.

يوسف الذى ولي عرش غرناطة بعد مقتل أخيه.

والناظر الى تاريخ أسرة ابن الخطيب يجد أنه ينحدر من بيت شرف وسيادة ، وعلم ورياسة ، اذ كان يدعى ببيت الوزير ، ثم ببيت الخطيب ، وكان جده لسان الدين الأدنى سعيد على خلال حميدة من تلاوة وفقه ، وخط وحساب ، وقد أقام بغرناطة مكرما من قبل السلطان[1] ، وصاهر في أشراف بيوتاتها ، وهو أول من انتقل الى غرناطة من بيت ابن الخطيب على خلاف مايذكر الأستاذ الطنطاوى في مقدمة اللمحة البدرية ، حيث يرى أن أول من انتقل الى غرناطة من بيت ابن الخطيب هو والد لسان الدين[2] ، وقد خلف سعيدا هذا ابنه عبد الله والد لسان الدين ، الذى عمل في خدمة سلاطين غرناطة ، حيث استعمل على مخازن الطعام — كما يروى ابن خلدون —[3] ثم عمل في ديوان الانشاء مع ابن الجياب المتوفى عام ٧٤٩ هـ[4] ، وأخيرا أسبغ عليه السلطان لقب الوزارة ، وبقي كذلك حتى استشهد مع ابنه الأكبر أخي لسان الدين في موقعة بطريف عام ٧٤١ هـ.

---

(١) يبدو أنه السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ، ثاني سلاطين بني الأحمر ، والمتوفي عام ٧٠١هـ. راجع اللمحة البدرية ص٣٧ومابعدها.

(٢) انظر: اللمحة البدرية ، ص ٣.

(٣) راجع: العبر وديوان المبتدأ والخبر مج / ٧ ص ٣٣٢.

(٤) ترجم له ابن الخطيب في الاحاطة مج / ٤ ص ١٢٥.

مولد لسان الدين ، ونشأته ، وتحصيله العلمي :

ولد لسان الدين في لوشة عام ٧١٣ هـ ، ثم انتقل مع والده الى غرناطة ، ولكنه كان يحنّ دائما لمسقط رأسه ، ويذكرها في أشعاره ، ويسميها بنت الحضرة (أى بنت غرناطة) أو فتية غرناطة.(١)

وفي غرناطة نشأ لسان الدين محبا للأدب والعلم ، منصرفا الى ذلك ، يدفعه ماكان لأسلافه من مجد قديم ، وتعلق بالعلم وأهله ، بالاضافة الى ماأحسه من عناية أهل زمانه بالعلم والعلماء ، وكثرة العلماء في عصره مما سهل عليه التحصيل ، حتى بلغ المنزلة السامية بعد ذلك.

ويعدد ابن الخطيب في ترجمته الذاتية في الاحاطة شيوخه الذين تلقى العلم والأدب على أيديهم ، فيذكر أنه قرأ كتاب الله العزيز حفظا وتجويدا ، وكتابة على أبي عبد الله بن عبد الولي العواد ثم على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي ، وعنه أخذ العربية ، وهو أول من انتفع به ، وقرأ على أبي القاسم بن جزى ، ودرس العربية والفقه ، والتفسير على أبي عبد الله بن الفخار البيرى ، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر.

---

(١) انظر: الاحاطة ، مج / ١ ص ٢١.

كما يذكر أنه روى عن كثير من أهل زمانه في الأندلس والمغرب والمشرق ، بعد اجازتهم له ، وأخذ الطبّ ، وصناعة التعديل عن أبي زكريا بن هذيل ولازمه ، وتأدب بالشيخ أبي الحسن الجياب سلفه في الوزارة ، وامام عصره في النثر والنظم.

ويشير ابن الخطيب في آخر حديثه عن شيوخه أن تعداده لهم على سبيل الالمام لا الحصر لكثرتهم ،[1] وقد ترجم لكثير منهم في الاحاطة ، وفي غيرها من كتب التراجم التي ألفها ، كما عدّد كثيرا منهم المقرى في نفح الطيب.[2]

... ...

حياته العملية والسياسية :

من العسير تتبع حياة شخص عادى ، عاش فترة قصيرة من العمر ، وبدهي أن من الأعسر تتبع حياة رجل كانت له صولات وجولات في مجالات عدة وكان له مركزه الاجتماعي المرموق كابن الخطيب.

ويمكن القول بأن حياة ابن الخطيب العملية والسياسية تنقسم الى مراحل عدة ، يمكن من خلال النظرة الدقيقة لها

---

(١) راجع: الاحاطة ، مج / ٤ ص ٤٥٩.
(٢) مج / ٥ ص ١٨٩ - ٦٠٥.

أن نرسم صورة شبه متكاملة لشخصية هذا الرجل الذى كانت له شعبيته الكبيرة ، وكان له مركزه السامي بين خاصة رجال الأندلس وعامتهم .

... ...

١ - المرحلة الأولى

مرحلة العمل في خدمة الدولة النصرية ، وتبدأ منذ عمله بديوان الانشاء عام ٧٤١ هـ ، وتنتهي بخلع السلطان الغني بالله ولجوئه الى سلطان المغرب عام ٧٦٠ هـ :

لما استشهد والد لسان الدين وأخوه في معركة طريف عام ٧٤١ هـ ، استدعي لسان الدين للخدمة السلطانية ، وكان يومئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، وتحت اشراف ابن الجياب رئيس الكتاب في ديوان الانشاء وقتئذ تولى ابن الخطيب منصب أمانة السر ، وعلى يد هذا الرئيس تلقى أرفع أساليب النظم والنثر في عصره ، وظهرت براعته في تدبيج الرسائل ، والمنشورات السلطانية ، واستمر كذلك طيلة ثماني سنوات توفي بعدها ابن الجياب بالطاعون عام ٧٤٩ هـ .

وبموت ابن الجياب حانت الفرصة لابن الخطيب فقلده السلطان (أبو الحجاج) رئاسة الكتاب ، ورئاسة ديوان الانشاء، ومنحه رتبة الوزارة ، ولقبه بها [1] ، وكان كبير الوزراء يومئذ

---

(١) انظر: الاحاطة مج / ١ ص ٢٢ ، اللمحة البدرية ص ٥ .

" أبا النعيم رضوان ، وهو من أصل قشتالي ، سبي صفيرا ، وربي في القصر السلطاني ".[١]

وقد حظي ابن الخطيب بالاعجاب والتقدير من قبل السلطان ومن قبل أبي النعيم رضوان ، فتألق نجمه ، وعلت منزلته عند السلطان ، ما جعله يغدق عليه عطفه ، ويؤثره بثقته ، ويبعث به سفيرا عنه الى ملوك عصره ، ويجعله لسانه في المكاتبات ، فدبج في تلك الفترة رسائل سلطانية نعتها ابن خلدون بالغرائب[٢] لروعتها ، وقد جمع منها ابن الخطيب طائفة في كتابيه (ريحانة الكتاب) و (كناسة الدكان) ، ونقل المقري في النفح منها الكثير.[٣]

وعن هذه المرحلة من حياته يقول ابن الخطيب في ترجمته الذاتية واصفا مامنحه السلطان اياه من التقدير والثقة :
"فقلدني السلطان كتابة سره ، ولما يجتمع سن الشباب ، ويستكمل السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة الى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ، ورمى الي بخاتمه وسيفه ، وائتمنني على صوان ذخيرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه[٤] ، ومعقل امتناعه ، ومن فصول منشوره — أي

---

(١) الاحاطة مج / ١ ص ٢٢ .
(٢) راجع: تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) مج / ٧ ص ٣٣٢ .
(٣) انظر الملحق رقم (٣/ب) .
(٤) سجوف حرمه : ماستر منها .

المرسوم الذى صدر بتعينه ـ: (وأطلقنا يده على كل ماجعل الله لنا النظر فيه)".[1]

وبقي ابن الخطيب على هذه الحال من رفعة المنزلة وسمو المكانة منذ عام ٧٤٩ الى عام ٧٥٥ هـ ، وهو العام الذى قتل فيه السلطان أبو الحجاج ، وتولى بعده عرش غرناطة ،ابنه محمد الخامس ، فقام برسم الحجابة له أبو النعيم رضوان السالف الذكر ،[2] وجددت للسان الدين رسوم الوزارة من الوقوف بين يدى السلطان " في المجالس العامة ، وايصال الرقاع ، وفصل الأمر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والانشاء ، والمواكلة والمجالسة في صف الموازرة "،[3] حتى ان السلطان ارتفع به عن مدحه ، كما ينص على ذلك ابن الخطيب عند تقديمه لاحدى قصائد المديح فيقول : " وهي آخر الشعر في هذا الغرض لخجل السلطان من تنزلي الى ذلك".[4]

واستمر الحال على هذا خمس سنوات منذ عام ٧٥٥هـ الى عام ٧٦٠ هـ ، وهو العام الذى خلع فيه الغني بالله على يد أخيه لأبيه اسماعيل ، وصهرهما محمد بن اسماعيل النصرى .

---

(١) الاحاطة مج / ٤ ص ٤٤٣ .
(٢) راجع اللمحة البدرية ص ١٠٣ .
(٣) اللمحة البدرية ص ١٠٣ .
(٤) الاحاطة مج / ٤ ص ٤٧٩ .

وكان من أهم ما نيط به من وظائف في هذه الفترة: " أن ندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان أبي الحجاج المتوفى ، وأرسله السلطان الجديد لأول ولايته سفيرا عنه الى السلطان أبي عنان عاهل المغرب ، على رأس وفد من رجالات الأندلس ، وهو يعرب في رسالته اليه عن أمله في تجديد أواصر المحبة والوصل ، التي كانت بين أبيه وبين السلطان أبي عنان ، ويستنصره ويطلب عونه ، على مقاومة ملك قشتالة ، واستقبل السلطان أبو عنان سفير الأندلس ابن الخطيب بترحيب وحفاوة "[١] ، وكان ذلك أواخر عام ٧٥٥ هـ ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان المريني قصيدته التي مطلعها :

" خليفة الله ساعد القدر .:. علاك مالاح في الدجى قمر "[٢]

وقد جلّى ابن الخطيب في أغراض سفارته هذه ، وعاد الى الأندلس بأفضل ما عاد به سفير ، على حد تعبيره.[٣]

... ...

خبر خلع الغني بالله :

لما تصير الأمر الى محمد الخامس ، بعد مقتل والده السلطان يوسف عام ٧٥٥ هـ ، ألزم أخويه لأبيه اسماعيل وقيس

---

(١) الاحاطة مج / ١ ص ٢٣.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) راجع الاحاطة مج / ٢ ص ١٩ ، ٢٠.

قصرا من قصور أبيه ، وأسكن معها أخواته لأبيه وأمهن ، وكانت هذه الأم قد استأثرت بمال كثير عند وفاة السلطان يوسف ، فسعت سرا مع زوج ابنتها محمد بن اسماعيل ، وهو أحد أفراد الأسرة النصرية ، الى ارجاع الملك لابنها اسماعيل ، وانتهز الجميع فرصة بُعد السلطان محمد عن غرناطة ، ونجحوا في خلعه ، وأخذ الملك لاسماعيل أخيه ، ولما علم السلطان بذلك فرّ الى المغرب ، والتجأ عند السلطان أبي سالم أحد سلاطين بني مرين ، وكان ذلك في رمضان عام ٧٦٠ هـ.(١)

واستمر الملك في يد السلطان الصغير اسماعيل ، ثم دبر زوج أخته محمد بن اسماعيل قتله في شعبان عام ٧٦١ هـ ، واستبد هو بالسلطة.(٢)



... ...

٢ - المرحلة الثانية

وتبدأ بنكبة ابن الخطيب على يد الدولة الجديدة ،وتنتهي بعودة السلطان (الغني بالله) الى عرشه عام ٧٦٣ هـ:

وهذه المرحلة مهمة في حياة ابن الخطيب نظرا لما امتلأت

---

(١) راجع اللمحة البدرية ص ١٠٨ ومابعدها.
(٢) راجع السابق ص ١١٦ ومابعدها.

به من أحداث وأحزان كان لها وقع في نفسه ، وتأثير فيما بعد على مجريات حياته.

فبعد أن فرّ السلطان محمد ولجأ الى المغرب ، حاول اسماعيل المتغلب على الأمر استمالة ابن الخطيب واستبقائه في منصبه ، الا أن أعوانه حملوه على عكس ذلك ، فقبض على ابن الخطيب ، ونكث ماأبرم من أمانه ، وكبست دوره ، وصودرت أمواله ، حتى تشفع له سلطان المغرب ، وجعل خلاصه شرطا في مسالمة الدولة الجديدة ، وهنا سمح لابن الخطيب بالرحلة الى المغرب لاحقا بسلطانه.(١)

وعن ذلك يتحدث ابن الخطيب فيقول : " فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق الى المغرب ، وبالغ ملكه في برى ، ... ، منزلا رحبا ، وعيشا خفضا ، واقطاعا جما ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلني بمجلسه صدرا".(٢)

والحق أن سلطان الأندلس بالغ في اكرام ابن الخطيب حتى شفع له لدى سلطان غرناطة الجديد ، كي يعيد ماصودر له من ضياع ، وكان ذلك.(٣)

واستغل ابن الخطيب هذه الفترة في التصنيف والتأليف ،

---

(١) راجع عن ذلك كلام ابن الخطيب في الاحاطة مج / ٤ ص ٤٤٤ ، وتاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١١ .
(٢) الاحاطة مج / ٤ ص ٤٤٤ .
(٣) راجع: البدر الطالع مج / ٢ ص ١٩٣ ، الدرر الكامنة مج / ٤ ص ٨٩ .

وقرض الشعر ، والتنقل بين البلدان المغربية لمشاهدة آثارها ، والاتصال بعلمائها ، حتى توثقت الصلة بينه وبين كثير من مشاهير المغرب في ذلك الوقت ، وبخاصة السلطان أبي سالم المريني ، الذى دبج ابن الخطيب في مدحه الكثير من القصائد ، والمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون الذى التقى به لأول مرة في بداية هذه المرحلة من حياته.[١]

وفي مدينة سلا المغربية استقر ابن الخطيب مرابطا بجوار أضرحة ملوك بني مرين ، وعن ذلك يقول مشيدا بالسلطان أبي سالم: "ثم أسعف قصدى في تهنئ الخلوة بمدينة سلا ، منوه الصكوك ، مهنأ القرار ، متفقدا باللهى[٢] والخلع ، ... ، موفور الحاشية ، مخلى بيني وبين اصلاح معادى".[٣]

وأحس ابن الخطيب بأن المغرب هي البلد الذى وجد فيه ماينشده من الأمن والراحة ، وخلو البال ، فأخذ يعدّ العدة للاستقرار بها نهائيا ، واستكثر من الضياع والعقار بها ، ولكن حنينه الى وطنه ، واحساسه بواجبه تجاهه كان ملازما له.[٤]

---

(١) راجع :الاحاطة مج / ١ ص ٢٧ ، تاريخ المغرب الوسيط ، مقدمة المحقق ص ز.
(٢) اللهى ، جمع اللهوة وهي الأعطية ، انظر الصحاح مج / ٦ ص ٢٤٨٧.
(٣) الاحاطة مج / ٤ ص ٤٤٤.
(٤) راجع : تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ى ، ك.

وفي عام ٧٦٢ هـ ، شاءت الأقدار أن يصاب في أعز الناس ، وأقربهم اليه ، اذ تموت زوجه وأم ولده بدار الغربة ، وهنا تشتد آلامه ، وتأخذه نزعة من الحزن والتصوف ظهرت آثارها فيما بعد جلية في نظمه ونثره.

وقد أشار الى هذا الحدث الجلل في حياته فقال : "وفي السادس لذى القعدة عام اثنين وستين وسبعمائة المذكور، طرقني ماكدر شربي ، ونغص عيشي ، من وفاة أم الولد ، عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران واناث ، في بلد الغربة ، وتحت سرادق الوحشة ، ودون أذيال النكبة ، فجلت عليها حسرتي ، واشتد جزعي ، وأشفيت لعظم حزني ، اذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبرا ، ومكارم أخلاق ، حازت بذلك مزية الشهرة ، حيث حلت من القطرين ، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا ، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولي القراءة دائما عليها".(1)

وفي هذه الأثناء كان السلطان محمد الخامس يحاول استرجاع ملكه بشتى الطرق ، واستعان في ذلك أولا بالسلطان أبي سالم المريني ، فلما قتل أبو سالم في التاسع عشر من ذى القعدة عام ٧٦٢ هـ في انقلاب دبره وزيره عمر بن عبد الله ،

---

(1) نفاضة الجراب ص ٢٠٥ ، وراجع تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ز.

استعان بهذا الوزير، ومازال به حتى أقطعه مدينة رندة الأندلسية، وكانت يومئذ من أملاك بني مرين، وحاول في أثناء ذلك الاستعانة ببيدرو الثاني (بطرة) ملك قشتالة، مقابل أن يسلم الغني بالله بعض الحصون الاسلامية اليه، الا أن بيدرو بعد أن حصل على ماأراد خان وعده، وآثر أن يعقد الصلح مع السلطان محمد بن اسماعيل المتغلب على عرش غرناطة.[(١)]

وغزا الغني بالله من رندة ثغر مالقة، واستولى عليها، ثم تتابعت حملاته حتى استعاد غرناطة، وفرّ محمد بن اسماعيل المتغلب على الأمر، الى ملك قشتالة طالبا الغوث، فلم يغثه بل اعتقله ثم قتله، وكان ذلك في عام ٧٦٣ هـ.[(٢)]

... ...

٣ - المرحلة الثالثة

وتبدأ بعودته الى غرناطة، وتنتهي بفراره، ولجوئه الى سلطان المغرب عام ٧٧٣ هـ.

ما ان استرد محمد الخامس ملكه بالأندلس حتى أرسل الى ابن الخطيب راغبا في عودته الى الأندلس وبالفعل عاد ابن

---

(١) راجع: تاريخ أسبانية الاسلامية ص ٣١٠، الاحاطة مج ١/ ص ٢٨ ومابعدها.
(٢) راجع: تاريخ أسبانية الاسلامية ص ٣٠٩، الاحاطة مج ١/ ص ٢٨، ٢٩.

الخطيب الى غرناطة مع ولد السلطان ، وكان لا يرغب في البقاء بغرناطة طويلا ، وقد وعد الوزير المتغلب على الأمر بالمغرب عمر بن عبد الله بالعودة اليه ، وعن هذا يقول : " وأسرعت الى قصده ، بعد أن قررت عند المذكور (يعني الوزير عمر بن عبد الله) وبين سلطانه ، عزمي على تعجيل الأوبة وعملي على اسراع العودة ".(١)

ولكن الأمور سارت على غير مايريد ابن الخطيب ، فاضطر للبقاء بغرناطة طويلا من عام ٧٦٣ الى عام ٧٧٢ هـ ، وكان ذلك " نظرا للظروف التي مرت بها مملكة غرناطة أثناء حروب قشتالة وأرجوان ".(٢)

وكان ابن الخطيب طيلة هذه المدة يقوى علاقته بملوك المغرب ، ويحاول ارضاءهم بما يطلبونه من مملكة غرناطة ، لأنه يرى في نفسه أن المغرب هي المكان الذى سيعود اليه ليجد فيه الراحة والعيش الخالي من الهموم ، وعن ذلك يقول ابن خلدون : " وكانت عينه ممتدة الى المغرب وسكناه ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ".(٣)

ومرت السنون على ابن الخطيب وهو يزداد عند سلطانه

---

(١) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٤ .
(٢) تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ك .
(٣) أزهار الرياض ج/١ ص ٢٣٤ .

حظوة ، ويرتفع منزلة حتى كثر حاسدوه وازداد ملله ، وأحس بثقل العبء السياسي ، وما جره عليه ذلك من عداوات فأصبح لا ينشد الا راحة باله في دار أمن وخلو من شغب.(١)

... ...

سبب هجرته :

كان الغني بالله قد وعده اذا ماهدأت أمور الدولة أن يسمح له بالعودة الى المغرب ليقضي هناك بقية عمره بعيدا عن السياسة وهمومها ، غير أنه صار يماطله بانجاز هذا الوعد ، وعن هذا يقول ابن الخطيب: "وقد اقتضيت خطه بالسراح الى أمد معلوم حلّ ، فنقلني الى غيره ، واستدرجني بسواه ، وقد عادت مع ذلك عوائد العافية ، وفتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة ، فصودقت الملوك ، واطردت الفتوح ، ودرت المنوح ، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد ، فلا يسعه جحده ، ويعرفه من الكتب في الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته".(٢)

وملّ ابن الخطيب هذه المماطلة ، فراح يلح على سلطانه لينجز وعده ، وبلغ في ذلك الالحاح حدا بعيدا ،

---

(١) راجع تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣٦١.
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٤ ، ٣١٥.

الا أن السلطان كان يتحمل ذلك ، لعلمه باخلاصه له ، وعن هذا يقول ابن الخطيب: " فألححت على السلطان تارة أطالبه بانجاز وعده ، والوفاء بعهده ، واقتضاء مضمن خطه ، وتارة بالعمل على اكتساب بغضه ، والجفاء الذى يحمل عقدة اغتباطه ، ويذهب الحظ من باطنه ، بلغت في ذلك بالقول والعمل الى مالا يبلغه محكم من عقله ، ولا محافظ على نفسه ، وهو يحمل ذلك كله في جنب الظاهرة بي على أمره ، وعلمه بمحلي من الصيانة لملكه ، والنظر بعين الأبوة لأهله وولده ، الى أن لم يبق بيني وبينه الا أن يذهب القشر وينكأ القرح ".(١)

ولما لم تغد جميع المحاولات في اقناع سلطانه بالسماح له بالهجرة ، عزم على الفرار ، وراسل أبي فارس المريني سلطان المغرب حينئذ ، وحصل منه على عهد يتضمن له فيه الاقامة تحت حرمه والاعانة على الحج والزيارة ، والعودة الى الأندلس متى رغب في ذلك ، وعن هذا يقول : " وشاب لي النظر بازماع الفرار عنه ، ... ، ... ، ... ، وقلت: أحج نفسي ، وأقضي فرضي ، وأشغل الناس بغيرى ، وأكون بعد ذلك محكما من أمرى ، فاقتضيت من المولى المقدس أبي فارس عبد العزيز رحمة الله عليه ـ وقد اتصل بي فضل دولته ، وطهارة نشأته ، واعتدال طريقته ـ عهدا بخطه ضمن لي فيه المشاركة

---

(١) السابق ، ص ٣١٧ .

في أغراضي من اقامة تحت حرمه ، واعانة على حج وزيارة ، ومبالغة في شفاعة أو تسويغ قفول الى الأندلس ان شئت وعودة ". (١)

وفرّ ابن الخطيب الى المغرب ، واستقبله السلطان المغربي بالحفاوة والترحاب ، يقول عن ذلك مشيرا الى سبب فراره : "وتيسر اللحاق ببلاده ، والحصول بجبل الفتح من ايالته ، والجواز الى سبتة غرة جمادى الأخيرة من سنة ٧٧٣ هـ في أسطوله ، وتحت أقصى مايؤمل من بره ، وفارقت الأهل والمال والجاه الذى بلغ الأسد ، لا لدنيا نعتاضها من المطلقة ، ولا لخدمة نستأنفها عوض تلك المطرحه ، ولا لفرار أمام جناية ، ولا لغتكة في مال جباية ، ولا لتفويت معقل لعدو الملة ، ولا لسفك دم يتطلبني بتبعة ، ولا لخيانة في أهل ، ولا لسعي على ملك ، نبرأ الى الله من ذلك كله ، انما تلخص قصدى ، ... في الفرار الى الراحة ، والتفادى من حمل الكلفة ، والاشتغال بما يعني ، لكن في ظل العافية ، وتحت سحاب النعمة ، وذمة الحرمة ، نسأل الرقيب على مافي القلوب ، ان كنت قد شأبتني في ذلك شائبة أن لا يتمتعني بالبقية ، ولا يمنّ علي بحسن الخاتمة ". (٢)

وكان ابن الخطيب لما بلغ جبل الفتح أرسل الى سلطانه

---

(١) السابق ، ص ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٢) السابق ، ص ٣١٨ .

الغني بالله رسالة يوضح فيها حاله ، وسبب سفره ، وقد أوردها ابن خلدون في ترجمته الذاتية (التعريف بابن خلدون) ، وفيها يقول ابن الخطيب: "ويعلم مولاى حال عبده منذ وصل من المغرب بولدكم ، ومقامه لديكم بحال قلق وقلعة[1] ، لولا تعليلكم ، ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم ، وقطع مراحل الأيام حريصا على استكمال سنكم ، ونهوض ولدكم ، واضطلاعكم بأمركم ، وتمكن هدنة وطنكم ، وماتحمل في ذلك من ترك غرضه لغرضكم ، وان العبد الآن لما تسبب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز ، ونجح السعي ، وتأتي لسنين كثيرة الصلح ، من بعد أن لم يبق لكم بالأندلس مشغب من القرابة ، وتحرك لمطالعة الثغور الغربية ، وقرب من فرضة المجاز[2] ، واتصال الأرض ببلاد المشرق ، طرقته الأفكار ، وزعزعت صبره رياح الخواطر ، وتذكر اشراف العمر على التمام ، وعواقب الاستغراق ، وسيرة الفضلاء عند شمول البياض ، ففلبته حال شديدة ، هزمت التعشق بالشمل الجميع ، والوطن الطيح والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وعمل بمقتضى قوله : (موتوا قبل أن تموتوا)"[3].

ثم يبين في رسالته صعوبة هذا الأمر الذى عزم عليه

---

(١) هو على قلعة أى على رحلة.

(٢) فرضة المجاز أى جبل طارق.

(٣) التعريف بابن خلدون ص ١٥٩ ، وقوله (موتوا قبل أن تموتوا) أى موتوا اختيارا بترك الشهوات قبل أن تموتوا حقيقة.

وخطورته ، وأسباب استسهاله له واختياره ، فيقول : " وهذا المركب مرام صعب ، لكن سهله علي أمور: منها أن الانصراف لمّا لم يكن منه بد ، لم يتعين الا على هذه الصورة ، اذ كان عندكم من باب المحال ، ومنها أن مولاى لو سمح لي في غرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه ، لا والله ، ولكان الموت أسبق الي ، وكفى بهذه الوسيلة الحبيبة — التي يعرفها — وسيلة ، ومنها حرصي على أن يظهر صدق دعواى مما كنت أهتف به وأُظن أني لا أصدق ، ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان ، والهدنة الطويلة ، والاستغناء ، اذ كان الانصراف المفروض ضروريا قبيحا في غير هذه الحال ، ومنها — وهو أقوى الأعذار — أنني مهما لم أطق تمام هذا الأمر ، أو ضاق ذرعي به لعجز أو مرض ، أو خوف طريق ، أو نفاذ زاد ، أو شوق غالب ، رجعنا رجوع الأب الشفيق ، الى الولد البر الرضي ، اذ لم أخلف ورائي مانعا من الرجوع ، من قول قبيح أو فعل ، بل خلفت الوسائل المرعية ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة ، وانصرفت بقصد شريف فقت به أشياخي ، وكبار وطني ، وأهل طورى ، وتركتكم على أتم ماأرضاه ، مثنيا عليكم ، داعيا لكم ، وان فسح الله الأمد ، وقضى الحاجة ، فأملي العودة الى ولدى وتربتي ، وان قطع الأجل ، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله ".[1]

---

(١) السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

ثم يحاول ابن الخطيب اقناع سلطانه بصحة عمله هـذا ، كما يحاول تذكيره بحسناته ، كي لا يستغل الحاسدون بُعده فيزيفون عليه ، ويشوهون صورته ، فيقول : " فان كان تصرفي صوابا ، وجاريا على السداد ، فلا يلام من أصاب ، وان كان عن حمق وفساد عقل ، فلا يلام من اختل عقله ، وفسد مزاجه ، بل يعذر ويشفق عليه ، ويرحم ، وان لم يعط مولاى أسرى حقه من العدل ، وجلبت الذنوب ، وحشرت بعدى العيوب ، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك ، ويستحضر الحسنات من التربية والتعليم ، وخدمة السلف ، وتخليد الآثار ، وتسمية الولد ، وتلقيب السلطان ، والارشاد للأعمال الصالحة والداخلة والملابسة ، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر ، ولا غش في تدبير ، ولا تعلق به عار ، ولا كدره نقص ، ولا عمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم ، فان لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والابقاء ، ففيم تكون بين بني آدم ؟ ".(١)

ويجمل نصائحه لسلطانه فيقول : " وأنا قد رحلت ، فلا أوصيكم بمال ، فهو عندى أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم ، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ، ولا بعيال فهي من مربيات بيتكم ، وخواص داركم ، انما أوصيكم بحظي العزيز ـ كان علي بوطنكم ، وهو أنتم ، فأنا أوصيكم بكم ،

---

(١) السابق ، ص ١٦١ .

فارعوني فيكم خاصة ، وأوصيكم بتقوى الله والعمل لغد ، وقبض عنان اللهو في موطن الجد ، والحياء من الله الذى محّض وأقال ، وأعاد النعمة بعد زوالها (لينظر كيف تعملون)، وأطلب منكم عوض ماوفرته عليكم من زاد طريق ، ومكافأة واعانة ، زادا سهلا عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفر الله لك ماضيعت من حقي خطأ أو عمدا ، فاذا فعلتم ذلك فقد رضيت ".[1]

وقبل أن يختم رسالته يشيد بنفسه ، لا على طريق الغرور ، ولكن على سبيل النصح ، فيقول : " واعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، وعند كل ملك ، واعتقاده وبره ، والسؤال عنه ، وذكره بالجميل ، والأذن في زيارته ، نجابة منكم ، وسعة ذرع ودهاء ، فانما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ثم أقشعت ، وتركت الأزاهر تفوح ، والمحاسن تلوح ".[2]

وأخيرا يختم رسالته مكررا تذكير سلطانه باخلاصه له ، وقديم بره قائلا : " ونختم لكم هذه الفزارة[3] بالحلف الأكيد : أني ماتركت لكم وجه نصيحة في دين ولا دنيا ، الا وقد وفيتها لكم ، ولا فارقتكم الا عن عجز ، ومن ظن خلاف هذا فقد ظلمني وظلمكم ، والله يرشدكم ، ويتولى أمركم ".[4]

---

(١) السابق ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .
(٢) السابق ، ص ١٦٢ .
(٣) الغزارة : الكثرة من الشئ ، والمراد هنا كثرة الحديث .
(٤) التعريف بابن خلدون ، ص ١٦٣ .

والقارئ لهذه الرسالة لا يسعه الا أن يتعاطف مع ابن الخطيب ، ويقف في صفه ، ويعجب باخلاصه ، غير أن بعضا من الكتاب حاولوا البحث عن سبب خفي لهروب ابن الخطيب ، كالدكتور أحمد مختار العبادى في مقدمة كتاب (تاريخ المغرب الوسيط) أو القسم الثالث من أعمال الأعلام ، حيث يرى أن الدافع وراء فرار ابن الخطيب غرض مصلحي بحت ، وهو الاستكثار من الضياع والعقار والتأنق في بناء المساكن والخبات ، وأنه حاول تبرير هجرته ، وهروبه بأنها لغرض العبادة ، والانقطاع عن الناس والفرار لله وحده".(1)

والحق أن ابن الخطيب كان يملك من العقار والضياع والجاه العريض في الأندلس مالا يملك نظيره في المغرب ، فلو كان يريد ذلك فقط لما ترك الأندلس ، ولأمكنه أيضا الاستفادة من أملاكه في المغرب ، نظرا لقوة العلاقة بين الدولتين ، هذا بالاضافة الى أن الأندلس موطنه ، ومسقط رأسه ، ومرتع طفولته وصباه.

الا أنه كان يبحث عن الاستقرار النفسي والراحة ، والسلامة بعيدا عن مسئوليات السياسة الجسام في دار آمنة مكفول له فيها مايريد من العقار والضياع والعيش الرغيد ، ولهذا حاول الابقاء على العلاقة مع سلطان الأندلس للافادة من

---

(1) تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص م .

أملاكه هناك.

وهذا كله لا يتعارض مع الفرض الأخرى أبدا ، بل ان ذلك قد ييسر له الحج والزيارة في راحة تامة ، كما ييسر له الانفراد بنفسه للتأليف والتصنيف والعبادة.

ولا ننسى مع ذلك أن ابن الخطيب كان شاعرا ، والشاعر يتوق في أحايين كثيرة الى الحرية ، ولا يرغب فيما يكبله من قيود ، وبخاصة الأعمال السياسية لما فيها من أرهاق نفسي ، وقلق دائم ، وهو قد أحس بشيء من الراحة أيام نفيه بسلا ، فعاد الى المغرب علّه يجد ذلك.

ويؤكد هذا قوله: " ثم ترجح لديّ السكون الى العافية ، والتمتع بالبقية ، فجنحت الى السكنى بمدينة سلا ، حيث طنبت الحرمة رواقها ، ... ، تجرى عليّ بها النعم ، ويظللني المجد والكرم ، فلا أعدّ من عمري الا أيام مقامي بها ، وسكناى فيها ، تفرغا الى ما أريده من دنيا وآخره ، وعافية شاملة ، وجنة عاجلة ".(١)

ولعل هذا واحد من أسباب حبه للمغرب ، بالاضافة الى أن هذه الأرض تضم جسد زوجته التي أحبها ، وصدم بوفاتها ، وقد يكون هذا واحدا من الدافع الخفية — حتى عن ابن

---

(١) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٢.

الخطيب نفسه ـ التي دفعت به الى الهجرة.

... ...

٤ - المرحلة الرابعة

وتبدأ بلجوئه الى سلطان المغرب عام ٧٧٣ هـ، وتنتهي بسقوط الوزير ابن غازى.

استقر ابن الخطيب في المغرب عند سلطانها أبي فارس، الذى أكرم في اكرامه، وبعث الى الأندلس متشفعا في طلب ولده، فجاؤوه معززين مكرمين.(١)

وجدير بالتنويه والذكر "أن المغرب في عهد ذلك السلطان، أبي فارس عبد العزيز، قد نهض نهضة سياسية عظيمة، وصار قلبا للعالم الاسلامي الغربي، ففي عهده زالت الحروب والفتن الداخلية، وضم المغرب الأوسط، وبمعنى أصح مملكة تلمسان الى ملكه، وبهذا صار المغرب وحدة وقوة يخشى خطرها".(٢)

أما في غرناطة فقد تحقق ماكان يظنه ابن الخطيب، حيث استطاع مبغضوه من الحساد والوشاة تغيير قلب الغني بالله ضده، وشوهوا صورته عنده بأنواع السعايه "لا بشهادة عدل

---

(١) راجع: تاريخ أسبانية الاسلامية ص ٣١٨، الاحاطة، المقدمة مج/١ ص ٣٥، ٣٦.

(٢) تاريخ المغرب الوسيط، المقدمة ص ن.

مقبول ، ولا ثبوت خط معروف ، وانما ألاقيّ راشها الهوى وبراها".[1]

وتوالت على سلطان المغرب سفارات الغني بالله تطالب بتسليم ابن الخطيب المتهم بالكفر والالحاد لعبارات زعموا ورودها في كتابه (روضة التعريف بالحب الشريف) وكان من ألد أعدائه الذين حصلوا عليه بعد الغني بالله ، ابن زمرك ، والحسن النباهي ، وكلاهما من تلاميذ ابن الخطيب ، وصنائع نعمته ، الا أن السلطان المريني لم يخفر جوار ابن الخطيب بل رد على اتهامهم بمنطقية وعقلانية: "ولماذا لم تعاقبوه اذا حينما كان مقيما عندكم".[2]

ولما شعر أعداؤه وشانئوه بأنهم لن يصلوا اليه مادام في جوار السلطان أبي فارس ، امتدت أيديهم على ماخلّف في الأندلس ، فأحرقت مصنفاته ، وصودرت ممتلكاته ، كل ذلك في محاولة للانتقام منه ، واطفاء بعض مايتقد في نفوس حساده عليه.[3]

ويرى بعض الكتاب استنادا على ماقاله ابن خلدون ، أن ابن الخطيب راح يحرض السلطان عبد العزيز المريني على الاستيلاء

---

(١) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٩.

(٢) راجع: مقدمات كل من: اللمحة البدرية ص ٧ ، الاحاطة مج ١/ ص ٤١ ، تاريخ المغرب الوسيط ص ن.

(٣) راجع : تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٩، ٣٢٠.

على غرناطة ، وأن هذا وافق هوى في نفس الأخير ، فلما علم الغني بالله بذلك ثارت مخاوفه ، وأسرع في ارسال الهدايا والتحف الى بلاط فاس لكسب رضاء السلطان ، وابعاد شره.[1]

وقد يكون ذلك صحيحا ، كما قد يكون غير صحيح ، اذ ربما كان نقل ابن خلدون لهذه المعلومة بناء على ماأشيع، غير أن ابن الخطيب دافع عن ذلك بقوله: " الا أن سماسرة الفتنة ، وأعداء الدولة دسّوا له (أى للغني بالله) أمورا من العمل على اجتياز من يطلب ملك الأندلس ، والعزم على اجازته ، وأن الأمر قد أبرم ، والتدبير قد أحكم ، من غير أن ينزل الله بذلك سلطانا".[2]

وتتغير الظروف في غير صالح ابن الخطيب بوفاة السلطان عبد العزيز عام ٧٧٤ هـ ، فيخلفه على العرش ابنه أبو زيان السعيد ، وكان طفلا في الرابعة من عمره ، ويتولى كفالته الوزير أبوبكر بن غازى ، وتبدأ وحدة المغرب في التفكك نتيجة لظهور عدد كبير من الطامعين في الحكم ، ويجد الغني بالله الفرصة السانحة في القضاء على ابن الخطيب ، وابعاد خطر الدولة المرينية ، فيسعى الى بث الخلافات والفتن ضد حكم الطفل ، فيؤلف ابن الخطيب كتابه (أعمال الأعلام فيمن

---

(١) راجع : العبر مج /٧ ص ٣٢٧ ، تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ، ص ن.

(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣٢.

بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام)[1]" ليرد به على من ينكر مبايعة الصغير.

واستمر الغني بالله في ارسال بعض "الأمراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوحا لهم بالعرش المغربي ، ومقدما لهم جميع المساعدات الممكنة"[2] ، كل ذلك في محاولة منه لابعاد هذا الوزير عن الحكم ، والحصول على ابن الخطيب ، ونجح فعلا في اسقاط هذا الوزير في محرم عام ٧٧٦ هـ[3] ، واستبد بالحكم الفعلي للمغرب ، فصار يعزل ويولي من يريد من أبناء بني مرين.

... ...

٥ - المرحلة الخامسة

تبدأ بتولية أمراء بني مرين على المغرب من قبل محمد الخامس ، وتنتهي بقتل ابن الخطيب في شهر ربيع الأول عام ٧٧٦ هـ.

كان ابن الخطيب أثناء تلك الفتن الطاحنة قد لجأ الى ضاحية تدعى (البلد الجديد) قرب فاس ، وكان الغني بالله

---

(١) راجع فصل التاريخ في هذا البحث.
(٢) تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ص.
(٣) راجع: الاحاطة مج / ١ ص ٤١ ، ٤٢ ، تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ن ومابعدها.

قد اتفق مع زعماء الفتنة اذا مانجحوا أن يسلموا له ابن الخطيب ، ولما تم لهم ماأرادوا ، ونجحوا في ابعاد ابن غازى عن الحكم ، بادروا بالقبض على ابن الخطيب ، واعتقاله ، وكان وزير المغرب في تلك الفترة سليمان بن داوود ألد أعداء ابن الخطيب.

وهنا بعث محمد الخامس وزيره ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب ، وأحد الذين ناصبوه العدا ، الى حيث يعتقل ابن الخطيب ، كي يحقق رغبة السلطان في الانتقام منه.

ووجهت التهم القديمة الى ابن الخطيب ، وأهمها تهمة الالحاد والزندقة التي زعموا وجودها في كتابه (روضة التعريف) ، واقترح سلطان المغرب الجديد أن يُعقد مجلس خاص لمحاكمة ابن الخطيب ، على أن يكوّن هذا المجلس من رجال الدولة وأهل الشورى.

وعقد المجلس برئاسة سليمان بن داود[1] العدو الألد لابن الخطيب ، واستدعي لسان الدين للمناقشة والمحاكمة ، وأفتى بعض المتعصبين بقتله ، وعزّر وعذب على مشهد من الناس ، ثم أعيد الى محبسه ، لكن ابن داوود دسّ عليه بعض الأوغاد من حاشيته ـ كما يقول أكثر المؤرخين ـ فطرقوا سجنه ليلا ، ومعهم بعض خدام الغني بالله ، وقتلوه خنقا ، ثم

---

(١) راجع : الأعلام مج/ ٦ ص ٢٣٥ .

أخرجت جثته ودفنت ، وفي اليوم التالي أخرجت جثته ، وطرحت فوق القبر ، وأضرمت حولها النار ، فاحترق شعر رأسه ، واسودت بشرته ، ثم أعيدت الجثة الى القبر قبل أن تحترق ، وتركت هنالك لتثوى الثواء الأخير".[١]

وكان ذلك في ربيع الأول أو ربيع الثاني من عام ٧٧٦ هـ.

... ...

---

(١) الاحاطة مج/١ ص ٤٢، ٤٣ المقدمة.

٢ - أهم الممالك الاسلامية في عصره

الأندلس :

ما أن جاء القرن الثامن الهجرى حتى انحصرت الأندلس في مدينة غرناطة ، وماحولها من المدن الصغيرة والقرى والقلاع والحصون ، وهناك أسس بنو نصر المعروفون ببني الأحمر مملكة غرناطة في منتصف القرن السابع الهجرى تقريبا .

"وقد أطنب الجغرافيون المسلمون والمؤرخون في وصف غرناطة ، وبسط مآثرها ومحاسنها ، حتى لقد شبهوها لحسنها بغوطة دمشق ، فهي جنات متصلة البساتين تتدفق من خيراتها على الغرناطيين ، ثم أنها لم تضق ذرعا بالوافدين عليها من مدن الاسلام المنكوبة بغزوات النصارى من كافة أطراف الأندلس ".(١)

وكان النصارى من ملوك قشتالة وأرجون يضيقون الخناق على هذه الدولة الصغيرة ، في محاولة منهم للقضاء عليها ، غير أنها صمدت في وجه ذلك الطغيان تستمد العون من الله أولا ، ثم من المسلمين في أرجاء العالم الاسلامي آنذاك ،

---

(١) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان - مقدمة المحقق ص ١٢ .

وبخاصة في المغرب العربي حيث بنو مرين .

ولهذا السبب استمر التواصل بين المغرب والأندلس ، وكان بين الدولتين علاقات تجارية وثقافية وفكرية ، وعلاقات حرب وجهاد " فتنقل عدد من أعلام الدولتين بين الحواضر والمدن المختلفة منهما ، وتولى كثير من الأندلسيين مناصب هامة في المغرب ، وكثير من المغاربة مناصب في الأندلس ، وانتقلت بعض الأسر من مواطنها الى البلد الآخر لأسباب سياسية أو اقتصادية أو طلبا للسلامة ".(١)

وكانت الحياة الثقافية والأدبية في المغرب والأندلس على مستوى رفيع من النشاط والتألق فظهر في كلا الدولتين عدد لا يسهل حصره من المفكرين والأدباء والباحثين ، والكتاب والشعراء ، كابن الخطيب ، وابن خلدون ، وغيرهما .

واستمرت دولة بني نصر في تقوية هذا التواصل الثقافي والأدبي والسياسي ، ليس مع المغرب فحسب ، بل مع سائر الدول الاسلامية في ذلك العصر لتشد من أزرها أمام طغيان النصارى الأسبان .

وقد تداول عرش مملكة غرناطة منذ تأسيسها الى سقوطها كثير من ملوك بني الأحمر منهم :

---

(١) السابق ص٧ .

١ - محمد بن يوسف بن محمد بن نصر المتوفى عام ٦٧١ هـ، وهو أول من أسس ملكا لبني الأحمر في غرناطة عام ٦٣٥ هـ.

٢ - ابنه محمد بن محمد بن يوسف المتوفى عام ٧٠١ هـ، وقال عنه ابن الخطيب " ثاني الملوك من بني نصر وعظيمهم، وأساس أمرهم ، وفحل جماعتهم ".[1]

٣ - ابنه محمد بن محمد بن محمد بن يوسف المتوفى عام ٧١٠ هـ.

٤ - نصر بن محمد بن محمد بن يوسف المتوفى عام ٧٢٢ هـ.

٥ - اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف المتوفى عام ٧٢٥ هـ ، ويكنى أبا الوليد ، وبه انتقل الحكم من فرع محمد بن يوسف الى فرع جده اسماعيل بن يوسف.

٦ - محمد بن اسماعيل بن فرج ، المتوفى عام ٧٣٣ هـ ، وهو أخو السلطان السابق ويكنى أبا عبد الله.

٧ - يوسف بن اسماعيل بن فرج المتوفى عام ٧٥٥ هـ ، ويكنى بأبي الحجاج ، وقد عمل لسان الدين في بداية مراحل حياته كاتبا ضمن كتابه ، وكان ذلك عام ٧٤١ هـ ، ثم رئيسا للكتاب ، ووزيرا له عقب وفاة ابن الجياب بالطاعون عام ٧٤٩ هـ.

---

(١) اللمحة البدرية في الدولة النصرية ص ٣٧.

٨ - محمد بن يوسف بن اسماعيل المتوفى عام ٧٩٢ هـ ، وهو ابن أبي الحجاج السالف ويلقب بالغني بالله ، وقد عمل ابن الخطيب وزيرا له ، ورئيسا لكتابه ، وكان لهذا السلطان دور كبير وخطير في مراحل حياة ابن الخطيب ، وبسببه قتل ابن الخطيب في المغرب عام ٧٧٦هـ.

وقد تولى الغني بالله عرش غرناطة مرتين ، الأولى منذ عام ٧٥٥ هـ ، الى عام ٧٦٠ هـ ، حيث خلع على يد أخيه لأبيه اسماعيل بن يوسف المتوفى عام ٧٦١ هـ، وصهره محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج المتوفى عام ٧٦٣ هـ.

والثانية منذ عام ٧٦٣ هـ الى عام ٧٩٣ هـ وهو عام وفاته .

... ...

المغرب :

من العسير فصل تاريخ المغرب عن الأندلس في القرن الثامن ، اذ هما متصلان فقد توالت على المغرب والأندلس حركتان سياسيتان اجتاحتهما الواحدة تلو الأخرى ، الأولى كانت حركة المرابطين ، والثانية حركة الموحدين ، وكان لهاتين الحركتين الفضل في بقاء الأندلس تحت الحكم الاسلامي مدة أطول .

فلما أحسّ بعض الطامعين في الملك بضعف دولة الموحدين ، أخذوا في محاولة تقسيم هاتين الدولتين ، المغرب والأندلس " فظهرت من جديد دول طوائف تقتسم الأندلس والمغرب ، كبني مردنيش ، وابن هود وابن الأحمر في الأندلس ، ومثل بني مرين في المغرب ، وبني عبد الوادى بتلمسان ، وبني حفص بتونس وبجاية ".(١)

واستطاع بنو الأحمر في القرن السابع ـ كما سلف القول ـ توحيد أجزاء مملكة غرناطة ، وتأسيس مملكة موحدة بها .

أمّا في المغرب فقد برزت دولة بني مرين أكثر من غيرها من حيث القوة العسكرية ، وقد أبلوا بلاء حسنا في الجهاد بالأندلس مع بني الأحمر ضد النصارى .

وكان التنازع بين دولة بني مرين ودولة بني عبد الوادى بتلمسان ، وبني حفص بتونس مستمرا ، واستطاع بنو مرين في فترات مختلفة السيادة على تلمسان وتونس ، الا أن ذلك لا يطول فتعود تلمسان لبني عبد الوادى ، وتونس وبجاية لبني حفص ، ولهذا " حمل المرينيون عبئين ، عبء الجهاد ، وعبء القضاء على المناوئين ".(٢)

---

(١) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ـ مقدمة المحقق ص ٢٥ .
(٢) السابق والصفحة .

أهم ملوك بني مرين :

أولهم عبد الحق بن محيو ، وهو أبو ملوكهم ، وقد كان هو وبعض قبيلته — زمن الموحدين — يغيرون على بعض مدن المغرب في محاولة لامتلاكها ، الى أن جاء عام ٦١٠ هـ فاستطاع عبد الحق تضيق الخناق على الموحدين ، وامتلك أكثر بوادى المغرب ، فأطاعته قبائل البربر ، وعظم سلطانه ، وتوارث أولاده الحكم ، واستطاع أحد أبنائه وهو يعقوب بن عبد الحق المتوفى عام (٦٨٥ هـ) القضاء على آخر ملوك الموحدين ، ودخل مراكش عام ٦٦٨ هـ.

وكان ليعقوب هذا وقائع مشهورة في الأندلس ، وتوفى بالجزيرة الخضراء وهو معسكر للجهاد .

ثم جاء بعده ابنه الناصر يوسف بن يعقوب المتوفى قتيلا عام ٧٠٦ هـ ،وقد كانت له صلة بثاني سلاطين بني الأحمر محمد الثاني المتوفى عام ٧٠١ هـ.

وبعد مقتل يوسف اتفق بنو مرين على تمليك عامر بن عبد الله بن يوسف المتوفى عام ٧٠٨ هـ ، ثم تولى الأمر أخوه سليمان بن عبد الله المتوفى عام ٧١٠ هـ ، وقد استطاع استعادة مدينة سبتة الى حكمه.

وتلاه في الحكم أبو سعيد عثمان بن يعقوب المتوفى عام

٧٣١ هـ ، واستطاع التغلب على موسى بن عثمان العبد وادى وأخذ تلمسان من حوزته عام ٧١٤ هـ ، ثم تولى بعده ابنه السلطان أبو الحسن (المنصور) المتوفى عام ٧٥٢ هـ ، وفي عهده وقعت بطريف المعركة التي استشهد فيها والد ابن الخطيب وأخيه.(١)

وقد دبّج ابن الخطيب بعضا من الرسائل السلطانية على لسان السلطان أبي الحجاج سلطان غرناطة ووجهها الى هذا السلطان ، كما أرسل الى قبر هذا السلطان رسالة يتشفع بها عند ولده أبي سالم ، ووصف في نفاضة الجراب قبر هذا السلطان لما زاره في رحلته الى جبل هنتانة.(٢)

واستطاع السلطان أبو الحسن توحيد المغرب من حدود مصر الى البحر المحيط ، غير أن الثوار من بني حفص أصحاب تونس لم يذعنوا له ، فاضطربت أموره ، وتضاربت الأخبار عنه في تلمسان ، وزعموا أنه غرق في مياه بجاية ، فبويع لابنه أبي عنان فارس على تلمسان والمغرب ، فلما عاد أبو الحسن ناجيا مع بعض أصحابه الى فاس سدّت أبوابها عليه من قبل ولده أبي عنان ، ودارت بينهما معارك ، ثم

---

(١) انظر: السابق ص ٢٤ ومابعدها.
(٢) راجع: نفاضة الجراب ص ٤٨ ومابعدها.

توفي أبو الحسن عام ٧٥٢ هـ بعد أن خسر ملكه ووحدة المغرب.(١)

وصار المغرب تحت حكم السلطان أبي عنان منذ عام ٧٤٩هـ إلى ٧٥٩ هـ ، وكانت الحرب سجالا بينه وبين بني عبد الواد أصحاب تلمسان ، والحفصيين أصحاب تونس وبجاية.

ويرى المؤرخون أن أبا عنان كان محبا للعلم ، مقربا للأدباء ، فازدهرت في عهده الحضارة وكثر العمران.

وقد مات أبو عنان مقتولا اذ خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودوى ، وقدّم للملك ولده أبا بكر السعيد بن أبي عنان.

ثم تولى الحكم بعده أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن ، وفي زمنه خلع الغني بالله ولجأ اليه مع وزيره ابن الخطيب عام ٧٦٠ هـ ، وقُتل أبو سالم في نفس العام على يد وزيره أبي عمر الذى قَدّم للحكم تاشفين بن أبي الحسن ، وكان تاشفين معتوها ميئوسا من افاقته ، على حد قول المؤرخين.(٢)

ثم أخذ الحكم بعده السلطان أبو زيان عام ٧٦٣هـ ، وهو العام الذى استطاع فيه الغني بالله استرداد عرشه.

---

(١) انظر: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان - مقدمة المحقق ص ٣٠ ومابعدها.

(٢) انظر: اللمحة البدرية في الدولة النصرية ص ١٠٥.

وقضى أبو زيان مدة ملكه في لهو وعبث فسئم منه وزيره عمر بن عبد الله ، ودبّر مقتله .

وفي عام ٧٦٧ هـ استطاع أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني أن يستقل بحكم المغرب ، واسترجعت الدولة في عهده كثيرا من قوتها ،وفتك بالوزير عمر بن عبد الله ، واستطاع أخذ تلمسان من يدّ أبي حمو ، وفي عهده فرّ ابن الخطيب لاجئا الى المغرب ، وبقي في ضيافته الى أن مات أبو فارس أوائل عام ٧٧٤ هـ ، وبموته فقد ابن الخطيب الحماية ، والجبل العاصم من الطوفان على حد تعبيره.[1]

وتولى الحكم بعد أبي فارس ولده محمد أبو زيان الثاني ، وكان طفلا لم يبلغ الحلم ، وكفله الوزير ابن غازى ، وكان المدبر لأمر دولته ، وأنف الناس من حكم الطفل ، وكان الغني بالله ينتهز هذه الفرصة ، ويعيب عليهم أن يولوا أمرهم لطفل ، فألفّ ابن الخطيب في المغرب ردا على هذا كتابه (أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام) .

غير أن الغني بالله تمكن أخيرا من القضاء على دولة أبي زيّان ووزيره والقضاء على ابن الخطيب ، وصار هو

---

(١) راجع : تاريخ اسبانية الاسلامية ص ٣٢٠ .

يعيّن من شاء لتولي حكم المغرب ، ويعزل من شاء.[١]

... ...

مصر والشام:

كانت دولة المماليك يومئذ تبسط نفوذها على مصر والشام ، فحينما تأسست دولة بني الأحمر في الأندلس عام ٦٣٥ هـ ، كانت السلطنة في المشرق للملك الظاهر بيبرس البندقداري العلائي المتوفى عام ٧٧٦ هـ.

ثم تولى عرش الدولة بعده ابنه الملك السعيد محمد بركه خان بن الملك الظاهر بيبرس الى عام ٦٧٨ هـ ، حيث خلعه بعض الأمراء وولوا أخاه السلطان سلامش بن السلطان الظاهر بيبرس ، وكان عمر (سلامش) هذا سبع سنين وشهرا.[٢]

واستطاع القائم بأمر هذا الطفل ، وهو قلاوون الصالحي أخذ السلطنة لنفسه عام ٦٧٨ هـ ، الى أن توفى عام ٦٨٩ هـ ، ثم تولى الأمر بعده أولاده خليل بن قلاوون المتوفى عام ٦٩٣ هـ ، والناصر محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٤١ هـ.

---

(١) راجع : نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان - مقدمة المحقق ص ٣٢ ومابعدها ، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، مقدمة المحقق.

(٢) انظر: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ص ٢٩٣.

وقد تولى الأخير عرش دولة المماليك ثلاث مرات متفرقة[1] الى أن توفي ، فعاد الحكم لأولاده وهم :

١) السلطان المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٤٢ هـ .

٢) السلطان الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٤٥ هـ.

٣) السلطان الصالح اسماعيل بن محمد المتوفى عام ٧٤٦هـ.

٤) السلطان الكامل شعبان بن محمد المتوفى عام ٧٤٧ هـ.

٥) السلطان المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٤٨ هـ.

٦) السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٦١ هـ.

٧) السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٦٢ هـ.

ثم انتقل عرش السلطنة من السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الى ابن أخيه المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد المتوفى عام ٨٠١ هـ.

---

(١) راجع : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ص ٣١٦ ومابعدها .

وقد راسل ابن الخطيب في زمن الغني بالله ٧٥٥ - ٧٧٣ هـ سلاطين المماليك من أبناء محمد بن قلاوون ، اذ نجد له رسالتين سلطانيتين بعث بهما الى بعض سلاطين مصر آنذاك ، يطلب فيهما المدد والعون ضد ملوك النصارى في الأندلس.

... ...

الحجاز:

كانت مكة في أواخر القرن السابع الهجرى تحت حكم الأشراف من أولاد قتادة ابن ادريس بن مطاعن الحسني ،[1] وكان الحجاز كله ، على ذلك العهد ــ عهد دولة المماليك ــ تحت نظر هذه الدولة ، يولون عليه من شاءوا من الأشراف الحسنيين ، ويخلعون من شاءوا منهم.

ولعل أهم أمراء مكة في القرن الثامن الهجرى هم:

أبو نمي محمد الحسني ، وأولاده رميثة وحميضة ، وأبو الغيث وعطيفة ، وعجلان بن رميثة ، وثقبة بن رميثة ، وغيرهم.

وقد أرسل ابن الخطيب في عام ٧٧١ هـ ، رسالة سلطانية

---

(١) انظر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ/ ١ ص ٦٤٠ ومابعدها ، واتحاف الورى بأخبار أم القرى جـ/ ٣ ص ١٣٢ ومابعدها.

على لسان الغني بالله الى أحد هؤلاء الأمراء وهو عجلان بن رميثة ، وأرفق معها رسالة الى صاحب المدينة المنورة ، وأخرى الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام.[1]

... ...

٣ - النثر في عصره

يمتاز النثر في عصر ابن الخطيب ، أى في القرنين السابع والثامن ، بالسلاسة والسهولة في أكثره ، ويعتمد على الاكثار من المحسنات البديعية بغرض التزيين والتنميق ، ولذا يكثر استخدام الأسلوب المسجع ، المليء بالاقتباس من آى الذكر الحكيم ، والتضمين للأشعار ، وتوخي الجناس ، والترادف والازدواج ، وحل النظم ، والتورية بمصطلحات العلوم والفنون وأسماء الكتب الى غير ذلك من المحسنات.

وربما كان هذا واحداً من الأسباب التي دفعت الكتّاب الى الاسهاب والاطالة حتى صارت سمة بارزة من سمات النثر في ذلك العصر.

ولقد جعل الكتاب البارزون في المشرق تقاليد ورسوما

---

(١) انظر ملحق رقم (٣/أ).

احتذاها بقية الكتاب في المغرب والأندلس كالتعظيم والتبجيل عند ذكر السلاطين والحكام والأمراء ، واسباغ الألقاب الكثيرة عليهم ، كالمقام والمقر والأمجد والأمثل والأوحد ، والكامل والناصر والمظفر وغير ذلك.

ولعل في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الانشاء) مايؤكد هذا ويدعمه ، اذ حاول مؤلفه فيه أن يدون أهم الرسوم والتقاليد التي ينبغي على الكتّاب أن يحتذوها عند الكتابة.

وكنموذج للنثر الفني في القرن الثامن في المشرق نورد جزءاً من رسالة في صيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون المتوفى عام ٧٤١ هـ ، وهي من انشاء القاضي تاج الدين البارنبارى المتوفى عام ٧٥٦ هـ ، يقول فيها :

" الحمد لله الذى نمّم النفوس الشريفة بادراك الظفر ، وأنعم على هذه الأمة بمجدها الذى أنار كوكب نصره وسفر ، وشرع لها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الغنيمة في السفر ، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذى حُفت أيامه بالعزّ والتأييد والظفر".(١)

وفيها يقول بعد مقدمة طويلة: " وكان الله تعالى قد

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الانشاء مج / ١٤ ص ١٨٨.

جمع للمواقف الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، الملكية ،الناصرية ـ خلد الله سلطانها ـ سعادة الحالتين حربا وسلما ، ... ، ... ، ... ، وفي خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة الى ابتغاء صيد الوحش والطير ، لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد ، وحصول المسرة بكل ظفر جديد ، فيرسم ـ خلد الله سلطانه ـ في الوقت الذى يرسم به من مشتى كل عام باخراج الدهليز المنصور ، فينصب في برّ الجيزة بسفح الهرم ، في ساعة مباركة آخذة في اقبال الجود والكرم".(١)

ويستمر على هذا النحو الى أن يقول بعد أن وصف عبور السلطان لنهر النيل : "وسار في زروع مخضرة ، وثغور نبات مفترة ، وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره ، وأعدّت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يتوسم فيه النجاح ، قبل خفق الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح".(٢)

وعلى هذا النسق تسير الرسالة الى نهايتها ، وهي في غاية الطول الذى يشعر معه القارئ بالملل ، وان كانت تتسم بسلاسة الأسلوب ، ووضوح المعاني والبعد عن الألفاظ

---

(١) السابق ص ١٨٩.
(٢) السابق ص ١٩٠.

الغريبـــة .

ويستخدم الكاتب فيها التعبير بالصورة بطريقة الاستعارة واضافة المشبه به للمشبه ، وقد بنيت على السجع والجناس، واستخدام المحسنات البديعية ، كما أكثر الكاتب فيها من ألفاظ التعظيم والتبجيل .

... ...

الباب الأول
(فنـــــون نثـــره)

(تمهيد)

البـــــــاب الأول

كتب ابن الخطيب كثيرة منها المطبوع والمخطوط ، والمفقــود ، وقد أشــرت الى كل كتاب على حدة في ملحق خاص بنهـــاية البحـــث.[1]

وكتب ابـن الخطيب المطبوعة تسعـة كتب هـي :

١ - الاحاطة في أخبار غرناطة ، في أربعة مجلدات.

٢ - أعمال الأعــلام ، طبع منه قسمان في مجلدين.

٣ - جيش التوشيح ، في مجلد واحد .

٤ - روضــة التعريف بالحب الشريف ، في مجلدين.

٥ - ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، في مجلدين.

٦ - الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ، في مجلد واحـد .

٧ - كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، في مجلد واحد .

٨ - اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، في مجلد واحـد .

٩ - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، طبع منه قسم في مجلـد واحـــد .

وقد ضمنت خــلال هـذه الكتب مقتطفات من بعـــض الكتب المفقودة والمخطوطة.

---

(١) راجـع الملحـق رقم (١).

كما حقق بعض الأساتذة المعاصرين عددا من رسائل ابن الخطيب ، أخرجوها في مجموعات خاصة ، مثل (مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في المغرب والأندلس ، للدكتور أحمد مختار العبادي .

ومن خلال قراءات هذه المصنفات يمكن حصر الفنون التى كتب فيها ابن الخطيب في أحد عشر فنا ، هي : " الانشاء" والأخوانيات ، والرسائل الأدبية ، ورسائل الدعابة ، وفن المقامات ، والزجر والوعظ ، والتاريخ ، والتراجم ، والحلية والوصف ، والأدب الجغرافي ، والنثر الصوفي) .

والواقع أن كتابات ابن الخطيب اختلفت باختلاف الفنون التي كتب فيها ، وفي فصول هذا الباب سنستعرض كل فن كتب فيه على حدة ، مقدمين لكل فن بحديث موجز يعرف بتاريخه ، ومراحل تطوره ، بالاضافة الى الاشارة الى أهم قواعده وأصوله ، ومناهجه التي سار عليها السابقون ، ثم نستعرض كتابات ابن الخطيب في ذلك الفن لنرى منهجه فيه ، وماأضافه اليه ان كان ثمة اضافة ، مع الاشارة الى أهم المآخذ عليه .

الفصل الأول
(الإنشـــــاء)

الإنشاء

الانشاء هو الخلق ، أو الصنع ، ومنه قولهم: " فلان ينشيء الأحاديث أى يضعها " ،[1] أو يصنعها . ويقولون أنشأ فلان قصيدة أو رسالة أو مقالة أى صنع وابتكر ، ومن هنا يتضح أن مادة أنشأ انشاء واسعة المعنى . اذ يصح أن تطلق على كافة أنواع الكتابة ، ولكن الأدباء قصروا كلمة الانشاء على الكتابة الديوانية ،فأرادوا بكلمة الانشاء " كل مارجع من صناعة الكتابة الى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات ، والولايات ، والمسامحات ، والاطلاقات ، ومناشير الاقطاعات " ،[2] وأطلقوا على الديوان الذى تصدر منه مثل هذه المكاتبات (ديوان الانشاء) .

ولقد كانت الكتابة الديوانية أو السلطانية هذه من أهم ألوان النثر عند القدماء "حتى كانت الكتابة اذا أطلقت لا يراد بها غير كتابة الانشاء ، والكاتب اذا أطلق لا يراد به غير كاتبها ، حتى سمى العسكرى كتابه (الصناعتين الشعر والكتابة) يريد كتابة الانشاء وسمى ابن الاثير كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) يريد كاتب الانشاء ، اذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الانشاء من علم البلاغة وغيرها " .[3]

وقد عرفت الكتابة الديوانية منذ العصور الاسلامية الأولى ،[4] ولعل أشهر الكتاب القدماء عبد الحميد الكاتب المتوفى عام ١٣٢هـ ،

---

(١) الصحاح مج / ١ ، ص ٧٧ .
(٢) صبح الأعشى مج / ١ ص ٨٤ ، أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٥٧٣ .
(٣) صبح الأعشى ، مج / ١ ، ص ٨٢ .
(٤) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الاسلامي ،ص ٤٥ ومابعدها .

فقد كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، " فنوع الخطاب موافقة لحال المخاطب ، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال ، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض ، وأطال التحميدات في صدور الرسائل ، وسار على أثره المترسلون ، فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول ، مميزة الفصول ، مبنية القواعد "(١) ثم أخذت الكتابة في التطور ، فظهر فيما بعد كتاب مشهورون ، أسسوا في النثر مدارس فنية حيث كانت طرقهم في الكتابة نماذج تحاكى ، من أمثال الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ ، وابن العميد المتوفى عام ٣٦٠هـ ، والقاضي الفاضل المتوفى عام ٥٩٦هـ.

ونظرا لمنزلة كتابة الانشاء ، وأهمية ديوانه في الدولة اشترطوا أن يرأس هذا الديوان أعلم أهل عصره بفنون الكتابة وأساليبها ، اذ هو بمثابة لسان الدولة الناطق "وهو حلية المملكة وزينتها ، لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرها ، ويعلي ذكرها ، ويعظم خطرها ويدل على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب والاحماد والاذمام واقتضاب المعاني التي تقر الوالي على ولايته وطاعته ، وتعطف العدو عن معصيته".(٢)

وكان يشترط في صاحب هذا المنصب " زيادة العلم ، وغزارة الفضيلة ، وذكاء القريحة ، وجودة الرؤية لما يحتاج اليه من التصرف في المعاني المتداولة ، والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبّر

---

(١) تاريخ الأدب العربي - الزيات ، ص ١٩٨.
(٢) صبح الأعشى ، مج / ١ ، ص ٨٦.

بها من سبق الى استعمالها مع حفظ صورتها ، وتأديتها الى حقائقها".[1]

وكان من خصائص الرسائل الديوانية المهمة " المحافظة على الألقاب المصطلح عليها ، فهناك الأشرف والشريف ، والكريم والعالي ، الى غير ذلك من صفات التفخيم ، والمحافظة على نماذج مرعية في الموضوعات المختلفة "[2] ، لذلك كان هذا الفن يحتاج الى كثير من الدقة في التعبير.

وقد وضع بعض الكتاب مؤلفات ليستفيد منها من يطمح الى بلوغ ذلك المنصب ومن أشهرها (أدب الكاتب) لابن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦هـ ، و(الصناعتين) لأبي هلال العسكري المتوفى عام ٣٩٥هـ ، و(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير المتوفى عام ٦٣٧هـ ، و(صبح الأعشى في صناعة الانشا) للقلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ.

وقد فصل المؤلفون القول فيما ينبغي أن تكون عليه الرسالة الديوانية من حيث الشكل والمضمون ، وقسموا أغراض الكتابة الديوانية الى ألوان كثيرة ، وجعلوا لكل غرض منها رسوما ، بحيث يختلف أسلوبها بحسب غرضها ، ونشير هنا الى أهم أغراض الكتابة الديوانية:

١) التهنئة بالنصر ، وفيها "يذهب الكاتب الى بسط الكلام في شكر

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥.
(٢) تاريخ الأدب العربي - حنا فاخوري ، ص ٨٧٠.

الله وتعظيم النصر ، وذكر مايتصف به المنتصر من عزم واقدام وجلد ، ووصف جيشه وعدته وعدده والتهويل بذكر العدو ، ووصف جمعه ، وعدده ، وغير ذلك لما تقتضيه عظمة النصر ، وحال الممدوح".[١]

٢) الحث على الجهاد ، والرسم في رسائل هذا الغرض أن تفتتح بحمد الله على " اعزاز الكلمة واسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وماوعد الله به من نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، ... ، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وذكر طرف من مواقفه في الجهاد".[٢] ثم يدخل في صلب الموضوع ، فيحث الجمهور على الاعتصام بالله ، والاستبسال في نصرة الحق ، ويخوفهم من الوقوع في الذل اذا ماتركوا الجهاد .

٣) الدعوة للدين ، ويرى النقاد أن كاتب هذه الكتب يحتاج "الى علم التوحيد وبراهينه وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة وعامه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته ، ليتوسع في الابانة من ظهور حجته ، ووضوح محجته".[٣]

٤) الاعتذار عن الخليفة أو السلطان بالهزيمة ، "وهي كتب يتوخى فيها الايجاز مع التزام الصدق في القول حتى لا يعثر الشعب على كذب يزرى بالحاكم ، ويحط من شأنه".[٤]

---

(١) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ص ٢٢٠ .
(٢) صبح الأعشى مج /٨ ص ٢٤٩ ،أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص٥٧٤ .
(٣) صبح الأعشى مج /٨ ص ٢٤٨ ،أسس النقد الأدبي عند العرب،ص ٥٧٤ .
(٤) أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٥٧٦ .

٥) التعازي في النوائب والحوادث ، وفيها يبين الكاتب عظم النازلة ، وفجعة المرسل بها ثم يحث المصاب بالصبر ، واذا كان الحادث وفاة شخص مهم يحاول الكاتب اظهار عظم شأنه ومن ثم عظم أجر الذى أصيب فيه اذا صبر ، وأصعب شئ في مثل هذه الرسائل ، الجمع بين العزاء والتهنئة في رسالة واحدة ، وهو مما يرفع منزلة الكاتب اذا مانجح في التعبير عن ذلك.

٦) الشفاعات لدى الخلفاء أو السلاطين أو الملوك أو الأمراء ، وهنا لابد أن يكون الكاتب ذا منزلة عظيمة تسمح له بذلك.

٧) الصدقات والمبايعات ، وكتب العهود لأولياء العهد ، وللملوك عن الخلفاء الى غير ذلك.

٨) معاهدات الصلح وعقود الهدنة ، وفسخ هذه المعاهدات والعقود.

٩) الشكر على الهدايا ، وتقرير المودة بين الدويلات.

١٠) ظهائر الأمراء والولاة ، وهي تشبه الى حد ما المراسيم الملكية التى تصدر في عهدنا عن الدواوين الملكية ، وأغراض هذا النوع من الرسائل أو الكتب مختلفة وكثيرة.

١١) مكاتبات العمال ، والولاة ، ورجال الجيش ، والتعليم ، والعلماء ، والشرطة ، والقضاة وغيرهم.

وهناك أغراض أخرى كثيرة ، مما يبين أن الكتابة الديوانية كانت " تشمل أمور الدولة كلها كبيرها وصغيرها ، في الداخل والخارج "[1] ، ومن هنا تتضح خطورة ديوان الانشاء وعظم منزلة القائمين عليه.

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٥٧٧.

وقد حاول بعض النقاد القدامى ، وضع رسوم لكل لون من ألوان هذه الرسائل تبين معالم الطريق للسائرين في هذا الدرب الشاق ، وتحدد أهدافه.[١]

لمحة عن الرسائل السلطانية في الأندلس وعصر بني الأحمر:

كانت الكتابة السلطانية في الأندلس تنسج على منوال شقيقتها في المشرق ، اذ سار الأندلسيون في البداية على طريقة عبد الحميد الكاتب ، ثم تأثروا بأسلوب الجاحظ الذى كان ذا شهرة واسعة عندهم[٢] ، ثم أخذوا في الميل الى الاطناب واستخدام المحسنات البديعية على طريقة ابن العميد والتى ظهرت جلية في فترة الحجابة،[٣] وأخيرا طغت الطريقة الفاضلية على كتاب الأندلس حتى صارت الكتابة عند المتأخرين منهم ، رصف ألفاظ ، وزخرفة بيان ، وألاعيب لغوية.[٤]

واذا ماجئنا للدولة النصرية نجد أن من أهم الكتب التى أرخت لها كتاب (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية) ذلك لأن مؤلفه (ابن الخطيب) أحد المعاصرين لهذه الدولة ، وقد نال مكانا مرموقا فيها ، ولأن الكتاب قد تحدث بالتفصيل عن سلاطين هذه الدولة الذين تعاقبوا على عرشها .

---

(١) انظر صبح الأعشى مج / ٨ ، ص ٢٣٦ ومابعدها .
(٢) انظر الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، ص ١٧٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ، ص ٣٣٣ .
(٤) انظر تاريخ الأدب العربي - حنا فاخورى - ص ٧٣٠ ومابعدها .

وقد تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن جزء يهمنا في هذا الفصل ألا وهو الكتّاب الذين أسند لهم العمل في ديوان الانشاء منذ تأسيس الدولة ، حيث كان يتحدث عن كل سلطان على حدة ويشير الى كتابه ووزرائه وقضاته وبنيه وغير ذلك.

ويذكر ابن الخطيب لنا في هذا الكتاب جملة من هؤلاء الكتاب عملوا في فترات مختلفة منهم: أبو الحسن ابن هيضم الرعيني ،وأبوبكر ابن الخطاب ، وأبو عمر يوسف اليحصبي اللوشي ، وابنه أبوبكر ،والحسن والحسين ابنا أبي بكر ، وأبوالقاسم محمد بن عابد الأنصارى ، وأبو عبد الله بن حكيم الرندى ، وابن شيرين ، وابن عاصم ، وابو اسحق ابن جابر ، وأبو عبد الله ابن اللوشي ، وأبو محمد الحضرمي ، وأبو الحجاج الطرطوشي ، وأبو العباس ابن القراق ، وأبو الحسن ابن الجياب ، وأبو محمد ابن عبد الحق بن القاسم بن عطية ، وابن زمرك.

ولعل من أشهر هؤلاء بعد ابن الخطيب استاذه وسلفه ابن الجيابّ ، وقد ترجم له في الاحاطة[1] ، وقال عند الحديث عن نثره "وأما نثره فسلطانيات مطولات ، عرضت بما تخللها من الأحوال متونها ، وقلت لمكان الاستعجال والبديهة عيونها ، وقد اقتضبت منها أجزاء سميته (تافها من جم ونقطة من يم)".[2]

وهذا الكتاب لم يصل الينا كما نص على ذلك الأستاذ عنان

---

(١) مـج / ٤ ، ص ١٢٥.
(٢) الاحاطة مج / ٤ ، ص ١٤٧.

في تقديم الاحاطة ،[1] ولكن يوجد لابن الجياب رسالتان سلطانيتان في نفح الطيب من خلالهما يمكن التعرف على بعض خصائص الكتابة السلطانية عنده.

يقول في مقدمة رسالته الأولى على لسان سلطانه الى السلطان أبي سعيد المريني صاحب فاس: "المقام لدى الملك المنصور الأعلام ، والفضل الثابت الأحكام ، والمجد الذى أشرقت به وجوه الأيام ، والفخر الذى تتدارس أخباره بين الركن والمقام ، والعز الذى تعلو به كلمة الاسلام ، مقام محل الأب الواجب الاكبار والاعظام ، السلطان الكذا أبقاه الله"،[2] وتستمر الرسالة على هذا النحو الى نهايتها.

والرسالة الثانية تعزية للسلطان أبي الحسن المريني في وفاة والده السلطان أبي سعيد يقول منها: "فانا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر ، وربط على قلبكم بالصبر - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، عندما تحقق لدينا النبأ الذى فتّ في الأعضاد ، وشبّ نار الأكباد ، والحادث الذى هدّ أعظم الأطواد ، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد ، والواقع الذى لولا وجودكم لما رسم الأجواد ، وعطل رسوم الجهاد ، وكسا الآفاق ثوب الحداد .. الخ".[3]

ويلاحظ أن الرسالتين بنيتا على السجع، وتمتازان بالاسهاب

---

(١) الاحاطة مج / ١ ص ٦٤ ، مقدمة المحقق.
(٢) نفح الطيب مج / ٥ ، ص ٤٥٨.
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٢.

والتطويل ، فالكاتب يطيل فيهما المقدمة ، ويكثر من صيغ الدعاء ، كما يكثر استعمال الألقاب الفخمة لكل من السلطان المرسل والسلطان المرسل اليه ، ومن حيث الألفاظ فهو يحاول انتقاء الألفاظ السهلة والبعد عن الغريب لذا امتازت الرسالتان بالسلاسة والسهولة ، كما يستخدم الكاتب أحيانا خلال الرسالتين التعبير بالصورة مما يقرب الأسلوب من لغة الشعر.

الرسائل السلطانية في نثر ابن الخطيب:

لعلّ من أهم الأعمال التي اضطلع بها ابن الخطيب في الدولة النصرية الكتابة السلطانية ، فقد عمل في ديوان الانشاء منذ عام ٧٤١ هـ الى وفاة ابن الجياب عام ٧٤٩ [١] ، ثم اسندت اليه رئاسة ديوان الكتّاب ، ولهذا فان عمله الرسمي في الدولة كان هو الرسائل أو الكتابة السلطانية.

وقد جمع في كتبه الكثيرة كمية ضخمة من هذه الرسائل ، بل ان أحد كتبه وهو كتاب (كناسة الدكان بعد انتقال السكان) ليس الا مجموعا لعدد كبير من رسائله الديوانية.

وبالطبع فقد كتب ابن الخطيب في أكثر الأغراض الديوانية ان لم يكن في جميعها ، فقد كتب في التهاني والتعزية والشكر وتقرير المودات ، والتعريف بالنصر والحث على الجهاد ، والبايعات والصدقات وغير ذلك من الأغراض.

---

(١) راجع حياة ابن الخطيب في أول البحث.

ونستطيع أن نصنف رسائل ابن الخطيب الانشائية ـ ونعني بها الرسائل الصادرة عن ديوان الانشاء ـ الى ستة أصناف:

١) رسائل سلطانية دبجت على لسان السلطان أبي الحجاج المتوفى عام (٧٥٥) أو الغني بالله ، وبعث بها الى السلاطين والملوك والأمراء.

٢) ظهائر ، وهي تشبه الى حد ما المراسيم الملكية الصادرة عن الدواوين الملكية في عصرنا الحاضر ، وتكون بخصوص عفو عن شخص أو فئة ، أو بخصوص تنصيب قاض أو خطيب أو شيخ للغزاة أو ماشابه ذلك.

٣) رسائل كان يبعثها على لسان السلطان الى قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتوجه بها شخص فيقرأها على القبر الشريف ، وترفق معها عادة بعض الرسائل السلطانية لصاحب مكة والمدينة.

٤) كتب الصدقات: وهي كتب جرت العادة أن تكتب لعقود النكاح ، اذا كان صاحب العقد من كبراء الدولة ، ويدبجها كاتب السلطان لاضفاء طابع من العظمة على العقد .

٥) كتب المبايعات وله من هذا النوع كتاب واحد في مبايعة الغني بالله لما توفي والده أبو الحجاج وورث الملك بعده.

٦) الرسائل الموجهة من السلطان الى الرعية ، وهي أقرب الى رسائل الوعظ والارشاد لذلك سندرسها في فصل الزجر والوعظ.

ولكل نوع من هذه الرسائل والكتب رسوم خاصة سنشير

اليها عند دراسة نموذج لكل نوع منها .

ومن أهم الذين راسلهم ابن الخطيب على لسان سلطانية أبي الحجاج ، والغني بالله ، سلاطين المغرب ، أبو الحسن ، وأبو عنان ، وأبو فارس ، وأبو زيان العريني ، وكانت رسائله اليهم في أغراض شتى ، كالتعريف بالنصر ، والتهنئة به ، وطلب العون والمدد ، وتقرير المودة ، والشكر على الهدايا .

كما كاتب صاحب تونس ، أبا اسحق الحفصي ، للتعريف بمجموع فتوح ، وكاتب أبا عثمان سلطان تلمسان ، للشكر على هدية ،والتهنئة بالنصر ، وكاتب السلطان ابن قلاوون سلطان مصر ، للتعريف بالفتوح الأندلسية ، وتقرير المودة ، وطلب العون .

وكاتب صاحب مكة عجلان بن رميثة للتعريف بالنصر ، كما كاتب صاحب المدينة المنورة وأرفقت مع رسالته اليه رسائل الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وكاتب كثيرا من الأمراء وشيوخ العرب بالمغرب.(١)

١ - الرسائل السلطانية المرسلة الى الملوك والسلاطين وأمراء الدول :

وقد كتب ابن الخطيب في هذا النوع كثيرا وفي أغراض متعددة ، ومن نماذجها رسالة على لسان الغني بالله بعث بها الى السلطان أبي فارس سلطان المغرب عام ٧٦٨هـ يعرفه فيها بانتصاره في غزوة أطريرة واستفتاحه لحصن أشر .

---

(١) الملحق الخاص بالرسائل.

وتبدأ الرسالة بذكر المرسل اليه ، وهو سلطان المغرب مكنى عنه بألقاب فخمة ، ثم المرسل وهو الغني بالله ، على هذا النحو: " المقام الذى تيمنت البلاد بولايته ، وتعرفت ببركته بفضل الله وعنايته ، .... ، ... ، ... ،مقام محل أخينا نصره بواسم ، وأيامه للاسلام مواسم ، ... ، السلطان الكذا أبو فارس، ... ،معظم سلطانه ، ومجل شأنه ، العارف بأصالة مجده ، ورفعة مكانه ، فلان"[1] أى الغني بالله.

ثم بعد ذلك يقدم الكاتب للرسالة بالحمدلة والصلاة على النبي عليه السلام ، في أسلوب يقل فيه السجع.

وبعد المقدمة الطويلة يدخل في غرض الرسالة فيشرح بتفصيل دقيق أحداث غزوة أطريرة منذ خروج السلطان من غرناطة ، ثم يعلق على هذه الغزوة في آخر الرسالة بحديث طويل يقول منه : "ولولا أن الفضل لم يأن ادراك غلاته ، ولم تستدرك خصائص مطعوماته ومقضوماته ، لاتخذها الناس مجرى السوابق".[2]

وأخيرا يختم الرسالة بالدعاء لسلطان المغرب بقوله : " حفظ الله منكم على المسلمين عنصر كلمتهم ، ومقدر قوتهم" الى أن يقول : "والله يصل بقاكم ، ويعتمد بالصنايع القاهرة علاكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، وكتب في كذا من رمضان المعظم من عام ثمانية وستين وسبعمائة".[3]

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ١ ، ص ١٥٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

ويكثر ابن الخطيب في هذه الرسالة استخدام أساليب الدعاء ، كما يكثر التوكيد من خلال تكرار المعاني بجمل جديدة متعاطفة ، على نحو قوله مشيرا الى وقت الغزوة " ليلة مستهل الشهر الكريم ، مستقبل الأعمال ، ومتنزل القرآن "[1] وعلى نحو قوله واصفا ظلم النصارى للمسلمين " يتلونهم للجباه والأذقان ، وينحرونهم نحر ابل القربان "[2].

كما يستخدم كثيرا الجمل المعترضة ، كقوله : "وخرجنا نجد السير — والنجح قائد ، والتوفيق مواكب ، والسعد للغرض كافل ، والقصد المبرور ضامن — واحتللنا رندة "[3].

ولتقريب المعنى الى الأذهان يكثر ابن الخطيب من رسم الصور ، أو التصوير التشخيصي لتجسيد المعاني ، وذلك من خلال استخدام التشبيهات والاستعارات ، أو من خلال الدقة في الوصف ، كقوله في وصف تسلق المسلمين للحصون : " ثم عاطوا من تحصن بالقصبة كؤوس القتال ، وأرسلوا عليهم حواصب النبال ، وتعلقوا بأسوارهم ، يقرعون الثنايا ، ويطلقون عليهم وجوه المنايا "[4].

ومن نماذج الرسائل السلطانية رسالة في غرض الشكر على هدية ، وقد كتبت عام ٧٧٠ هـ على لسان السلطان الغني بالله الى السلطان

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

أبي فارس بن أبي الحسن ، بعد توليه عرش المغرب عقب وفاة والده ، والرسالة طويلة تقع في أكثر من خمس صفحات ، يبدؤها ابن الخطيب بذكر المرسل اليه ثم المرسل بعد أن يقدم لاسميهما بألقاب فخمة في أسلوب سجع ، يقول فيه : " المقام الذى جدد العهد، وخلف وليه العهد ، واستأنف السعد وتأذن الله في كتابه أن ينجز له الوعد ، مقام محل أخينا الجارى في الفضل جرى الجواد على أعراقه[1]، المتميز بحميد شيمه وكريم أخلاقه" الى أن يقول : "معظم قدره العالى في الأقدار ... ، ... ، ... ، الأمير عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ابن نصر ، سلام كريم طيب بر عميم ، كما أهدت الرياض شذا رياها وجلت الشمس محياها ، يخص مقامكم الأعلى ودولتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته".[2]

ثم يقدم للرسالة بمقدمة طويلة مسجوعة يحمد فيها الله عز وجل ويصلى على النبي الكريم عليه السلام ، ثم يدعو للامام أبي فارس بدعاء طويل يقول فيه : " ولا زال سيفكم الماضي يقوم في أبواب المآرب الصعاب مقام الاقليد[3]، وأنباء فخركم تهديها الى نازح البلاد ركاب الرياح فضلا عن راكب البريد ".[4]

وبعد ذلك يذكر مصدر الرسالة (غرناطة) مازجا ذلك بالدعاء

---

(١) على أعراقه : أى على شدة سرعته وانطلاقه ، أساس البلاغة ، ص ٢٩٩ .
(٢) ريحانة الكتاب مج / ١ ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ .
(٣) الاقليد : المفتاح .
(٤) ريحانة الكتاب مج / ١ ، ص ٤٢٠ .

على نحو قوله : " فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم سعدا مصاحبا للتأييد ، وتوفيقا يصيب شاكلة الرميّ بالسهم السديد ، من حمراء غرناطه حرسها الله . . . " الى أن يقول : "والحمد لله كما هو أهله فلا فضل الا فضله ، فهو مستحق التحميد ".(١)

وقبل دخوله لغرض الرسالة يقدم لذلك بدعاء طويل ، يصف بعده بلاغة الكتاب السلطاني الذى ورد من المغرب مع الهدية ، ثم يصف الهدية التي وصلت معظما لها ، ويبين أنها هي الهدية الحسية ، وأما الهدية المعنوية فهي " التعريف بما أنتم عليه من استقامة التدبير ، . . . ، واستشعار العناية من الله والمزيد ، واستئناف الصنع الجديد ، واستقبال الزمن السعيد ".(٢)

وهذه لمحة ذكية تعد لابن الخطيب فهو لا يهتم بالهدية مهما غلت قيمتها بقدر مايهتم بأخبار مرسلها .

ثم يذكر في رسالته وصول بعض الموفدين من قبل السلطان أبي فارس ، مازجا ذلك بالدعاء له ولدولته ، ويذكر فضله وفضل والده ودولتهم وماتقوم به من واجبات في نصرة الاسلام بتلك الأرض الغريبة ، وهو حين يذكر أسماء هؤلاء الموفدين يقدم لهم بألقاب فخمة ، يقول : "وقد حضر بين يدينا رسولكم الكريم . . . ، . . . ، الشيخ الفقيه المرفع الحسيب السني الحظي ، . . . ، أبو يحيى بن أبي مدين والحاج المكرم المبرور أبو محمد بن عبد الواحد . . ".(٣)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢١ .
(٢) المصدر السابق ، والصفحة.
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .

وفي نهاية الرسالة يعبر عن سرور السلطان بما رأى من هدايا ، وما سمع من أخبار سارة عن أبي فارس ودولته ، سائلا الله النصر له وللمسلمين ، ثم يختم الرسالة بالسلام ، وذكر تاريخ الرسالة.

ويلاحظ في هذه الرسالة أن ابن الخطيب يعمد الى الاكثار من المحسنات البديعية فيها ، وقد يطيل الجمل ويباعد بين الفواصل حتى تتم له القرائن ، ليصنع من ذلك نوعا من الجناس أو الطباق ، أو ليأتي بالفاصلة على نفس السجعة ، وذلك كقوله : "والدعاء لمقامكم الأعلى ، ومثابتكم الفضلى بالعز المشيد ، والنصر الذى يرغم أنف الجبار العنيد ، ... ، ولا زال سيفكم الماضي يقوم في أبواب المآرب الصعاب مقام الأقليد ، وأنباء فخركم تهديها الى نازح البلاد ركاب الرياح فضلا عن راكب البريد ".[(١)]

ويستخدم ابن الخطيب في رسالته هذه التعبير بالصورة ، أو التصوير التشخيصي من خلال الاستعارات والتشبيهات كقوله : "وثناؤنا على نوعي هذه الهدية ، ثناء الروض على الغمام الواكف ، والعارض المترادف".[(٢)]

وأحيانا يلجأ الى الترادف اما للتوكيد أو للحصول على الفاصلة المسجوعة كقوله : "وقد حضر بين يدينا رسولكم الكريم ، المناب فيما قرر من الودّ الوثيق ، وأدى من البر الجدير بالشكر الخليق".[(٣)]

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .

وكقوله : "والله عز وجل يجعل التوفيق مواكب ركابكم ، والسعد ملازم مصراع بابكم ، ويتم علينا وعليكم النعم ، ويجزى من مواهبه القسم ، ويطلعنا على مايبهج النفوس ، ويشرح الصدور ، ويمهد الجهات ، ويصلح الأمور ، ويطيّب الألسنة ، ويضحك الثغور ، وثناؤنا على نوعي هذه الهدية ، ثناء الروض على الغمام الواكف ، والعارض المترادف". (١)

ويكثر من استخدام الصفات المتتابعة في جمل متعاطفة كقوله في آخر الرسالة "وهو سبحانه يصل لكم عوائد النصر والتمكين ، ويعرفكم عوارف النصر العزيز ، والفتح المبين ، ويطلع من أنبائكم كل واضح الغرة ، مشرق الجبين ، والسلام الكريم البر العميم عليكم ورحمة الله وبركاته". (٢)

وعموما فان هذه المكاتبات السلطانية ، وان اختلفت عنده من حيث موضوعاتها ، ذلك لأنه ـ كما سلف القول ـ كتب في أكثر الأغراض السلطانية (٣) كالتهاني والتعازى والشفاعات والشكر على الهدايا ، وتقرير المودات ، وغيرها ، فهي لا تختلف كثيرا من حيث الأسلوب ، اذ تبنى على السجع ، وأحيانا على السجع المركب أو المتداخل ، كما يستخدم فيها أكثر ماعرف من أنواع المحسنات كالجناس ، والطباق ، والمقابلة والاقتباس ، وحل المنظوم ، والترادف والعكس ، بالاضافة الى استخدامه التصوير التشخيصي من خلال الاستعارات والتشبيهات.

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .
(٣) الملحق الخاص بالرسائل السلطانية.

ويلاحظ في هذا النوع من الرسائل أنه اذا ماكانت الرسالة موجهة الى سلطان أو ملك صدرت بلفظ (المقام) ، واذا كانت موجهة الى خليفة صدرت بلفظ (الخلافة) واذا ماوجهت الى أمير دولة صدرت بلفظ (الأمارة) ، واذا كانت موجهة الى صاحب سكة أو المدينة فانها تصدر بلفظ (المقر الأشرف) ، وأما الرسائل الموجهة الى سلطان مصر السلطان قلاوون فانها تصدر بلفظ (الأبواب الشريفة) .

وهذه رسوم وألقاب خاصة كان يحافظ عليها من قبل كتاب دواوين الانشاء ، والا خلال بها اخلال بدقة هذه الرسائل .

٢ - الظهائر:

وهي رسائل خاصة تكاد تكون شبيهة الى حد ما بما يسمى في عصرنا بالمراسيم التي تصدر عن الدواوين الملكية .

وتمتاز هذه الظهائر بخصوصية موضوعاتها ، وتهدف الى الاخبار اما بتعيين وزير ، أو سفير ، أو خطيب ، أو تبليغ عفو عن فئة ، أو ماشابه ذلك من موضوعات ، ويفتحها الكاتب غالبا بقوله : " هذا ظهير كريم . . . الخ " .

ولابن الخطيب من هذا النوع من الكتب الكثير[١] ، ومن نماذجها ظهير بتولية ابن زمرك لكتابة السر[٢] ، ويبدو أن هذا الظهير كتب بعد عودة السلطان الى ملكه أى بعد عام ٧٦٣ هـ .

---

(١) الملحق الخاص بالظهائر .

(٢) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٨٤ ، ونفح الطيب مج / ٥ ، ص ١٣٤ .

ويبدأ ابن الخطيب ظهيره هذا بقوله : "هذا ظهير كريم ، نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه ، وأفرد له متلو العز وجمعه ، وأوتره وشفعه ، وقرّبه في بساط الملك ، تقريبا فتح له باب السعادة وشرعه ، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه". (1)

ثم يصل الى ذكر الآمر بهذا الظهير وهو الغني بالله ، ويدعو له كما يدعو لابن زمرك بالتوفيق في المهمة التي نصب لها ، ويبين سبب اختصاص السلطان له بهذا التكريم ، فيقول : "واختصه بمزية الشفوف (2) على كتاب بابه والتقديم ، لمّا كان ناهض الفكر في طلبة حضرته زمن البداية ، ولم تزل تظهر عليه لأولي التميز مخايل هذه العناية ، فان حضر في حلق العلم جلى في حلبة الحفاظ الى الغاية ، وان نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة ، والمخاطبات المنقولة ، فاشتهر في بلده وغير بلده". (3)

ويستمر في توضيح الأسباب التي منها أنه " حين ردّ الله عليه (أى على السلطان) ملكه الذى جبر به جناح الاسلام ، وزيّن وجوه الليالي والأيام ، وأدال الضياء من الاظلام كان (ابن زمرك) ممن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك عود خلوصه وخبره ، فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومضمره". (4)

لهذا كله فقد رعى السلطان لابن زمرك "هذه الوسائل وهو

---

(1) نفح الطيب مج / ٥ ، ص ١٣٤ .
(2) الشفوف: القلة والندره ، أساس البلاغة مادة (شفف) .
(3) نفح الطيب مج / ٥ ، ص ١٣٥ .
(4) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

أحق من يرعاها ، وشكر له الخدم المشكور مسعاها ، فنص[1] عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدّمه ــ أعلى الله قدمه ــ كاتب السر ، وأمين النهي والأمر ، تقديم الاختيار بعد الاختبار".[2]

ثم يطلب ابن الخطيب في نهاية الظهير من ابن زمرك أن يتولى "ذلك عارفا بمقداره ، مقتفيا لآثاره ، مستعينا بالكتم لأسراره ، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفافه ووقاره"[3] الى أن يقول : "وعلى من يقف عليه (أى على الظهير) من حملة الأقلام ، والكتاب الأعلام ، وغيرهم من الكافة والخدام أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام ، والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبوا ماأوجب من البر والاكرام ، والاجلال والاعظام ، بحول الله ، وكتب في كذا"..[4] وبهذا ينتهي الظهير.

ويلاحظ في هذا الظهير أن الكاتب يبنيه على السجع أيضا ، غير أن الملاحظ فيه كثرة الضمائر واختلاط مراجعها ، مما يعثر ذهن القارئ ، وهذا واضح في أول الظهير.

ويستخدم ابن الخطيب في نثره هنا التورية بمصطلحات العلوم ، كتوريته بمصطلحات النحو في قوله :" هذا ظهير كريم ، نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه . .".[5]

---

(١) نص ، أى رفع. الصحاح مادة (نصص).
(٢) نفح الطيب مج / ٥ ، ص ١٣٥.
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦.
(٤) المصدر السابق ، والصفحة.
(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٤.

كما يكثر من صيغ الدعاء ، كقوله : " أمر به أمير المسلمين محمد الكذا الكذا فلان ، وصل الله سعادته ، وحرس مجادته . . الخ "[1]
وكقوله : "وقدّمه (أي السلطان)-أعلى الله قدمه - كاتب السر".[2]

وأخيرا فان أسلوب ابن الخطيب في هذا الظهير يمتاز بسلاسة الألفاظ ، وانتقائها وسهولتها والبعد عن الألفاظ الغريبة ،الا أنه يعتمد الاسهاب والتطويل .

٣ - الرسائل الموجهة الى قبر النبي عليه الصلاة والسلام :

اعتاد الأندلسيون كتابة بعض الرسائل التي تتضمن " استشفاعا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مناسبات مختلفة ، ويبعثون بها الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، يحملها رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم توسلا به ، وأملا في العودة بالحياة الى سابق عهد بأندلسهم"[3] وربما كانت هذه العادة من آثار الصوفية التي انتشرت في ذلك العصر .

وقد كتب ابن الخطيب في هذا الغرض بعض الرسائل[4] ، منها رسالة كتبت على لسان السلطان أبي الحجاج المتوفى عام ٧٥٥هـ ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) ملامح التجديد في النثر الأندلسي ص ٢١٦ ، تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف ص ٣٠٣ ، ريحانة الكتاب مج / ١ هامش ص ٨٠ .
(٤) وردت له في الريحانة ثلاث رسائل تدخل في هذا النوع ، منها اثنتان وردت في النفح والاحاطة ولم أجد له غيرها . الملحق رقم (٣) .

وقد نص ابن الخطيب على أنها من أوليات ماصدر عنه في هذا الغرض .[1]

ويقدم ابن الخطيب لرسالته هذه بقصيدة في أكثر من ثلاثين بيتا ، يقول منها :

اذا فاتني ظل الحمى ونعيمه ∴ كفاني وحسبي أن يهب نسيمه

ومنها :

براني شوق للنبي محمد ∴ يسوم فؤادي برحه مايسومه

ألا يارسول الله ناداك ضارع ∴ على النأى محفوظ الوداد سليمه

مشوق اذا ماالليل مدّ رواقه ∴ تهم به تحت الظلام همومه

الى أن يقول :

عليك صلاة الله ماذرّ شارق ∴ وماراق من وجه الصباح وسيمه[2]

وبعد أن ينهي قصيدته ، يفتتح الرسالة بقوله : "الى رسول الحق الى كافة الخلق ، وغمام الرحمة الصادق البرق ، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق" ،[3] ويستمر في وصف النبي عليه الصلاة والسلام مع الاشارة الى بعض معجزاته ، كل ذلك في حديث طويل مسجع ، ثم يذكر بعد ذلك مرسل الرسالة ، وهو

---

(١) الريحانة مج / ١ ، ص ٥٥ .
(٢) نفح الطيب مج / ٦ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

السلطان أبو الحجاج يوسف حيث يقول : " من عتيق شفاعته ، وعبد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ... ، ... ، ... ، لا ثم تربه ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحبه ، المتوسل به الى رضى ربه ، يوسف بن اسماعيل بن نصر ".(١)

وينتقل الى وصف شوقه لزيارة النبي الكريم عليه السلام ،فيقول : " كتبه اليك يارسول الله ، والدمع ساح ، وخيل الوجد ذات جماح ، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر ، وانكسار لا يتاح له - الا بدنو مزارك - الجبر".(٢)

ثم يصور سعادة من زار قبر النبي بعد زيارة البيت العتيق ، فيقول : " أما والذى بعثك بالحق هاديا ، وأطلعك للخلق نورا باديا ، لا يطفئ غلتي الا شربك ، ولا يسكن لوعتي الا قربك ، فما أسعد من أفاض من حرم الله الى حرمك ، وأصبح بعد أداء مافرضت عن الله ضيف كرمك".(٣)

ويعتذر عن زيارة النبي لانشغاله بالجهاد ، ويبين أنه ينيب هذه الرسالة مناب الزيارة ، فيقول : " واني لما عاقتني عن زيارتك العوائق ، وان كان شغلي عنك بك ، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك ، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه وعدد تتكاثف أفواجه ، ... ، ... ، ... ، استنبت رقعتي هذه لتطير اليك من شوقي بجناح خافق ، ... ، ... ، ... ، وتقول بلسان

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٧.
(٢) المصدر السابق ،والصفحة.
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٨.

التصلق ، عند التشبث بأسبابك والتعلق ، منكسرة الطرف ، حذرا بهرجها من عدم الصرف : ـ ياغياث الأمة وغمام الرحمة ، ارحم غربتي وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي". (١)

وفي أثناء اعتذاره يصف المجاهدين ، ومايتنزلون بعدوهم رغم قلتهم ، يقول : " استعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بؤسهم ، فيطيرون من هيعة الى أخرى ، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى ، ويقارعون وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدو هو الذرّ عند انتشاره ، عشر معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا". (٢)

ويتوجه الى الله بالدعاء أن لا يقطع من النبي أسبابه ، فيقول : " اللهم يامن جعلته أول الأنبياء بالمعنى ، وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، ... ، ... ، ... ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمني من حبه شوابي ، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي". (٣)

ويعتذر في رسالته عن التقصير عند قوله : " هذه يارسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشط مزاره ، ... ، ... ، فان لم تكن للقبول أهلا ، فأنت للاغضاء والسماح أهل ، وان كانت ألفاظها وعرة ، فجنابك للقاصدين سهل". (٤)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

وهنا يذكّر ـ عن سلطانه ـ بقرابته للصحابي الجليل سعد بن عبادة ، فيقول : "وان كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس حسبما اليه أشرت ،[١] فلي بانتسابي الى سعد عميد أنصارك مزية ".[٢]

وقبل أن يختتم الرسالة يكرر توسله بالنبي على نحو قوله : " فلا تنسني ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فانما نحن وديعة تحت بعض أقفالك ، نعوذ بوجه ربك من اغفالك ".[٣]

وأخيرا يختتم رسالته بالسلام على النبي الكريم ، عليه الصلاة والسلام ، ويخص الخلفاء الراشدين فيقول : "والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى ، وأجاب داعيا اذا دعى ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، . . . . ، . . . . ، وعلى ضجيعيك وصديقك ، وحبيبك ، ورفيقك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف من بعده على جلتك ، وصهرك ذى النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك "[٤] الى آخر الرسالة.

والرسالة طويلة تقع في أكثر من ست صفحات ، وغرضها السلام على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ثم التوسل به لتحقيق النصر ، وفي هذا مافيه من الحرج من الناحية الدينية ، غير أن الرسالة تدل على ماوصلت اليه الحالة النفسية لأهل الأندلس في عصر غرناطة من القلق والخوف من المصير المنتظر.

---

(١) اشارة الى الحديث: " تخيروا لنطفكم فان العرق دساس".
(٢) نفح الطيب مج / ٦ ، ص ٣٦٠ .
(٣) المصدر السابق ، والصفحة.
(٤) المصدر السابق والصفحة ."والحِلّة بكسر الحاء محل القوم وبضم الحاء سلاح المحارب".

ويبني ابن الخطيب رسالته هذه على السجع الطويل الفقرات، بالاضافة الى استخدامه الكثير من المحسنات البديعية كالجناس والطباق والمقابلة، وغير ذلك.

ويلاحظ القارئ للرسالة أن السجعة فيها تأتي أحيانا متكلفة، الا أن أسلوبه في الرسالة بعامه يمتاز غالبا بالسلاسة والوضوح، وانتقاء الألفاظ السهلة المعروفة والبعد عن الغريب، هذا بالاضافة الى قدرة الكاتب على ترتيب الأفكار، وتقسيم الرسالة الى فقرات، مما جعل للرسالة بداية ووسطا ونهاية.

وتمتاز الرسالة – بما يمتاز به نثر ابن الخطيب – من الاسهاب والتطويل، حتى أن الكاتب يفصل بين لمّا وجوابها، بحديث طويل، عند قوله: "واني لمّا عاقتني عن زيارتك العوائق، ....، ...، ...، استنبت رقعتي هذه .. الخ".(١)

٤ - كتب الصداقات:

كتب ابن الخطيب في هذا الغرض عدة كتب سلطانية، ويبدو أنه قد جرت العادة في الدولة النصرية أن يكتب عقود النكاح لكبراء الدولة كتاب لهم منزلتهم، كابن الخطيب لاضفاء طابع من العظمة على العقد، وقد كان لمثل هذه الكتب رسوم خاصة بها، منها الحديث عن عظم المنزلة الاجتماعية لكل من الخاطب والمخطوبة، ثم ذكر مقدار الصداق، وذكر أسماء شهود العقد، كما أنه يُهتم

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

بمقدمة مثل هذه الكتب ، حيث يطول فيها تحميد الله وتمجيده والصلاة على نبيه عليه السلام.

والكتاب الذى سنستعرضه هو صداق منعقد على أخت السلطان أبي الحجاج بن نصر للرئيس أبي الحسن علي بن نصر ، وهو كتاب طويل يقع في عشر صفحات.(١)

افتتح ابن الخطيب هذا الكتاب السلطاني بقوله: "الحمد لله مانح أسباب الهبات وسديها ، وفاتح أبواب الآمال البعيدة المنال ومدنيها ، وجاعل البركات الظاهرة منوطة باتباع أوامر هذه الشريعة الطاهرة ، واجتناب نواهيها".(٢)

والمقدمة طويلة جدا ، وقد بنيت على السجع المركب أو المتداخل، فهي عبارة عن فقرات مسجوعة متلاحقة ، تختم فيها كل فقرة بسجعة أخرى على شاكلة قوله: "ونشهد أنه الله الذى لا اله الا هو الغني عن الأنداد ، المبرأ عن الاتصال والانفصال والصاحبة والأولاد ، . . . ، . . . ، . . . ، الملك الذى لا تغيض خزائنه على كثرة المسترفد والراغب ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الطيب العناصر ، ونبيه العميم المكارم العظيم المفاخر ، وأمينه المحرز فضل الأول والآخر ، وصفيه الطاهر المناسب الكريم الضرائب".(٣)

ويتحدث في المقدمة عن الخطبة والزواج وفضلهما ، حيث يقول: "فشرع الرسول صلى الله عليه وسلم النكاح ذريعة الى النماء ، وحفظ

---

(١) ورد في ريحانة الكتاب مج / ١ ص ٨١ ، كناسة الدكان ص ٤٧ .
(٢) ريحانة الكتاب مج / ١ ، ص ٨١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

الأنساب ، ومألفة لمفترقات الأهواء ، وصلة لمتباعدات الأسباب ، ... ، ... ، وصونا لبيوت الشرف عن الأوشاب والشوائب ، وخطب عليه السلام ... ، ... ، وجدع بالحلال أنف الغيرة والاباء ، وأمر بالتخير للنطف ، والارتياد لعقائل الشرف ، تكريما للمناسب". [1]

وبعد المقدمة الطويلة يتحدث عن فضل الدولة النصرية ، وفضل حكامها الذين ينتمون الى الصحابي الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه ، كل ذلك في حديث مسجوع طويل نختار منه قوله : "أما بعد هذه المقدمة التي كرمت اختتاما وافتتاحا ، ... ، ... ، فان من المعلوم الذى لا يحتاج الى دليل ، ... ، ... ، ماخوّل الله هذه الدولة النصرية كتب الله نصر كتابها ، من الكمال الذى وردت به غير مدافعة حيالة [2] ، والمجد الذى تفيأت رياضه ، ... ، ... ، وان الله سبحانه نصر الدين الحنيف بسلفها في القديم ، ثم تداركها بخلفها في هذا الاقليم ، فضاء بنورهم صبح الليل البهيم ، ... ، وحفظوا على الأيام رونق جمالها ، وعالجوا الملة الحنيفية من اعتلالها ، وماذا عسى أن يبلغ القول وان اضطرد ، أو ينتهى المدح وان شرد ، في أبناء صحابة الرسول وأنصاره ، وسلالة سعد بن عبادة". [3]

ثم يصل بالحديث عن ملوك الدولة النصرية الى سلطانه أبي الحجاج يوسف ، ويطنب في مديحه وذكر مآثره ، ثم يتحدث عن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٣ .
(٢) ربما كان الصحيح (حياضه) .
(٣) ريحانة الكتاب مج / ١ ، ص ٨٥ .

الخاطب ، ويذكر فضله قائلا: "وان من أفضل من أنجبتت هذه البيوت الرياسية ، من أبنائها الرئيس الكذا ، الكذا ، أبي فلان ، وصل الله سعده ، وحرس مجده ، فانه نشأ والعفاف يظله ، والمجد ينهله ويعله"[1] الى أن يقول : "وسأل الله أن يكيف له من المقام اليوسفي صاهرة يزيدها فخره العالي أضعافا ، فوافقت دعوته من الله اجابة ووافقت رغبته من خليفته اسعافا وأجابه".[2]

وبعد حديث طويل عن الخاطب يتحدث عن المخطوبة بحديث مسجع يمتلئ بالمديح ، يقول : "وأوجب له ـ أى السلطان ـ العهد السّني ، والاملاك السُّني في أخته الحرة الجليلة الطاهرة المعظمة السعيدة ، ابنة والده مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ، وصل الله لهما عوائد اليمن والسعد وعرفها في انتقالها أضعاف ماعرفته من منشأ المجد".[3]

وخلال ذلك يذكر فضل الزواج للفتاة ، وأنه نعمة لاتقاس بها النعم ، الى أن يقول: "وانعقد بينهما الاملاك السعيد ، ... ، .... ، على صداق أوجبت السنة تعيين مقدمه وتاليه ، .... ، ... ، مبلغه مابين نقد حاضر ، وكالئ مستأخر ألفا دينار ، اثنان من دنانير الذهب العين ، وكذا وكذا ، وعلى هذا انعقد النكاح".[4]

ثم يتحدث بعد عن شروط هذا العقد من خلال نظرة دينية

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٨.
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٩.
(٤) المصدر السابق ، والصفحة.

فيقول : " تزوجها بكلمة الله التي علت على جميع الكلم ، وسنة سيدنا ومولانا محمد ، رسوله المبتعث إلى العرب والعجم ، ... ، ... ، وبما أخذه الله عز وجل للزوجات على أزواجهن في كتابه العزيز ، الذى أوضح لأولي الألباب قصده ، من الامساك بالمعروف ومابعده ، فليعاملها بما يجب لمنصبها الكبير ، ... ، ... ، وهي وصل الله لها أسباب السعادة ، تعامله بما يقتضيه حالها ، وتعرف له الدرجة التي لا ينكرها أمثالها ".(١)

وأخيرا ينهي الكتاب بالدعاء لهما ولسلطانه ، خاتما ذلك بذكر الشهود ، وتاريخه وهو الرابع والعشرون لصفر عام اثنين وخمسين وسبعمائه.

ويلاحظ أولا أن الكتاب كتب بعد سنتين تقريبا من تولي ابن الخطيب منصب رئاسة الكتاب ، كما يلاحظ أن هذا الكتاب مبني على السجع الطويل الفقرات ، ويحاول فيه الكاتب استخدام نوع جديد من السجع هو السجع المركب أو المتداخل.

ولعل اهتمام ابن الخطيب بهذا النوع من السجع كان لابراز الايقاع الموسيقي بين الألفاظ ، كما يظهر ذلك بين مانح ، وفاتح ، ومسديها ، ومدنيها ، ونواهيها ، والآمال ، والمنال ، والظاهرة والطاهرة في قوله : " الحمد لله مانح أسباب الهبات ومسديها ، وفاتح أبواب الآمال البعيدة المنال ، ومدنيها ، وجاعل البركات الظاهرة ، منوطة باتباع أوامر الشريعة الطاهرة واجتناب نواهيها ".(٢)

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ٨١.

واذا كان الايقاع الموسيقي بين الألفاظ يظهر في السجع البسيط الا أنه يظهر بشكل أوضح في السجع المتداخل أو المركب.

وقد جر بناء الكتاب على هذا النحو الكاتب الى الاسهاب والتطويل ، وذلك من خلال الصور المتراكمة والمتلاحقة والتي منشؤها توليد العبارات ، وتشقيق الجمل ، وان كان ذلك مما يعثر ذهن القارئ ، الا أنه يبدو أن هذا النوع من التفنن في الألفاظ كان مطلوبا في عصر الكاتب.

كما يلاحظ أن الكاتب يكثر من استخدام المحسنات البديعية ، من ذلك الجناس الناقص كقوله عند الحديث عن سلالة بني نصر: " واقتدى بهذه الشجرة النصرية الشماء ... ، فروعها من الأقارب الرؤساء فكانوا نجوما أمدتهم شمسها المنيرة بالثناء والسناء ، فلم يألوا في الاهتداء بهم ، والاقتداء ، فضلا منشور اللواء ، وعدلا مديد الأنباء ، ومجدا كريم الأبناء".[1]

ومن ذلك الطباق كقوله في تمجيد الله : "وسع الأكوان ظاهرها وباطنها باللطف الخفي"[2] وقوله عن سلطانه : " ولا زال نظره الجميل يعم الأقارب والأباعد".[3]

ويستخدم العكس كقوله عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "وآتاه ــ أى الله عز وجل ــ من كمال الخصائص وخصائص الكمال ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق ، ص ٨١.
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٤.

كل مضطرد القياس". [١]

كما يقتبس من القرآن الكريم كقوله : "وجعل أمته التي كرمها باتباعه ، ... ، خير أمة أخرجت للناس" [٢] وكقوله : " واقتدى بهذه الشجرة النصرية الشماء ، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء". [٣]

٥ - كتب البايعات:

وله في هذا الغرض كتاب واحد في مبايعة الغني بالله بعد وفاة والده أبي الحجاج عام ٧٥٥ هـ ويقع في احدى عشرة صفحة ، يفتتحه ابن الخطيب بمقدمة طويلة يحمد فيها الله جل وعلا ويمجده اذ يقول : " الحمد لله الذى جل شأنا ، وعز سلطانا ، وأقام على ربوبيته الواجبة في كل شئ خلقه برهانا ، ... ، ... ، ... ، العليم الذى يعلم السر وأخفى ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، الا أحاط بها علما ، وأدركها عيانا ، القدير الذى ألقت الموجودات كلها الى عظمته يد الخضوع اسلاما له واذعانا ، المريد الذى بيده تصريف الأقدار واختلاف الليل والنهار ، فان منع ، منع عدلا ، وان منح منح احسانا" [٤] الى أن يقول :"ونشهد أنه الله الذى لا اله الا هو وحده لا شريك

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

له ، شهادة نجدها في المعاد عدة وافية ، ووسيلة بالأعمال الصالحة اليه راقيه ، وذخيرة باقية ، ونورا يسعى بين أيدينا ، ويكون على الرضا والقبول فينا عنوانا".[1]

ثم يصلى ويسلم على النبي عليه الصلاة والسلام بحديث سجع طويل على نحو السابق ، يصل من خلاله الى ذكر وفاته عليه السلام ، ومبايعة أصحابه للخلفاء ، ومن خلال ذلك يتحدث الأنصار بمثل قوله : "وحيا الله وجوه حي الأنصار ، بالنعم والنضرة ، أولي البأس عند الحفيظة ، والعفو عند المقدرة ، الراضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، ويذهبون برسول الله ، فنعمت المنقبة والأثرة ، الحائزون ببيعة الرضوان فضلا من الله ورضوانا".[2]

ويتوجه بالدعاء الى الله أن ينصر المسلمين ويعلي كلمتهم ، ويعين الرعية الأندلسية على حسن الطاعة.

وبعد المقدمة الطويلة يتحدث عن الدولة النصرية ، وعن ملك بني نصر مازجا ذلك بالحديث عن الأندلس وافتتاحها ، ومشيرا الى تاريخ آباء الغني بالله ومبالغا في امتداحهم على نحو قوله : " ان بويعوا فالملائكة وفود ، وحملة العلم وحملة السلاح شهود ، وان ولدوا فالسيوف تمائم والسروج مهود ".[3]

ويكثر في الثناء على جد الغني بالله ووالده ، مع مزج

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

ذلك بالدعاء ثم يصل منه الى وصف مقتل أبي الحجاج ، واتفاق أهل الشورى على مبايعة ابنه (الغني بالله) ، وهنا يطيل في امتداح السلطان الجديد والدعاء له على نحو قوله : " وخلص الثقات ووجوه الطبقات على مبايعة وارث ملكه ، . . . ، . . . ، . . . ، كبير ولده ، وسابق أسده ، ووارث ملكه ، ووسطى سلكه ، وعماد فسطاطه ، وبدر الهالة من بساطه ، مولانا ، قمر العليا ، ودرة الخلفا ، وفرع الشجرة الشما ، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، الذى ظهرت عليه مخايل الملك ناشيا ووليدا ، واستشعرت الأقطار به وهو في المهد أمانا وتمهيدا ، . . . ، . . . ، ناصر الحق وغياث الخلق ، الذى تميز بالسكينة والوقار ، والحياء المنسدل الأستار ، والبسالة المرهوبة الشفار ، والجود المنسكب الأمطار ، والعدل المشرق الأنوار ، . . . ، مولانا وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الفاضل ، والامام العادل ، والهمام الباسل ، الكريم الشمائل ، شمس الملك وبدره ، وعين الزمان وصدره . . . ، . . . ، أبو عبد الله ".[1]

ثم يشير الى الذين هبّوا الى مبايعته من حملة الأقلام والسيوف ، والأمناء ، وسائر الرعية : " فعقدوا له البيعة الوثيقة الأساس ، السعيدة بفضل الله على الناس ، البرى عقدها من الارتياب والالتباس ، الحايزة شروط الكمال ، الماحية بنور البيان ظلم الاشكال . . . الخ ".[2]

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

ويصف بعد ذلك بسطهم لأيديهم بالدعاء له ولمملكته ، ويختم الكتاب بالدعاء لهذا السلطان الجديد على نحو قوله : " اللهم بابك عند تقلب الأحوال عرفنا ، ومن بحر نعمك الكريمة اغترفنا ، وعفوك ستر عيوبنا كلما اجترحنا السيئات واقترفنا ، من فضلك أغنيتنا ، وبعينك التي لا تنام حرستنا وحميتنا ، فانصر حينا ، وارحم ميتنا ....، ....، ....، اللهم من بايعناه بهذا العقد فاسعدنا بمبايعته وطاعته ، وكن له حيث لا يكون لنفسه بعد استنفاد جهده في التحفظ واستطاعته ، .. الخ ".[1]

ثم ينهي الكتاب بالاشارة الى أسماء المبايعين وتاريخ البيعة.

والكتاب كما هو واضح مبني على السجع ، وأحيانا يستخدم الكاتب السجع المتداخل أو المركب ويمتاز بالاسهاب والتطويل خاصة في المقدمة ، الا أن ألفاظه سهلة في غالبها ومنتقاه.

أهم خصائص الكتابة الانشائية عند ابن الخطيب:

اذا تأمل القارئ المكاتبات الانشائية التي كتبها ابن الخطيب يجد أنه يعتمد فيها غالبا على ترتيب عناصر الموضوعات ، ومن ثم كانت الأفكار مرتبة ومتسلسلة ، تخلو من الاستطراد كما تخلو من التشابك والتضارب ، وتعتمد على ترتيب الفقر ، بحيث يكون للكتاب السلطاني بداية ووسط ونهاية.

وبدايات الكتب والرسائل السلطانية عند ابن الخطيب تمثل؛

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٦.

بحمد الله وتمجيده والصلاة على نبيه عليه السلام ، وهي غالبا طويلة تكاد تتجاوز نصف الرسالة أو الكتاب ، الا أن الملاحظ فيها أنه يحاول التوفيق بين المقدمة وغرض الرسالة.

كما أن نهايات الرسائل والكتب السلطانية عنده غالبا ماتكون على صيغة دعاء.

وقد بنيت كل رسائله وكتبه السلطانية على السجع ، وأحيانا يستخدم السجع المركب أو المتداخل ، ولعل هذا كان مطلوبا في عصره لاضفاء طابع من العظمة والفخامة على هذه المكاتبات ، وقد يكون هذا سببا من أسباب تطويل الكتب السلطانية.

الا أن تكلف السجع أحيانا دفعه الى اطالة الفقرات والفواصل للحصول على قرائن للأسجاع مما نتج عنه امتلاء بعض الرسائل بالحشو الذى لا طائل تحته ، كما جره الى بعض الأخطاء كقوله في احدى الرسائل الموجهة لقبر النبي عليه السلام: "والصلاة والسلام عليك ياخير من طاف وسعى ، .... ، .... ، .... ، وعلى ضجيعيك ، .... ، .... ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك"،[1] فقوله (سيفك المسلول على حلتك)،[2] خطأ في اللغة ، وقد أساء به الى المعنى .

أما من حيث الألفاظ ، فابن الخطيب غالبا لا يستعمل في مكاتباته السلطانية الا الألفاظ السهلة المعروفة ، ويبتعد عن الغريب من

---

(١) نفح الطيب مج/ ٦ ، ص ٣٦٠.
(٢) الحِلَّة بكسر الحاء وفتح اللام محل القوم ،والحُلَّة بضم الحاء ، سلاح المحارب.

الألفاظ ، وقد يوجد عنده أحيانا بعض الألفاظ التي يظن أنها غريبة لقلة استعمالها في عصرنا ، بينما هي ليست كذلك في عصره .

... ...

الفصل الثاني
(الإخوانيـــــــات)

الاخوانيات

لقد عرفت الرسائل الأخوانية في العصور الاسلامية الأولى ، ولا يمكن تحديد الزمن الذى ظهرت فيه ، فقد وجدت رسائل للنبي عليه السلام بعث بها الى بعض أصحابه ، كرسالته الى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، والتي يعزيه فيها بابن مات له.(١)

والرسائل الأخوانية تهدف الى التعبير عن عواطف الأفراد ومشاعرهم المختلفة ،وكان ذلك يؤدى بالشعر غالبا ، ولكن لما ارتقت الكتابة الديوانية في القرن الهجرى الثاني على يد عبد الحميد الكاتب المتوفى عام ١٣٢ هـ ، وظهرت طبقة ممتازة من الكتاب الذين أجادوا في النثر اجادة بالغة ، نمت الرسائل الأخوانية نموا واسعا ، حيث استطاع الكتاب ـ نظرا لثقافاتهم الواسعة ، وقدرتهم على تعبير الكلام ، وتطويع الأساليب حتى صارت تحمل معاني جديدة ـ أن يصوروا عواطفهم ، ويعبروا عما يجيش بصدورهم من مشاعر بالنثر ، بعد أن كانت تؤدى بالشعر.

ولا يخفى ماللنثر من مرونة ويسر في التعبير ، وقدرة على تصوير المعاني بجميع دقائقها وتفرعاتها ، تلك القدرة التى لاتتاح للشعر لما فيه من روابط موسيقية ، كالوزن والقافية.(٢)

---

(١) انظر صبح الأعشى مج / ٥ ص ١٢ ، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص ٥٧٨.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول ص ٤٩١.

واختلفت أغراض الرسائل الأخوانية ، وتنوعت حتى صار الكتاب يكتبون في أكثر الأمور التي تعنّ لهم في حياتهم اليومية ، وقد فصل القلقشندى الحديث عن هذه الأغراض ، وجعلها سبعة عشر نوعا ، هي : " التهاني ، والتعازى ، والتهادى ، والشفاعات ، والتشوق ، والاستزارة ، واختطاب المودة ، وخطبة النساء ، والاعتذار ، والشكوى ، واستماحة الحوائج ، والشكر والعتاب ، والسؤال عن حال المريض ، والذم والأخبار والداعبة ".(١)

وقد يدخل تحت بعض هذه الأنواع أضرب عدة ، فالتهاني تنقسم الى أحد عشر ضربا ، منها التهنئة بالولايات ، والتهنئة بالعود من الحج ، أو السفر ، والتهنئة بالأعياد والمواسم ، والزواج والتسرى ، والأولاد ، والابلال من المرض ، والتهنئة بنزول المنازل المستجدة ، وغير ذلك.(٢)

والتعازى على أضرب أيضا ، فمنها التعزية بالابن ، والتعزية بالبنت ، والأب ، والأم ، والأخ والزوجة وغير ذلك.(٣)

ولقد حاول النقاد وضع أو تحديد رسوم ومعالم يهتدى بها الكتاب في كل نوع من أنواع الرسائل الأخوانية ، ولكنهم

---

(١) انظر: صبح الأعشى مج / ٩ ص ٣ ومابعدها ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٧٨.

(٢) انظر: صبح الأعشى مج / ٩ ص ٤ ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٧٨.

(٣) انظر: صبح الأعشى مج / ٩ ص ٥ ، أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٧٨.

كثيرا مايعترفون بالعجز عن ذلك ، فتجد القلقشندى في صبح الأعشى ، يقول عن رسائل التهاني : " وأغراضها ومعانيها متشعبة لا تقف عند حد ".[١]

والواقع أن بعض الكتاب قد أجادوا في أغلب رسائلهم الأخوانية ، حتى ان بعض هذه الرسائل ارتقى ليصبح في عداد الرسائل الأدبية التي تروع ببلاغتها القراء ، وذلك من خلال قدرة الكاتب على الانتقال بالموضوع من الخصوصية الى العمومية.

ولعل هذا هو أحد الأسباب التي جعلت بعض الكتاب المحدثين يخلطون بين الرسائل الأدبية والأخوانية ، ولا يكادون يفرقون بينهما ، وأحيانا يدرسونهما متزجين ، كما فعل شوقي ضيف في كتابه (العصر العباسي الأول).[٢]

وهناك من الكتاب المحدثين من أدخل الرسائل الأدبية ضمن الرسائل الأخوانية ، كما فعل الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه (الأدب العربي في الأندلس) حيث أدخل في أمثلته للرسائل الأخوانية بعض الرسائل الأدبية ، كرسالتي ابن زيدون المتوفى عام ٤٦٣هـ (الهزلية والجدّية) ، ورسالتين أدبيتين لابن برد الأصغر المتوفى عام ٤٤٠ هـ ، نص عليهما بأنهما من

---

(١) صـج / ٩ ص ٥٠

(٢) راجع: تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول ص ٤٩١.

الأخوانيات حيث يقول في معرض حديثه عن تأثر ابن برد الأصفر بالجاحظ: "ويظهر هذا التأثر عنده في رسالتين من رسائله الأخوانية هما (رسالة في النخلة) ورسالته التي سماها (بالبديعية)".(١)

ولعلنا نلتمس للدكتور عتيق العذر في جعله الرسائل الأدبية كنوع من الأخوانية بأنه نظر الى الأصل في الظهور، فقد ظهرت الرسائل الأخوانية أولا ، ثم اتسعت موضوعاتها وتعددت أغراضها حتى ظهرت الرسائل الأدبية جليّة وواضحة عند الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ ، على شكل رسائل أو مقالات يتناول من خلالها موضوعا أدبيا ، ويصوغها في شكل رسالة موجهة الى شخص غير معين ، فتجده يصدرها بمثل قوله في رسالة مناقب الأتراك: " وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا واياك ممن يقول بالحق ويعمل به . . . الى آخر الرسالة ".(٢)

وهناك من الكتاب المحدثين من يعتبر أن الرسائل الأخوانية نوع من أنواع الرسائل الأدبية ، كما فعل الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه (تطور الأساليب النثرية) حيث قسم الرسائل الأدبية الى مايلي :

---

(١) الأدب العربي في الأندلس ص ٤٦٥.
(٢) رسائل الجاحظ ج/ ١ ص ٥.

"١ - الأخوانيات: وهي تشتمل على كل ماكان يجرى من المكاتبات الشخصية بين اثنين ، أو أكثر من أخوان الأدب.

٢ - المفاكهات: ويدخل فيها المكاتبات الهزلية والعابسطات الأدبية.

٣ - المناظرات: أي ماكان يجرى بين الأدباء من محاورات ومناظرات ومنافسات .

٤ - الأوصاف: وهي باب واسع يدخل فيه كل مايراد به وصف محسوس كالمراكب والمعارك ، والحيوان ، أو غير محسوس كالبلاغة والشعر ، والصيد والأخلاق ، ويلحق الأوصاف المديح والهجاء ، وماشاكل ذلك.

٥ - الحكايات: ويدخل تحتها أنواع القصص المختلفة والمقامات".[1]

ولا يستطيع أحد أن يلتمس للمقدسي العذر في ادخاله الأخوانيات ضمن أنواع الرسائل الأدبية بأنه يقصد الرسائل التي ارتقت بالموضوع من الخصوصية الى العمومية ، ذلك لأنه يؤكد أنه يقصد جميع الأخوانيات حيث يقول : " وهي تشتمل على كل ماكان يجرى من المكاتبات الشخصية ".[2]

... ...

---

(١) تطور الأساليب النثرية ص ٣٢٣ ، ٣٢٤.
(٢) تطور الأساليب النثرية ص ٣٢٤.

والواقع أن الرسائل الأخوانية تختلف عن الرسائل الأدبية من حيث خصوصية الموضوع أو الغرض الذى يهدف من ورائه كاتب الرسالة ، وهي في غالبها لا تخرج عن نوعين:

الأول : رسائل متبادلة بين الأفراد ، وهي تمتاز بالجدية ، كما تمتاز بخصوصية موضوعاتها ، لذلك فهي ليست كبيرة أهمية من الناحية الأدبية الا من حيث الأسلوب والصياغة ، وأغراض هذا النوع من الرسائل عديدة.

الثاني : رسائل الداعبة والمفاكهات والمباسطات الأدبية بين الأدباء.

وقد يرتقي كل من هذين النوعين الى مرتبة الرسائل الأدبية ، وذلك اذا مااستطاع الكاتب أن ينتقل بالموضوع من الخصوصية الى العمومية.

وقد وفصل النقاد الحديث عن معاني كل غرض من أغراض الرسائل الأخوانية ، وقدموا لكل غرض " مايشبه العناصر كما نسميه اليوم ". (١)

فرسائل العزاء ينبغي أن تتضمن الحث على الصبر ، والتسليم لأمر الله ، ووعد المعزّى بالأجر العظيم وحسن العوض اذا صبر.

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٨٠.

ورسائل الشوق ينبغي أن تمتاز بالايجاز والاختصار ، كما تمتاز بالصدق في التعبير عن العواطف ، والبعد عم الملق والنفاق ، فتكون ألفاظها عذبة رقيقة ، ومعانيها لطيفة.[1]

وعموما فان الرسائل الأخوانية ليس لها رسوم خاصة ، ولكن كل كاتب يعبر فيها عن مشاعره بما أوتي من قدرة وبيان " فاذا كان ماهرا ، أغرب معانيها ، ولطف مبانيها ، وتسهل له فيها مالا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ، ولا تُتَجاوز ".[2]

... ...

لمحة عن الرسائل الأخوانية في الأندلس:

كما هي عادة المغاربة والأندلسيين في تأثر خطى المشارقة ، فقد انتقلت الكتابة الأخوانية الى الأندلس ، وكتب عدد كبير من الكتاب الأندلسيين في هذا الفن ، ومن أكبر كتاب الأندلس الذين كتبوا في الاخوانيات ، ابن برد الأصغر المتوفى عام ٤٤٠ هـ ، وابن زيدون المتوفى عام ٤٦٣ هـ ، وابن خاقان المتوفى عام ٥٣٥ هـ ، وابن أبي الخصال المتوفى عام ٥٤٠ هـ ، وابن الخطيب الأندلسي المتوفى عام ٧٧٦ هـ.

---

(١) راجع : السابق ص ٥٧٨ ومابعدها.
(٢) صبح الأعشى مج / ٩ ص ٥٣.

والواقع أن تأثر الأندلسيين في الرسائل الأخوانية بأساليب المشارقة واضح وضوحا لا يجحد ، " فابن برد وابن خاقان كلاهما متأثر بأسلوب ابن العميد ، وتلاميذ مدرسته الكتابية من أمثال الصاحب بن عباد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وابن زيدون يقفو غالبا أثر الجاحظ في أسلوبه "[1] غير أنه " لا ينكر استقلال الكتاب الأندلسيين في الجزئيات ومحاولتهم التجديد في اختيار الموضوعات ".[2]

... ...

اخوانيات ابن الخطيب :

ويقصد بها المكاتبات التي صدرت عن ابن الخطيب بصفته الشخصية ، ولم تصدر عن ديوان الانشاء ، وهذه المكاتبات تختلف باختلاف أغراضها ، كما تختلف باختلاف الفئات التي راسلها ، وهي كثيرة ، فقد خاطب برسائله بعض الملوك والوزراء ، وشيوخ الدولة ، والولاة ، والقواد ، كما راسل بعض القضاة والعلماء والكتاب والخطباء ، والأدباء والمعلمين ، كما كتب بعضا من اخوانياته ، وبعثها الى بعض أولاده وتلاميذه .

وابن الخطيب يراعي في اخوانياته مقتضى حال المخاطب ،

---

(١) الأدب العربي في الأندلس ص ١٦٢ .
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٨٤ .

فتتلون مكاتباته بحسب الغرض وشخصية المرسل اليه ، فاذا كانت الرسالة موجهة الى أحد الكبراء ، من الملوك أو القواد ، أو شيوخ الدولة أو الوزراء ، فانه يغلب عليها طابع الاكبار والاجلال والتعظيم ، واذا راسل أحدا من الوعاظ أو الخطباء اتخذت رسالته طابع الموعظة والتبصرة ، كما نجد في رسائله لابن مرزوق[1] ، واذا كانت الرسالة موجهة الى صديق من أصدقائه ممن يتميزون بروح المرح والدعابة ، اتسمت بطابع التبسط والمرح والفكاهة.[2]

ويمكن تقسيم اخوانيات ابن الخطيب الى ثلاثة أقسام هي :

١ - رسائله التي وجهها على لسانه في أغراض مختلفة :

وهي التي وجهها على لسانه في أغراض مختلفة الى الملوك[3] والوزراء ، وشيوخ الدولة ، والقواد ، والخطباء ، والكتاب والأدباء والمعلمين ، أو التي راسل بها أبناءه وتلاميذه.

---

(١) راجع فصلي ، الوعظ والزجر ، والرسائل الأدبية في هذا البحث.
(٢) راجع فصل الدعابة والفكاهة في هذا البحث.
(٣) هناك رسالتان وجههما ابن الخطيب الى بعض القبور ، الأولى يخاطب بها قبر السلطان أبي الحسن تملقا لولده أبي سالم وتقربا اليه ، والثانية كتبها على لسان سلطانه الغني بالله لما فقد عرشه ، وفيها يخاطب قبر الولي أبي العباس السبتي ، وتتسم الرسالتان بالبناء على السجع ، كما تمتاز بالايجاز والقصر ووضوح العبارات والألفاظ ، وربما بنيت الفكرة في الرسالتين على رواسب الصوفية التي كانت سائدة في ذلك العصر.

من نماذج هذا النوع :

رسالة بعث بها الى أبي عبد الله محمد بن نصر (الغني بالله) وقد حررت في الفترة التي خلع فيها ولجأ الى المغرب ، ويفهم ذلك من قول ابن الخطيب قبل ايراد هذه الرسالة في نفاضة الجراب : " وخاطبت السلطان أبا عبد الله بن نصر - جبره على الله - عند وصول ولده من الأندلس ".[1]

وغرض الرسالة - كما هو واضح - تهنئة السلطان بوصول ابنه اليه ، ولكن ابن الخطيب يخلط في رسالته مع التهنئة شيئا من العزاء للغني بالله في فقده عرشه وملكه ، ويقدم ابن الخطيب لرسالته بثلاثة أبيات يقول فيها :

الدهر أضيق فسحة من أن يرى ∴ بالحزن والكمد المضاعف يقطع

واذا قطعت زمانه في كربة ∴ ضيّعت في الأوهام مالا يرجع

فاقنع بما أعطاك دهرك واغتنم ∴ منه السرور ، وخل من لا يقنع[2]

---

(١) نفاضة الجراب ص ١٤٧.

(٢) السابق والصفحة.

وبعد الأبيات يقول مخاطبا سلطانه : " مولاى الذى له المنن ، والخلق الجميل ، والخلق الحسن ، والمجد الذى وضح منه السنن ، كتبه عبدك مهنئا بنعم الله التي أفاضها عليك ، وجلبها اليك ، من اجتماع شملك بنجلك ، وقضاء دينك ، من قرة عينك ، الى ماتقدم من افلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأودائك ".[١]

ويلاحظ هنا كيف يخلط مع التهنئة بوصول ولد السلطان اليه التهنئة بسلامة ذات السلطان ، ثم يمزج ذلك بشئ من العزاء كي يهون على السلطان مانزل به من فقد عرشه ودولته ، حيث يقول : " والزمن ساعة أو أقصر ، لابل كلمح البصر ، وكأني بالبساط قد طوى ، والتراب على الأكل سوى ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا مسرة ".[٢]

ولا ينسى أن يحقر ماضاع من السلطان حتى يخفف من عظم النازلة عليه ، وكأنه يحاول أن يقنعه بأن تخفف من حمل همّ ثقيل ، هو هم الحكم حيث يقول : " واذا نظرت ماكنت فيه تجدك لا تنال منه الا أكلة وفراشا ، وكنا[٣] ورياشا ، مع توقع الوقائع ، وارتقاب الفجائع ، ودعاء المظلوم ، وصداع الجائع ، ... ، ... ، ... ، فان اعتبرت الحال ، واجتنبت

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) الكِن : المأوى.

المحال ، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لبس". [1]

ثم يختم الرسالة باعتذار لعدم مجيئه الى سلطانه كي يهنئه بنفسه ، فيقول : " وكان أملي التوجه الى رؤية ولدكم ، لكن عارضتني موانع ، ولا ندرى في الآتي ماالله صانع ، فاستنبت هذه (أى الرسالة) في تقبيل قدمه ، والهناء بمقدمه ، والسلام". [2]

ويبدو أن ابن الخطيب قد بعث هذه الرسالة من سلا ، بينما الغني بالله في ضيافة سلطان المغرب بفاس .

وتمتاز هذه الرسالة ، بما يمتاز به أكثر اخوانيات ابن الخطيب ، من حيث القصر والايجاز على خلاف ماعرف عنه من الاسهاب.

وان كانت الرسالة مبنية على السجع القصير الفقرات ، الا أن السجع فيها يكاد يخلو من التكلف والاطالة ، بل يميل - في غالبه - نعومة وعذوبة لانتقاء الكاتب الجيد من الألفاظ التي تروق بجرسها ، دون أن تحدث ثقلا في النطق أو في السمع ، أو تعثرا في فهم النص.

---

(١) نفاضة الجراب ص ١٤٧ ، ١٤٨.
(٢) السابق ص ١٤٨.

ويلاحظ في أول الرسالة أن ابن الخطيب يبالغ في نعت السلطان ومدحه ، كما هي عادته في مخاطبة السلطان ، ولكن ذلك لا يحطّ من شأنه ، ولا ينقص من بلاغة نثره ، لأنه سمة من سمات عصره في مشرق العالم العربي ومغربه.[١]

كما يظهر في آخر الرسالة احساس ابن الخطيب باليأس من عودة السلطان الى عرشه ، مما يؤكد أن حادثة خلع السلطان كان لها أثر كبير في نفسية ابن الخطيب انعكس فيما بعد على حياته وفكره.

ومن نماذج هذا النوع رسالة بعث بها الى ابن خلدون ، وفيها يعرفه ببعض الأخبار ، ويستهلها بقوله : " ياسيدى اجلالا واعتدادا ، وأخي ودا واعتقادا ، ومحل ولدى شفقة سكنت مني فؤادا ، طال على انقطاع أنبائك ، واختفاء أخبارك فرجوت أن تبلغ النية هذا المكتوب اليك ، وتخترق به الموانع لديك".[٢]

ثم بعد أن يصف شوقه له ولحديثه ، يعرفه بأنه دائم السؤال عن حاله قائلا : " فأنا الآن بعد انهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع ، وتقرير الشوق اللزيم ، وشكوى البعاد الأليم ، وسؤال اتاحة القرب قبل الفوت من الله

---

(١) راجع: دراسات عربية واسلامية ص ٢٠٥ ومابعدها.
(٢) التعريف بابن خلدون ص ١٢٤.

ميسر العسير ، ومقرب البعيد ، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالا ،[1] في مجال الخلوص لك ، وأشدهم حرصا على اتصال سعادتك ".[2]

ويؤكد متابعته لأخبار ابن خلدون والسؤال عن حاله بقوله: " وقد اتصل بي في هذه الأيام ماجرى به القدر من تنويع الحال لديك ، واستقرارك ببسكرة[3] محل الغبطة بك ، باللجأ الى تلك الرياسة الزكية ، الكريمة الأب ، الشهيرة الفضل ، المعروفة القدر على البعد ".[4]

ثم يدعو لهذه الرياسة بقوله: " حرسها الله ملجأ للفضلاء ، ومخيما لرجال العليا ، ومهبا لطيب الثناء ، بحوله وقوته ".[5]

ثم يتوجه هنا بالنصح لابن خلدون ، فيقول: " وماكل وقت تتاح فيه السلامة ، فاحمدوا الله على الخلاص ، وقاربوا في معاملة الآمال ، وضنوا بتلك الذات الفاضلة عن المشاق ، وابخلوا بها عن المتالف ، فمطلوب الحريص على الدنيا خسيس ، والموانع الحافة جمة ، وبأقل السعي تحصل حالة العافية ، والعاقل لا يستنكحه الاستغراق فيما آخره

---

(١) المحال بكسر الميم أى التدبير.
(٢) التعريف بابن خلدون ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) بسكرة: مدينة ببلاد المغرب. راجع الروض المعطار ص ١١٣ .
(٤) التعريف بابن خلدون ص ١٢٥ .
(٥) السابق والصفحة.

الموت ، انما ينال منه الضروري ، ومثلك لا يعجزه — مع التماس العافية — أضعاف ما يزجي[١] به العمر من المأكل والمشروب ، وحسبنا الله ".[٢]

وينتقل بعد ذلك لوصف حاله لابن خلدون فيقول : "وان تشوفت الحال لمحبّ تلك السيادة الفذة ، والنبوة المبّرة ، فالحال الحال ، من حبل الزمام بيد القدر ، والسير في مهيع الغفلة ، والسبح في تيار الشواغل ، ومن وراء الأمور غيب محجوب ، وأمل مكتوب ، نؤمل فيه عادة الستر من الله الا أن الضجر الذي تعلمونه ، خففه اليأس لما عجزت الحيلة ، وأعوز المناص ،[٣] وسدت المذاهب".[٤]

ثم يصف حال سلطانه (الغني بالله) فيقول : " وفيما يرجع الى السلطان — تولاه الله — على أضعاف ما باشر سيدي من الأغياء[٥] في البر ، ووصل سبب الالتحام والاشتمال مع الاستقلال ... ، والحمد لله".[٦]

ويصف حال أبنائه وبعدهم عنه وشوقه اليهم ، فيقول :

---

(١) يزجي : يتبلغ بالقوت القليل ، ويجتزى به.
(٢) التعريف بابن خلدون ص ١٢٥ .
(٣) المناص : المهرب.
(٤) التعريف بابن خلدون ص ١٢٦ .
(٥) أغيا الرجل : بلغ الغاية.
(٦) التعريف بابن خلدون ص ١٢٦ .

" وفيما يرجع الى الأحباب والأولاد فعلى ماعلمت ، الا أن الشوق مخامر القلوب ، وتصور اللقاء مما يزهد في الوطن ، وحاضر النعم ، سنّى الله ذلك على أفضل حال ، ويسره قبل الارتحال الى دار المحال ".[1]

وينتقل بعد ذلك ليصف حال وطنه غرناطة لابن خلدون مشيرا أثناء ذلك الى ماافتتح من مدن ، فيقول : " وفيما يرجع الى الوطن ، فأحلام النائم خصبا ، وهدنة وظهورا على العدو ، وحسبك بافتتاح حصن آشر ، وبرغة القاطعة بين بلاد الاسلام ، وويذة ، ...... ، ...... ، ...... ، نسأل الله - جل وعلا - أن يصل عوائد نصره ، ولا يقطع عنا سبب رحمته ، وأن ينفع بما أعان عليه من السعي في ذلك ، والاعانة عليه ".[2]

ثم يخبره ببعض الأخبار والحوادث التي استجدت ، حتى يصل بالحديث الى آخر ماصنف هو من كتب ، فيخبره بتصنيفه لكتاب (روضة التعريف) و (الغيرة على أهل الحيرة) و (حمل الجمهور على السنن المشهور) وأنه مكب على اختصار كتاب (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهرى.[3]

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) راجع : السابق ص ١٢٧ ، ١٣٠.

وفي آخر الرسالة يطلب من ابن خلدون أن يعرفه بأحواله لشوقه اليه ، فيقول : " والمطلوب المثابرة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة ، اذ لا يتعذر وجود قافل من حج ، أو لاحق بتلمسان ، . . . ، فالنفس شديدة التعطش ، والقلوب قد بلغت ـ من الشوق والاستطلاع ـ الحناجر ".(١)

ثم يختم رسالته بالدعاء له فيقول : " والله أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه ، ويلبسك العافية ، ويخلصك واياى من الورطة ، ويحملنا أجمعين على الجادة ، ويختم لنا بالسعادة ، والسلام الكريم عودا على بدء ، ورحمة الله وبركاته ، من المحب المتشوق الذاكر الداعي ، ابن الخطيب ، في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة ".(٢)

والرسالة كما يرى طويلة ، وقد جاءت في أسلوب مرسل في أغلبها ، وامتازت بحسن تسلسل أفكارها ، وانتقاء الكاتب فيها للألفاظ السهلة ، واعتماده فيها أحيانا على تجسيد المعاني من خلال الصور والاستعارات.

. . .   .

٢ - رسائل دبجها على لسان غيره الى أصدقائهم وأحبائهم :

من هذا النوع وردت لابن الخطيب في ريحانة الكتاب رسالتان مرفوعتان الى السلطان الغني بالله ، وقد كتبت الأولى

---

(١) التعريف بابن خلدون ص ١٣٠ .
(٢) السابق والصفحة .

على لسان ابنه سعد ، والثانية على لسان ابنه الأكبر يوسف ، والغرض من كلا الرسالتين الشكر.

وتكاد تتفق الرسالتان من حيث الأسلوب ، كما اتفقتا من حيث الغرض ، غير أن الثانية تمتاز عن الأولى بأن الكاتب يستخدم فيها بعض المحسنات التي لم يستخدمها في الأولى كالجناس والتضمين ، لذلك سنستعرض الثانية كنموذج لهذا النوع .

ويبدأ ابن الخطيب رسالته على لسان ابن السلطان الغني بالله بقوله : " مولاى الذى رضى الله تعالى مقرون برضاه ، والنجح مسبب عن نيته ودعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عليّ بكم ظل رحماه ، وغمام نعماه ، وزادني من مواهبه هداية في توفية حقه الكبير ، فان الهدى هدى الله ".(١)

ويلاحظ في صدر الرسالة كيف يمزج الكاتب بين الاجلال والدعاء في عبارات مسجوعة.

وتستمر الرسالة على هذا النحو من التبجيل والاجلال للأب والسلطان ، حيث يقول الكاتب على لسان الابن في سجع طويل الفقرات: " يقبل مواطئ أقدامكم التي ثراها شرف

---

(١) نفح الطيب مج / ٦ ص ٣٤٤ .

الخدود ، وفخر الجباه ، ويقرر من عبوديته مايسجل الحق مقتضاه ، ... ، ولدكم وعبدكم يوسف ، من منزل تأييدكم بظاهر مالقة ".(١)

ثم يدخل في غرض الرسالة وهو الثناء والشكر ، من خلال عبارات تمتلئ بالتعظيم ، فيقول : " وقد وصل يامولاى لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم مابعث به عليّ مقامكم ، وجادت به سحائب انعامكم ، .... ، ... ، ... ، مايضيق عنه بيان العبارة ، ويفتضح فيه لسان القول والاشارة ، من عنايات سنية ، ونعم باطنة وجلية ".(٢)

ثم يعدد بعض هذه النعم قائلا : " فما شئت من قباب مذهّبة ، وملابس منتخبة ، وأسرة مرتّبة ، ومحاسن لا مستورة ، ولا محجّبة ".(٣)

ويصف كيف أُستقبلت هذه الهدايا في مالقة ، فيقول :"واتفق يامولاى ان كان عبدكم قد ركب مفتتما برد اليوم ، ومؤثرا للرياضة في عقب النوم ، والتفّ عليه الخدام ، والأولياء الكرام ، فلما عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوة الصور ، والمتلوة السور ، وقد حشر الناس ، وحضرت منهم الأجناس ، فعلا الدعا ، وانتشر الثنا ".(٤)

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق ص ٣٤٥.
(٣) السابق والصفحة.
(٤) السابق والصفحة.

ثم ينهي الرسالة بالدعاء لوالده وسلطانه شكرا له ، وفي أثناء ذلك يبين شوقه للورود على الأبواب السلطانية ، فيقول : " فنسأل الله تعالى يامولاى أن يكافئ مقامكم بالعز الذى لا يتبدل ، والنصر الذى يستأنف ويستقبل ، .... ، والعبد ومن له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار ، .... ، .... ، .... ، والسلام على مقام مولاى مقام الشفقة والرحمة ، والمنة والنعمة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ".[١]

ويكثر في هذه الرسالة استخدام الكاتب لعبارات التفخيم والاجلال ، ومزجها بأساليب الدعاء ، كما يقل فيها استخدام المحسنات البديعية ، وقد امتازت بسلاسة الألفاظ ، وسهولتها ، كما امتازت بالقصر والايجاز.

... ...

٣ - الاجازات العلمية :[٢]

جرت العادة منذ العصور الاسلامية الأولى ، اذا تأهل

---

(١) السابق ص ٣٤٥ ، ٣٤٦.

(٢) ألحقنا الاجازات العلمية بالأخوانيات لأسباب منها : أنها صادرة عن شخص ابن الخطيب ، ولم تصدر عن ديوان الأنشاء ، ولأنها تقترب في شكلها من الرسائل الأخوانية ، ولأنها نادرة في مكاتبات ابن الخطيب ، اذ لم أجد له سوى اجازة واحدة مما منعني أن أجعل لها فصلا مستقلا.

بعض الطلبة للفتيا والتدريس ، أن يسمح له شيخه أو أستاذه في أن يدرس ويفتي ، ويكتب له كتابا يجيزه فيه بذلك ، ويراعى أن يكون ذلك الكتاب متأنقا في صياغته ، وقد يأذن له فيه أحيانا أن يروى عنه بعض الكتب التي ألفها الشيخ أو الأستاذ، أو يشهد له أنه يحفظ كتابا أو أكثر اختبره في حفظه.

ويبالغ الأستاذ خلال الاجازة في الثناء على الطالب وعلى علمه وذكائه ، ومقدرته ، ويتأنق في كل ذلك تأنقا كبيرا.[١]

وقد عرف هذا النوع الأدبي في الأندلس ، وكتب كثير من العلماء والأدباء اجازات هناك لتلاميذهم ، ومن هؤلاء ابن الخطيب الأندلسي ، حيث وجدت له اجازة واحدة أوردها في ريحانة الكتاب ،[٢] وفي نفاضة الجراب ،[٣] وهي تخص أبناء أبي القاسم بن رضوان المالقي ،[٤] وأبو القاسم هذا واحد من كتاب سلاطين المغرب توفى عام ٧٨٣هـ.

وقد بدأ ابن الخطيب نص اجازته هذه بقوله: "أما بعد حمد الله الذى جعل الفضائل بذرا وزرعا ، وأصلا يخلف

---

(١) عن أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٨٧ - بتصرف ،وراجع نماذج من هذه الاجازات فى صبح الأعشى مج / ١٤ ص ٣٦٤ ومابعدها.

(٢) مج / ٢ ص ٢٢٢.

(٣) ص ٣٦٦.

(٤) تحدث عنه ابن خلدون في التعريف بابن خلدون ص ٢٢ - ٢٤.

فرعا ، فان أهمل الأصل فهو من الاستفادة الفصل ، وان تـرك الزرع ضاق بالحاجة الفرع ، ... ، ... ، ... ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى فضلت ملته الملل ، وشفت هدايته العلل ، فكان مما انفردت به رواية الخلف عن السلف ، وتلا في الفوائد الفعلية من قبل التلف ، والرضا على آله الطيبين ، وصحبته المنتخبين ."(١)

وبعد المقدمة الواضحة التكلف ، يواصل حديثه في اجازته بقوله : " فانني لما استدعاني السيد الكبير الحبر الامام ، صاحب القلم الأعلى ، والطريقة المثلى ، والذات الفضلى ريحانة الأندلس التي تضوّع(٢) عنها المغرب ، وتغنى بحديث فضلها الحادى المطرب ، وفخر الأفق الجهادي ،بيتا معمورا بالوزراء الأخيار ، والصلحاء الأبرار ، ونسبا في ذروة الأنصار ، من بني النجار ، وحسبك بخؤولة المختار ، وعفافا طاهر الثوب ، ضافي الازار ، الى الوجه المبشر بالسعادة ، وعين النقيبة في الابداء والاعادة ، والحياء الذى نضّر الوجه ، وأدق البشرة ، والذات التي لا تعرف الشره ، والعلم المملك من أزمة الفنون ، ... ، أبو فلان ، لاجازة(٣) ولده الأمجد ، وارث رتبته الشماء ، بعد تملي الحياة وطول البقاء ، وقرة عين المجادة والعليا ، أبي عبدالله محمد ، وابن أخيه الفاضل ، الصدر ، الرفيع

---

(١) نفاضة الجراب ص ٣٦٦.
(٢) تضوع المسك أى فاحت رائحته.
(٣) الجار والمجرور متعلق بالفعل (استدعاني) في بداية النص.

القدر ، أبي الفضل ، وهو الولد الأسعد أبو سالم ابراهيم ، شمل الله الجميع بستره وعصمته ، ووصل لهم ماعودهم من نعمته ، وشغلهم بالعلم النافع وخدمته ، وأعلقهم بوسائل العرفان وأزمّته ، تضاءلت [١] ـ علم الله ـ اجلالا بمحله من التبحر في المعارف ، واستظلاله بظلها الوارف". [٢]

ثم يضيف بتواضع : " لكن أقدمت امتثالا ، وحذوت من أمره مثالا ، وبادرت اعتمادا على اغضائه واتكالا ، فقلت: أجزت الولدين المذكورين فيما يصح لي أن أجيز فيه من روايةٍ أشرك هذا الفاضل في بعضها ، وأسهم بقلمه في فرضها ، ونظمٍ ونثرٍ [٣] ـ هذا المكتّب من بعض بنيه ـ وتأليف ينبه عليه ، ككتاب الاحاطة ... الخ ". [٤]

ثم بعد أن يذكر عددا من مصنفاته وكتبه يقول : " الى غير ذلك (أى من المصنفات) مما هو بهرج يفتقر الى اغضاء العارف ، وزيف يحتاج الى مسامحة امام الصيارف ، إجازة [٥] تامة على شرطها المعتبر ، وسننها الواضح الأثر ، والله يعدل بنا الى ماينفع ، ويزكي ويرفع ، فقد ذهب العمر الأطيب في السعي الأخيب ، وانصرف الزمن الأبدع في السراب

---

(١) تضاءلت ـ جواب لمّا التي في بداية النص ـ.
(٢) نفاضة الجراب ص ٣٦٦.
(٣) معطوفة على قوله (من رواية) .
(٤) نفاضة الجراب ص ٣٦٦ ، ٣٦٧.
(٥) مصدر للفعل (أجزت) في النص السابق .

الذى يخدع ، اللهم لا تطردنا عن بابك ، ولا تقطع بنا عن جنابك".(١)

ثم يختمه بتوقيعه : " وكتب الغافل الراجي الأمل ، فلان ، في كذا . . ".(٢)

وهذه الاجازة كتبها ابن الخطيب أثناء اقامته بسلا بين عامي (٧٦١ - ٧٦٣ هـ) ، واذا تأملناها نجد أنه قد صاغها الى آخرها في أسلوب مسجوع سلس ، وقد أطال في مقدمتها ، وأكثر فيها من الثناء والمديح والدعاء لابن رضوان ولأخيه.

وهو يحاول خلالها توخي المقدمة والدعاء الذى يتناسب مع الغرض في مثل قوله : " والصلاة على سيدنا ومولانا محمد الذى فضلت ملته الملل ، . . . ، فكان مما انفردت به رواية السلف عن الخلف".(٣) وقوله : " وشغلهم بالعلم النافع وخدمته".(٤)

كما يلاحظ في هذه الاجازة شدة التواضع لابن رضوان ، ويظهر ذلك من قوله : " لما استدعاني ، . . . ، . . . ، . . . ، تضاءلت ـ علم الله ـ اجلالا بمحله من التبحر في المعارف".(٥)

---

(١) نفاضة الجراب ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(٢) السابق ص ٣٦٩ .
(٣) السابق ص ٣٦٦ .
(٤) السابق والصفحة .
(٥) السابق والصفحة .

ويحاول ابن الخطيب في هذه الاجازة التعبير بالصورة ، كمثل قوله في الثناء على ابن رضوان : " ريحانة الأندلس التي تضوع منها المغرب " ،[١] وكقوله بعد ذكر الصنفات : " الى غير ذلك مما هو بهرج ، يفتقر الى اغضاء العارف ، وزيف يحتاج الى مسامحة امام الصيارف " ،[٢] وكقوله : " وانصرف الزمن الأبدع في السراب الذى يخدع ".[٣]

... ...

بعض المآخذ عليه في الكتابة الأخوانية :

١ - يؤخذ على ابن الخطيب هنا تكلف السجع في بعض الأحيان مما دفعه الى :

أ - الحشو ، وتقريب المتباعدات ، واطالة العبارات بما ليس تحته كبير معنى ، ولي أعناق الكلام ، كل ذلك للحصول على سجعة ، وفي هذا مافيه من التكلف الذى يعثر القارئ ، ومن أمثلة ذلك قوله في رسالته التي كتبها على لسان ابن السلطان حين يصف استقباله لهدية السلطان : " وقد حشر الناس ، وحضرت منهم الأجناس " ،[٤] وقوله في رسالة للوزير ابن عامر : " وسألته

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق ص ٣٦٨.
(٣) السابق والصفحة.

سبحانه أن يجعلك عن النوائب حجرا لا يقرب ، وربعك ربعا لا يخرب ، ماسبحت الحوت ، ودبت العقرب".[١]

وقوله في رسالة بعث بها الى القاضي خالد بن عيسى بن أبي خالد : " وصل الله عز الفقيه النبيه ، العديم النظير والشبيه ، .... ، .... ، ... ، ولا زال غاصا بمشوب اللطائف ، حتى من أحواز مكة والطائف منزله .. ".[٢]

ب - الوقوع في بعض الأخطاء اللغوية ، كقوله في رسالة لشيخ الدولة الابراهيمية : " سيدى الذى اليه انقطاعي وانحياشي ، .... ، .... ، ومنعمي الذى جبر جناحي وأنبت رياشي"[٣] ، وواضح أنه يقصد بالرياش جمع ريشة ، وهذا خطأ ، اذ تجمع ريشة على ريش ، والرياش هو الأثاث والمتاع.[٤]

٢ - ومن المآخذ أيضا القسم بغير الله في رسائله ، وهذا غير سائغ ولا جائز ، ومن أمثلته في اخوانياته قوله في احدى رسائله لابن خلدون : " يمينا برب حجت قريش لبيته ، وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته ، .. الخ "[٥] وقوله

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ١٠٦.
(٢) السابق ص ١٢٨.
(٣) السابق ص ١١٥.
(٤) انظر القاموس المحيط مادة (ريش) .
(٥) ريحانة الكتاب ص ١٨٥.

في رسالة للكاتب محمد القيسي : " ماهذا النشر ،.......، والفجر والليالي العشر .. الخ " ،[1] وقوله في رسالته الطويلة لابن خلدون ، والتي بعثها له أثناء اقامته ببسكرة " بل نقول يامحل الولد ، لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد .. الخ ".[2]

٣ - المبالغة في اظهار التواضع لغرض التملق ، مما يبلغ به درجة الشطط أحيانا ، وهذا ظاهر بوضوح في رسائله التي يخاطب بها الأمراء والسلاطين ، ومنه قوله في رسالة بعثها الى أبي سالم المريني ، سلطان المغرب ، يقول فيها مشيرا الى مرسل الرسالة : " عبدكم الذى خلص ابريز عبوديته لملككم المنصور ، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقصور ... ، ابن الخطيب ".[3]

... ...

أهم سمات ومميزات الكتابة الاخوانية عند ابن الخطيب :

١ - تمتاز اخوانيات ابن الخطيب غالبا بتسلسل الأفكار ، غير أنه يستطرد في بعض الأحيان فيخرج عن غرض الرسالة الى أمور

---

(١) السابق ص ١٤٩.
(٢) السابق ص ١٣٧.
(٣) نفح الطيب مج / ٥ ص ٢٧.

أخرى ، ثم يعود الى ذات الغرض .

ومن أمثلة ذلك استطراده في رسالة بعث بها لابن خلدون ، حيث يصف شوقه اليه ، ثم يخرج من ذلك لمدح الأسرة المرينية ، وكأنه يحاول بذلك التملق والتقرب لهذه الأسرة التي لها عليه فضل كبير خلال مراحل حياته ، يقول : " ولولا عسى الرجاء ولعله ، لا بل شفاعة المحل الذى حله ، لمزجت الحنين بالعتب ، ... ، ... ، ... ، لكنه أدى الى الحرم الأمين ، ... ، حرم الخلال المرينية ، ... ، والهمم السنية ، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية ".[1]

٢ - ومن مميزات اخوانياته القصر في أكثرها اذا ماقورنت برسائله السلطانية ، التي قد تستغرق الصفحات الطوال ، ومن الأمثلة على الرسائل القصيرة رسالته التي بعث بها الى الغني بالله في تهنئته بقدوم ولده.[2]

٣ - ويقدم ابن الخطيب لأغلب اخوانياته بقصائد أو مقطوعات شعرية ، ثم يبدأ بذكر المرسل اليه ، وبعد ذلك يشير الى نفسه بشكل تواضع ، وغالبا ماينهي رسائله بالدعاء للمرسل اليه ، والاعتذار عن التقصير في الرسالة ، كقوله

---

(١) ريحانة الكتاب مج/ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) راجع هذه الرسالة خلال النماذج التي استعرضناها في هذا الفصل .

في رسالة بعثها الى أبي زيان: " وما قصر عنه القلم من حق مولاى ، فالرسول - أعزه الله - متمه ، وما قصر عنه الرسول فالله يعلمه ، وهو جل وعلا يديم أيام مولاى ، ويثني سعده "،[١] وكقوله في رسالة بعثها الى الوزير عامر بن محمد المتغلب على ملك المغرب: " وأما الذى عندى من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمناقبها المنيفة ، فهو شئ لا تفي به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ".[٢]

٤ - ويحاول ابن الخطيب في اخوانياته توليد الجمل ، وتفريع المعاني ، وتشقيق العبارات ، كما يحاول كثيرا التفنن في الكلام ، وانتقاء الألفاظ المتشابهة والمتجانسة مما يعطي الجمل نوعا من الجرس الموسيقي ، كما أن أسلوب رسائله الأخوانية يقترب من الأسلوب الخطابي من حيث جهارة الألفاظ وموسيقية العبارات ، واشتمال الرسائل على الكثير من أساليب الدعاء المتفنن في ابتكارها .

٥ - وابن الخطيب لا يعبر - غالبا - عن المعاني بطريق مباشر ، وانما يلجأ الى الطرق غير المباشرة في التعبير ، من خلال استخدام الصور البيانية ، والاستعارات ، ومن أمثلة

---

(١) ريحانة الكتاب ص ٩٦ .
(٢) السابق ص ١١٠ .

ذلك قوله في رسالة للوزير عامر: "وقد اتصل بي ماسناه الله من النصر والظهور، والصنع البادئ السفور، لمّا التقى الجمعان، وتهوديت أكؤس الطعان، وتبين الشجاع من الجبان".[١]

ومن صور ابن الخطيب المخترعة التي هي غاية في الجمال، بما تعبر عنه من أفكار وأحاسيس لا يقدر عليها الا من أوتي قدرة عالية في البيان، ولعل ذلك يرجع الى شاعريته الأصيلة، ومن أمثلة تلك الصور، قوله في رسالة بعثها الى والي درعة يقول في أولها: "كتبت الى سيدى والخجل قد صبغ وجه يراعي، وعقّم ميلاد انشائي واختراعي، لمكارمه التي أعتب منه ذراعي، وعجز عن خوض بحرها سفينتي وشراعي".[٢]

ومن ذلك أيضا قوله في نهاية رسالة بعثها الى أحد الكتاب: "والله يتولى سيدى بحسن المكافأة، ويعين على مايحبب له من المصافاة، ويحجبه من الآفات، بحجاب المعافاة، مااستقلت طيور الهمزات على قضبان الألفات، والتفتت عيون السحر الحلال من خلال أدواح الالتفات".[٣]

٦ - وأحيانا يمتدح المرسل اليه من خلال الثناء على قدرته

---

(١) السابق ص ١٠٤.
(٢) السابق ص ١٣١.
(٣) السابق ص ١٨٢.

في التعبير ، وبراعته في تعبير الرسالة ، وهذا أمر لا ينتبه اليه كثير من الكتاب ، يقول مثلا ، جوابا على رسالة للكاتب محمد بن يوسف القيسي : " ماهذا النشر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ، شذا كما تنفس دارين ، وحلل رقم حللها التزيين ، وبيان قام على ابداعه البرهان المبين ، ونقش وشي به طرس فجاء كأنه العيون العين ".(١)

٧ - ولا تخرج الأوصاف التي يصف بها السلاطين والحكام ، ويمتدحهم بها عن المثاليات التي ينبغي أن يكون عليها الحاكم المسلم ، كالعدل ، والمعاملة الطيبة للرعية ، وحسن الأخلاق ، والالتزام بمبادئ الدين في مختلف الشئون ، ومكافحة أعداء الدين ، ومجاهدتهم ، يقول واصفا السلطان أبا زيان المريني في رسالة بعثها اليه : " أبو زيان ابن مولانا السلطان ، ولي العهد ترشيحا ومآلا ، ومؤمل الاسلام تقلدا للمذهب الصحيح وانتحالا ، وأمير المسلمين لو أوسعه القدر امهالا ، ... ، خلائق متعددة وخلالا ، المتحف بالسعادة ، ... ، ... ، ابن مولانا أمير المسلمين ، كبير الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله المسدول على الضعفاء ، والمجاهد في سبيل الله

---

(١) السابق ص ١٤٩ .

بنفسه وماله ... الخ ".(١)

٨ - وفي اخوانياته التي خاطب بها السلاطين والحكام والأمراء يستخدم الألقاب الفخمة ، وبعض الألقاب المختومه بياء النسبة ، كقوله في رسالة لسلطان تونس: " المقام الابراهيمي ، المولوى ، المستنصرى ، الحفصي ، الذى كرم فرعا وأصلا ... الخ ".(٢)

٩ - وفي رسائل الأصدقاء يخاطب الصديق وكأنه معشوق هجر عاشقه ، وقسى عليه بصده ، ويظهر ذلك واضحا في رسالة بعثها الى ابن خلدون يقول في أحد فصولها : " لقد حل بينك(٣) عرى الجلد ، وخلد الشوق بعدك ياابن خلدون في الصميم من الخلد ، فحيا الله زمنا شفيت برقى قربك زمانه ، ... ، ويامن لمشوق لم تقض من طول خلتك لبانته ".(٤)

١٠- ويحاول في رسائل العزاء ، أن يؤبن الميت ، مشيرا الى بعض حسناته ، من خلال التحسر ، كقوله في عزاء الوزير عامر على فقد أخيه عبد العزيز: " وبأى حزن يلقى فقد عبد العزيز ، وقد جلّ فقده ، أو يطفى لاعجه ، وقد

---

(١) السابق ص ٩٣.
(٢) السابق ص ١٥٣.
(٣) البين : الفراق.
(٤) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ١٣٧.

عظم وقده ، اللهم لو بكى بندى أيامه ، أو بغمام عواديه أو بعباب واديه ".[١]

١١ - وتمتاز أكثر اخوانيات ابن الخطيب بالبناء على السجع ، غير أنه قد يصوغ بعض رسائله في أسلوب مرسل ، كما في رسالته لابن خلدون التي استعرضناها سلفا .

١٢- ويستخدم أحيانا المزاوجة بين الشعر والنثر ، خاصة في الرسائل الطويلة ، كرسالته لابن مرزوق ، والتي صدرها بأبيات يقول فيها :

" ولما أن نأت منكم دياري .'. وحال البعد بينكم وبيني
بعثت لكم سوادا في بياض .'. لأنظركم بشيء مثل عيني".[٢]

١٣- ويستخدم كثيرا صيغ النداء المعبرة عن الاكبار والاعجاب والتقدير ، على صيغة جمل اعتراضية في الخطاب كقوله في رسالة لابن مرزوق : " وحيا الله — أيها العلم السامي الجلال — زمنا بمعرفتك المبرة على الآمال بر وأتحف"،[٣] وكقوله في رسالة بعثها الى أبي عبد الله الفشتالي : " قاضي القضاة ، بما أثنى على خلالك المرتضاه ".[٤] وكقوله في

---

(١) السابق ص ١٠٨ .
(٢) السابق ص ١٤٤ .
(٣) السابق ص ١٤٥ .
(٤) السابق ص ١٧٤ .

مخاطبة قائد الأسطول: "أبقاك الله - أيها القائد - الذى بأسه حزم ، وشأنه شجاعة وكرم". (١)

وأحيانا يعبر عن المنادى بصيغ مختلفة ، وكنايات متعددة ، لغرض المديح والثناء ، ويظهر ذلك واضحا في رسالته التي بعثها الى قبر السلطان أبي الحسن المريني ، كقوله: "السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذى عرف فضله الاسلام ، ....، ...، السلام عليك أيها المولى الذى قسم زمانه بين حكم وفضل ، وامضاء نصل ، ....، السلام عليك يا مقر الصدقات الجارية ، ومشبع البطون الجائعة ، وكاسي الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية .. الخ". (٢)

ومن ذلك قوله في مخاطبة شيخ الدولة الابراهيمية: "سيدى الذى اليه انقطاعي وانحياشي ، وملجئي الذى يسر خلاصي ، ...، ومنعمي الذى جبر جناحي ، وأنبت رياشي ، وولي هذا الصنف العلي ولا أحاشي". (٣)

---

(١) السابق ص ٢٢١.
(٢) السابق ص ٨٦، ٨٧.
(٣) السابق ص ١١٥.

الفصل الثالث
(الرسائل الأدبية)

الرســـائل الأدبيـــة

يطلق بعض الكتاب المحدثين كلمة (الرسائل الأدبية) على نثر الترسل بجميع أنواعه الثلاثة، (السلطاني أو الانشائي، والأخواني، والأدبي).[1]

وهذا صحيح من حيث أن جميع أنواع الترسل تدخل في دائرة الأدب، ولكن مصطلح (الرسائل الأدبية) يُقصد به نوع خاص من نثر الترسل "كرسائل الجاحظ مثلا، وهي أشبه ماتكون بالمقالات في عصرنا الحاضر، وفيها يتناول الأديب موضوعا ما: فرديا، أو اجتماعيا، تناولا أدبيا، مبنيا على اثارة عواطف القارئ ومشاعره".[2]

وقد عرف فنّ الرسائل الأدبية في القرن الهجرى الثاني، اذ يبدو أنها ظهرت أول ماظهرت على يد عبد الحميد الكاتب المتوفى عام ١٣٢ هـ، حيث كتب عدة رسائل في موضوعات مختلفة منها رسالة وجهها للكتاب "يرشدهم فيها الى آداب الصناعة، وصون أنفسهم عن النقائص، ويدعوهم الى أن يتعاطفوا وأن يتعاونوا عند الحاجة".[3]

---

(١) راجع: الأدب العربي في الأندلس ص ٤٤٩.
(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٨١.
(٣) تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري ص ٢٣٥.

كما ساهم في ظهورها ابن المقفع المتوفى عام ١٤٢ هـ، عندما ترجم "عن الفارسية كثيرا من الرسائل الأدبية التي تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر في الحياة العامة، كما تتصل بالسياسة وتدبير الحكم".(١)

وظهرت الرسائل الأدبية جلية وواضحة في القرن الثالث الهجرى عند الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ، حيث كتب عدة رسائل تناولت موضوعات مختلفة، كرسالته في مناقب الأتراك، ورسالة الحاسد والمحسود، وغيرهما، وقد جمع الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسائل في مطبوع أسماه (رسائل الجاحظ).

وغالبا ماتبدأ الرسائل الأدبية بالحديث موجها الى المخاطب مع الدعاء له، ثم يدخل الكاتب في غرض الموضوع الذى أنشئت له الرسالة، واذا أنت حذفت هذا البدء بدت الرسالة مقالا سويا".(٢)

ولعل هذا البدء في توجيه الرسالة الى المخاطب كان من الأسباب التي جعلت بعض الكتاب يخلطون بين الرسائل

---

(١) تاريخ الأدب العربي — العصر العباسي الأول ص ٥٠٥، وانظر ص ٤٤١ ومابعدها منه، وانظر: تاريخ آداب اللغة العربية مج / ١ ص ٤٣٨ ومابعدها.

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٥٨١.

الأدبيـة والأخـوانيـة ـ كمـا أشـرت في الفصـل السـابق ـ حيث عـد بعضهـم الأخوانيات مـن الرسـائل الأدبيـة ، وجعـل البعـض الآخـر ، الرسـائل الأدبيـة كنـوع مـن الأخوانيـات.[١]

والحقيقـة أن نقـاد العـرب لـم يفصّـلوا الحديث في الرسائل الأدبيـة ، ولـم يتبينـوا منهجـها كمـا أنهـم لـم يتحدثوا عمـا ينبغـي أن يكون فيهـا ، ولـم يستخلصوا العناصر الجوهرية التي تفـرق بينهـا وبين غيرهـا مـن بـاقي ألـوان الرسـائل ،[٢] ولـو فعلـوا ذلـك لـكان لهـذا الفـن مـن الرسـائل " شـأن كبير ، وأمدتنـا بثـروة لا تنفـد مـن الأبحـاث الخلقيـة والاجتماعيـة لأنهـا مقـالات يتداولها النـاس فيمـا بينهـم مكتوبـة فـي كراسـات ، كمـا تَـذيـع المقـالاتُ اليـوم فـي الصحـف والمجـلات ".[٣]

وتختـلف الرسـائل الأدبيـة عـن الأخـوانيـات مـن حيث عموميـة الموضـوع لـذلـك فهـي تنقسـم الى :[٤]

١ ـ الأوصـاف ، وهـي عـلى نوعين وصـف لمحسـوس كوصـف المراكـب والحيـوان وغيرهـا ، ووصـف لغـير محسـوس كوصـف الأخـلاق ، والبـلاغـة ، وغيرهـا .

---

(١) راجـع فصـل الأخـوانيـات.
(٢) عن أسـس النقـد الأدبـي عنـد العـرب ـ بتصرف ص ٥٨١.
(٣) أسـس النقـد الأدبـي عنـد العـرب ص ٥٨١.
(٤) هـذا التقسيم مستوحى من تقسيم أنيس المقدسي في كتابـه تطـور الأسـاليب النثريـة ص ٣٢٤.

٢ - المناظرات والمفاخرات.

٣ - الحكايات ، ويدخل تحتها أنواع القصص المختلفة ، والمقامات.

٤ - بعض الرسائل الأخوانية الراقية.

... ...

لمحة عن الرسائل الأدبية في الأندلس :

لقد عرف الأندلسيون فن الرسائل الأدبية ، وكتبوا فيه الكثير من الرسائل التي تختلف من حيث موضوعاتها ، وأنواعها ، فمنها مايدخل في الأوصاف ، ومنها مايدخل في المناظرات أو الحكايات أو المقامات ، ومنها مايعدّ في باب الأخوانيات الراقية.

وقد حفظت بعض كتب التراث الأندلسي الكثير من هذه الرسائل ، ولعل من أشهرها رسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد المتوفى عام ٤٢٦ هـ ، ورسالة السيف والقلم[(١)] لابن برد الأصغر المتوفى عام ٤٤٠ هـ ، ورسالتا ابن زيدون المتوفي عام ٤٦٢ هـ ، الهزلية والجدية ،[(٢)] ورسالة ابن حزم المتوفي عام ٤٥٦ هـ ، في تفضيل الأندلس.[(٣)]

---

(١) وردت في الذخيرة ق/١ مج/١ ص ٥٢٣.

(٢) انظر: ديوان ابن زيدون ص ٢٣٥، ٢٢٦.

(٣) نفح الطيب مج / ٣ ص ١٥٦.

ويورد ابن الخطيب في كتابه (الاحاطة في أخبار غرناطة) عددا من الرسائل الأدبية ، منها رسالتان لابن قزمان الزهري المتوفى عام ٥٥٥ هـ ، الأولى في استهلال رمضان ،[١] والثانية في استهلال شوال ،[٢] ورسالة لابن جبير الرحالة المتوفى عام ٦٢٤ هـ ، في الوعظ والنصح ،[٣] ورسالة لأبي عبد الله الحميري المتوفى عام ٧٢٠ هـ ، في مخاطبة النسيم ،[٤] ورسالة للقاضي النباهي المتوفى عام ٧٩٢ هـ ، في وصف نخلة ،[٥] ورسالة لابن الفصال من رجال القرن الثامن في مخاطبة الكتّاب ،[٦] وغيرها .

ومن يقرأ هذه الرسائل يجد أنها تمتاز في أغلبها بالبناء على السجع ، واستخدام المحسنات البديعية الأخرى ، كما تمتاز بالطول والاطناب.

يقول ابن جبير في رسالته : " نحن في زمن لا يحظى فيه بنَفاق ، الا من عامل بنِفاق ، شغل الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض ، فلجّوا في الصدود عنها والاعراض ، آثروا

---

(١) مـج ٢ / ص ٤٩٨ .
(٢) مـج ٢ / ص ٥٠٠ .
(٣) مـج ٢ / ص ٢٣٧ .
(٤) مـج ٢ / ص ٣٧٢ .
(٥) مـج ٤ / ص ٩٥ .
(٦) مـج ٣ / ص ٤٨٤ .

دنيا هي أضغاث أحلام ، وكم هفت في حبها من أحلام ، أطالوا فيها آمالهم ، وقصروا أعمالهم ، ما بالهم ، لم يتفرغ لغيرها بالهم ". (١)

الرسائل الأدبية في نثر ابن الخطيب:

لابن الخطيب بعض من الرسائل يمكن ادخالها في باب الرسائل الأدبية ، وهي تنحصر في نوعين :

١ - بعض الرسائل الأخوانية الراقية ، ومن هذا النوع بعض رسائله الهزلية التي استعرضناها في فصل الدعابة ، ورسالته لأبنائه التي طبعت بطابع الوعظ والارشاد ، (٢) ورسالته التي وجهها للوزير المغربي ابن مرزوق ، وهي التي سنستعرضها هنا كنموذج لهذا النوع. (٣)

وهذه الرسالة تعدّ من الرسائل الأخوانية التي ارتقت

---

(١) الاحاطة مج / ٢ ص ٢٣٨.

(٢) أشرت في فصل الخطابة والزجر والوعظ الا أنها تدخل في رسائل الوعظ.

(٣) ومما يدخل في هذا النوع من الرسائل الأدبية رسالتان أوردهما في ريحانة الكتاب ، الأولى في الحديث عن نخلة بازاء باب غرناطة ، وقد وجهها للنباهي ردا على رسالة له في الحديث عن هذه النخلة.

والثانية رسالة حكّم فيها بين رسالتين الأولى لابن فركون القرشي ، والثانية لأبي الفضال ونظرا لعدم وضوحهما فقد استبعدتهما من الدراسة.

الى درجة الرسائل الأدبية وقد وضع فيها ابن الخطيب دستورا لخدمة الملوك ، وقدم لها في الاحاطة بقوله : " وحقها أن يجعلها خدمة الملوك ممن ينسب الى نبل ، أو يلم بمعرفة ، مصحفا يدرسه وشعارا يلتزمه ". (١)

وأوردها المقّرى في نفحه ، وقال قبل ايرادها : " ومن كلام لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ـ رسالة في أحوال خدمة الملوك ، ومصائرهم ، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة ، بعيون بصائرهم ، عبّر فيها عن ذوق ووجدان ، وليس الخبر كالعيان ، وخاطب بها الامام الخطيب عين الأعيان ، سيدى أبا عبد الله ابن مرزوق ، وكأنه ـ أعني لسان الدين ـ أشار ببعض فصولها الى نفسه ، ونطق بالغيب في نكبته التي قادته الى رمسه ، وكان ذلك منه عندما أراد التخلي عن خدمة الملوك ، والتحلي بزينة أهل التصوف والسلوك ، فلم يُرد اللهُ أن تكون مهجته نائبة عن ساحة الظلمة ". (٢)

ويفتتح ابن الخطيب رسالته هذه بقوله : " سيدى الذى يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافأة ، ولم تختلف في مدحها الأفعال ، ولا تغايرت الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات ". (٣)

---

(١) مج / ٣ ص ١١٨ .
(٢) نفح الطيب مج / ٥ ص ١٤٥ .
(٣) السابق والصفحة.

ثم يدعو له بمثل قوله: " أطلقك الله من أسر كل السكون كما أطلقك من أسر بعضه ، وزهدك في سمائه الفانية وأرضه ".[1]

ويوضح له أنه متتبع لأخباره ، وأنه ـ أى ابن الخطيب ـ قد عرف أخيرا أن صديقه ابن مرزوق قد ترك العمل في الدولة المغربية ، وأن هذا الخبر قد أفرح ابن الخطيب ، وهنا يدعو لصديقه قائلا: " ونسأله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها ، وأول معارج نفسك التي تقر بها من الحق وتدنيها".[2]

ويعلق على دعائه هذا بقوله: " وكأني والله أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادتها ـ ولا حول ولا قوة الا بالله ـ لطبعك".[3]

ولذا يطلب من ابن مرزوق التنافر الى العقل حتى يتحقق من اخلاص ابن الخطيب له في هذه الدعوة ، فيقول مبديا عيوب الدنيا ومحللا ومفسرا ـ باسلوب استفهامي ملئ بالتحسر والتحقير ـ موقفه الجديد منها ، وهو موقف الزاهد المنصرف الى الله: " ليت شعرى ما الذى غبط

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) السابق ص ١٤٦ .

سيدى بالدنيا ، وان بلغ في زبرجها الرتبة العالية ، ونفرض المثال بحال اقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع جبالها ، ....، ....، ألتوقع المكروه صباحا ومساء ، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم الباساء ، ولزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤساء ".(١)

ويستمر بنفس الأسلوب ليكشف عيوب الوظيفة التي أسندت اليهما ، فيقول : " ألترتب العتب على التقصير في الكتب ، وضفينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنب ؟ ألنسبة وقائع الدولة وأنت بريء ، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرى ؟ ....، ....، ....، ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت اليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود ، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود ؟ ألقطع الزمان بين سلطان يعبد ، وسهام للغيب تكبد ، وعجاجة شر تلبد ، وأقبوحة تخلد وتؤبد ؟ ألوزير يُصانع ويُدارى ، ...، وعورة لا تُوارى ؟ ألمباكرة كل قرن حاسد ، وعدو مستأسد ، ....، وحال فاسد ؟ ألوفود تتزاحم بسدتك مكلفة لك غير مافي طوقك ، فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟ ألجلساء ببابك لا يقطعون زمان رجوعك وايابك الا بقبيح اغتيابك ، فالتصرفات تمقت ،....، والألاقي تُبث ، والسعايات تُحث ، ....، يعتقدون أن

---

(١) السابق والصفحة.

السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والأسير المأمور ، ليس له شهوة ولا غضب ، ... ، ولا موجدة لأحد كامنة ، وللشر ضامنة ، ... ، ... ، انما هو جارحة لصيدك ، وعان[1] في قيدك ، وآلة لتصرف كيدك ، وأنك علة حيفه ، ومسلط سيفه ".[2]

ويواصل جلاء هذه العيوب التي هي ضريبة النجاح والشهرة والتألق والجاه العريض ، ويبسط كل ذلك أمام صديقه ، بأسلوب يستخدم فيه كثيرا من وسائل الاقناع من خلال نظرة مجرب امتلأ قلبه غيظا من الناس والتعامل معهم ، فيقول : " الشرار يسملون عيون الناس باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة مِزق جسمك ، قد تنخلهم الوجود أخبث مافيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ، اذ الخِيِّر يستره الله تعالى عن العيون ويخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك ويولونك الملامة ، ويقتحمون عليك القول ، ويسدون طرق السلامة ، وليس لك في أثناء ذلك الا مالا يحوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه وذهاب صداعه ، من غذاء يُشبع ، وثوب يُقنع ، وفراش يُنيم ، وخديم يُقعد ويُقيم ".[3]

---

(١) العاني : الأسير.
(٢) نفح الطيب مج / ٥ ص ١٤٦ ، ١٤٧.
(٣) السابق ص ١٤٧.

ثم يتساءل في تحليل نفسي رائع ، مليء بالحزن والبث والشكوى : " وماالفائدة من فرش تحتها جمر الغضا ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلق عليه سيف منتضى ؟ واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول السقط الذى تعلم أنها فيه تهلك ، فكيف تنسب الى نبل ، أو تسير من السعادة في سبل ؟ وان وجدت في القعود بمجلس التحية بعض الأريحية ، فليت شعرى أى شيء زادها ، أو معنى أفادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد ، أو شعرت ببعض الايناس ، في الركوب بين الناس ، ماالتذت الا بحلم كاذب ، أو جذبها غير الغرور جاذب ، انما راكبك من يحدق الى الحلية والبزة ، ويستطيل مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسايرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمر الشر لك ولرئيسك ".(١)

وهنا يلخص النتيجة التي توصل اليها في صيغة استفهام فيقول : " وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويمشي اذا شاء وحده ".(٢)

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق والصفحة.

ثم يواصل حديثه المنطقي الذى ينم عن عقلية متزنه ، ويصدر عن أديب له نظرته الشاقبة ، وتجربته الصادقة ، وحسّه الانساني العظيم ، فيقول : " ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظه ، وهبه زهيدا ، ... ، لساغ الصاب ، وخفت الأوصاب ، وسهل الصاب ، لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية ، أمّا ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجرائر الضرائر[1] ولوم ، وأما يومه فتدبير ، ... ، وأمور يعيا بها ثبير[2] ، وبلاء مبير ".[3]

وبعد حديث طويل عن فناء الانسان ، وفناء ماجمع من مال ، ومابتنى من قصور وضياع ، يتساءل متحسرا : فهل في شئ من هذا مغتبط لنفس حرة ، أو مايساوى جرعة حال مُرّة ، واحسرتا للأحلام ضلت ، وللأقدام زلت ، وياليها مصيبة جلت ".[4]

ويصل من هذا الى توضيح السبب الذى دفعه للكتابة الى صديقه ، ثم يتوجه بالنصح المنبئ عن شدة المحبة ، وصدق الاخلاص ، فيقول : " الله الله ياسيدى في النفس

---

(١) ربما يقصد بالضرائر زوجه وعمله.
(٢) شبير اسم جبل .
(٣) نفح الطيب مج / ٥ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٤) السابق ص ١٤٨ .

المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهير الخير ، والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير ، ودع الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم ، وأخس لحوظهم ، وأقل متاعهم ، وأعجل اسراعهم ، وأقصر آناءهم".(١)

وهنا يستشهد بأبيات في نفس المعنى ، ثم يعود ليثبت صدق نظرته من خلال الاشارة الى نفسه ، واصفا حاله بعد أن زهد في الدنيا ، وفرّ منها كما يفر من الأسد على حد تعبيره.(٢)

ثم يقول : " ومع هذا ياسيدى فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود ، ويأخذها من غير اعتبار بحلها المذموم ولا المحمود" الى أن يقول: " فلما ألهمني الله لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفاء ، لمن لا يثبت عين الصفاء ، ... ، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها المنهمكين ، ... ، ... ، ... ، ويعلم أنها المومسة التي حسنها زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور ، تبين لي أنني قد كافيت صنيعتك المتقدمة".(٣)

وبعد ذلك يعود الى تحقير الدنيا وأهلها ، باسطا

---

(١) السابق ص ١٤٩.
(٢) راجع السابق ص ١٥٠.
(٣) نفح الطيب مج / ٥ ص ١٥٠.

القول في نهايتها بمثل قوله: "كل من تقع عينك عليه فهو حقير قليل، وفقير ذليل، لا يفضلك بشيء الا باقتفاء رشد، أو ترك غي، أشوابه النبيهة يجردها الفاصل، وعروة عزه يفصلها الفاصل[1] ....، ....، ....، ....، فالله منجز وعيده ووعده، فالاضراب الاضراب، والتراب التراب".[2]

ويخشى أن يعتذر ابن مرزوق عن ترك الدنيا ببعض الأعذار، ككثرة الولد، وقلة الصبر، فيقول له: "وان اعتذر سيدى بقلة الجلد، وكثرة الولد، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق، وبيده من التسبب مايتكفل باساك أرماق، أين النَّسخ الذى يتبلغ الانسان بأجرته في كنّ حجرته، لا بل السؤال الذى لاعار عند الحاجة بمعرته!! السؤال والله أقوم طريقا، وأكرم رفيقا من يد تمتد الى حرام!".[3]

ويختتم هذه الفقرة بدعاء يقول فيه: "اللهم طهر منها أيدينا وقلوبنا، وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا، وعرفنا بمن لا يعرف غيرك، ولا يسترفد الا خيرك، ياالله".[4]

وفي نهاية الرسالة يؤكد ابن الخطيب ثانية رغبته في

---

(١) الفاصل: ربما كناية عن الموت هنا.
(٢) نفح الطيب مج/٥ ص ١٥٠، ١٥١.
(٣) السابق ص ١٥١.
(٤) السابق والصفحة.

النصيحة لصديقه وصدق اخلاصه ، موضحا أن هذا كان شأنه ودينه في معاملة السلاطين والجبابرة أيام شبابه ، فكيف به والحال قد تغيرت ، وعلاه الشيب ، الى أن يقول: "وليست النفوس في القبول سواء ، ولكل مرض دواء ، وقد شفيت صدرى ، وان جهلت قدرى ، فاحملني — حملك الله تعالى — على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة ، والسلام ".[1]

والرسالة كما نرى طويلة جدا ، وهي نابعة من قلب حانق على الدنيا ، وقد استطاع فيها ابن الخطيب الانتقال من خصوصية الموضوع — كرسالة أخوانية — الى عموميته لترقى الى مرتبة الرسائل الأدبية.

وقد امتازت بالبناء على السجع ، وانتقاء الألفاظ السهلة البسيطة — غالبا — مما طبعها بالسلاسة والسهولة والوضوح .

كما امتازت بسمو أفكارها ومعانيها ، ومنطقيتها وعقلانيتها ، فجاءت قطعة رائعة من أدب المكاشفة والافضاء بما في النفس.

وهي عبارة عن شكوى وبث صيغت في قالب نصح ، معبرة

---

(١) السابق ص ١٥٢.

عن صدق التجربة ، وصحة الفكر ونفاذ النظرة ،واستطاع فيها ابن الخطيب من خلال قوة الأسلوب أن يبسط ويحلل المعاني التي يحسها ، مستخدما في ذلك وسائل الاقناع ، والتأكيد والشواهد ، والتعليلات.

... ...

٢ - بعض ماأدخله في باب المقامات ، وان التزمت شكل المقامة من حيث البناء الفني ، الا أنها من حيث المضمون تعد من الرسائل الأدبية ، كرسالة السياسة ، وكتاب الاشارة في أدب الوزارة.(١)

والحق أن هاتين الرسالتين ، وخاصة الأولى منهما ، من أرقى ماكتب ابن الخطيب ، اذ يعدان خلاصة تجربته العميقة في هذا المجال.

وتمتاز الرسالتان بالاسهاب والاستقصاء والشرح ، وهذا لا يعدّ عيبا فيهما اذ أن الموضوع الذى طرقه فيهما يستحق الاطالة والايضاح ، غير أن مايعيبهما أنه اتخذ في بنائهما شكل المقامات ، ولو أنه تناول فيهما الموضوع على طريقة الرسائل الأدبية كما في رسائل الجاحظ مثلا ، لكانتا أولى بالقبول.

---

(١) عرضت لهاتين الرسالتين في فصل المقامات.

وأخيرا فان ابن الخطيب مقل في باب الرسائل الأدبية ، اذا ماقيست بالفنون النثرية الأخرى التي كتب فيها ، كالسلطانيات والأخوانيات والتراجم والتاريخ .

...   .
...   ...
...

الفصل الرابع
(الدعـــابة والفكاهـة)

الدعـــابة والفكاهــة

المزاح ، والمداعبة والدعابة ، والتفكه والفكاهه ، كلها معان متقاربة ، فطبيعة النفس البشرية تمل من الجد ، فترتاح أحيانا الى شيء من المزاح المسلي . يقول الجاحظ: "وللضحك موضع، وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جاوزهما أحد،أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا ، والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزاح الا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذى جعل له الضحك ، صار المزاح جدا ، والضحك وقارا".(١)

والمزاح والفكاهة تثير الضحك ، وهو ظاهرة طبيعية يمتاز بها الانسان عن سائر المخلوقات ، وتأتي اثارة الضحك للانسان ، اما من منظر يراه ، أو حديث يسمعه .

اذن فالمثير اما أن يكون حركة مقصودة كما يفعل ممثلو السيرك أو المسرح أو بعض الناس خفيفو الظل ، أو تكون غير مقصودة ، وهي في هذه الحالة تكون اما مؤلمة لمن تقع له ، وعن هذا النوع قيل قديما (شر البلية مايضحك) ، أو تكون غير مؤلمة وهذه قد تضحك حتى الشخص الذى وقعت له .

وقد يكون المثير أو المضحك كلمة يسمعها الشخص فلا يملك الا أن يضحك ، وتختلف الفكاهة القائمة على الكلمة من حيث القوة

---

(١) البخلاء ، ص ٧ .

والضعف باختلاف عناصرها التي تقوم عليها وباختلاف الأشخاص الذين يروونها ، فقد تأتي طرفة باردة من شخص خفيف الظل فيكون لها وقع أكبر من وقع طرفة رائعة تصدر عن شخص لم تعرف عنه خفة الروح .

كما أنها تختلف باختلاف المتلقي فقد تجد شخصا يضحك لأتفه الأسباب وآخر قطوب عبوس تمر عليه الشهور دون أن تفتر شفتاه عن بسمة .

وتختلف أيضا باختلاف نفسية المتلقي الواحد فلو أسمعت شخصا منبسط الأسارير طرفة لوجدت لها وقعا يختلف عن وقعها لو ألقيتها له وهو في حالة عبوس أو غضب .

وكما تختلف الفكاهة من حيث عناصرها ومن حيث الملقي والمتلقي تختلف أيضا من حيث هدفها ، فهناك فكاهة تهدف الى مجرد الامتاع والتسلية ، وأخرى تهدف الى الامتاع مع التوجيه والنقد والتقويم بأسلوب غير مباشر ، وثالثة هدفها الهجاء والشتم بأسلوب ساخر .

وعناصر الفكاهة القائمة على الكلمة كثيرة جدا فهناك فكاهة تقوم على خلط الهزل بالجد أو تعظيم الحقير وتهويله ، وأخرى تقوم على وصف المناظر المضحكة ، وثالثة تقوم على ذكر الألفاظ المستهجنة كذكر ألفاظ المناكح والتصريح بها ، وهناك فكاهات تقوم على ذكر بعض النوادر القائمة على المفارقات المنطقية والمغالطات اللغوية ، وما الى ذلك .

وثمة نوع آخر من الفكاهة يقوم على السخرية ، وهذه السخرية امّا أن تكون ممزوجة بشيء من الودّ والاشفاق ، أو تكون ممزوجة بنوع من القسوة والتهكم ، أو تكون ممزوجة بالحقد وحبّ الانتقام.

وعن الفكاهة القائمة على السخرية يقول الدكتور شوقي ضيف: (والسخرية أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر ، وهي لذلك أداة دقيقة في أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات ، ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهي حينئذ تكون لذعا خالصا ، وقد تستخدم في رقة وحينئذ تكون تهكما اذ يلمس صاحبها شخصا لمسا رقيقا).(١)

ويختلف أيضا السخر من حيث الشخص أو الضحية أو الفئة الموجّه اليها ، فقد تسمح هذه الفئة بشيء من السخر الجارح في حدود معينة ، ولكنها قد تستاء من السخر المتوغل.

وفي بعض الأحيان يرغب الساخر في اضحاك الآخرين على نفسه ولكن أيضا في حدود تختلف من شخص لآخر ، فالجاحظ مثلا يضحكنا من نفسه في قصته المشهورة مع المرأة والصائغ ، ويضحكنا في مثل قوله عن نفسه (نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى ؟ فقالوا بأبي عثمان) (٢) ، فالواقعة ربما ليست صحيحة ولكن نفسية الجاحظ المرحه وروحه الساخر تجعله يسخر حتى من نفسه ولكن في حدود لاتصل الى الحماقه.

---

(١) الفكاهة في الأدب العربي الى نهاية القرن الثالث الهجرى ص٣٥.
(٢) معجم الأدباء ج/١٦ ص ٧٥.

وقد درس بعض الباحثين الضحك من ناحية سيكولوجية ونفسية وأطالوا الحديث فيها ، وحاولوا معرفة هدف الضحك من حيث تقويته وتنشيطه للنفس البشرية ، كما حاولوا تحليل عناصر الشيء المضحك ، وأشهر من تناول هذا الموضوع (هنرى برجسون) حيث وضع كتابا في الضحك يشتمل على دراسة اجتماعية وأخلاقية خصبه للضحك والمضحك ، وهو في بداية كتابه هذا يقرر أن الانسان حينما يضحك انما يضحك بعقله وليس بقلبه ولا شعوره [١]، وقد يكون ذلك صحيحا ، فثمة مناظر مؤلمة وموسية لو نظرنا لها من جهة الوجدان والعاطفة بينما هي تضحكنا ، ذلك لأننا نستبعد العاطفة أثناء الضحك ، فمثلا لو رأينا رجلا في جو ممطر يحاول الهروب من المطر فيسقط في غدير من الماء مثلا ، أو عجوزا تتثاءب فلا تستطيع بعد ذلك اغلاق فمها الا بعد عملية جراحية ، قد تثير مثل هذه الحوادث فينا الضحك ، ولكنها مؤلمة لمن تقع لهم حيث توقعهم في حرج وربما آلام نفسية وجسدية.

هذا وقد عرفت الدعابة والفكاهة و الطرفة في الأدب العربي شعره ونثره قديما وحديثا ، وهدفها من ذلك امّا الامتاع والتسلية فقط ، وامّا الامتاع على التوجيه والتقويم والنقد بأسلوب غير مباشر ، واما الهجاء والشتم باسلوب ساخر.

---

(١) انظر: الضحك: هنرى برجسون ، ترجمة سامي الدروبي وآخر ، ص ١٥.
النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، ص ٢٦٥.

وربما كان أكثر من أولع بالفكاهة في الأدب العربي ، وكانت من أبرز خصائصه الفنية في النثر أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، فقد كان يدخل في طيات كتبه كثيرا من النوادر والطرف لتنشيط القارئ وامتاعه وابعاد السأم والملل عنه.[١]

وقد أولع كثير غيره من كتاب العربية بالدعابة والفكاهة ، وكتبوا فيهما سواء في مشرق العالم العربي أو في مغربه.[٢]

ولعل من أشهر الكتاب الفكهين في الأندلس ابن شهيد المتوفي سنة ٤٢٦ هـ ، وهناك كتاب أندلسيون آخرون كتبوا في هذا الفن أيضا ، من ذلك ابن زيدون المتوفي سنة ٤٦٢هـ صاحب الرسالة الهزلية ، وابن برد الأصغر المتوفي سنة ٤٤٠هـ ، وأبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفي سنة ٤٣٨ هـ ، وابن عمه الفقيه أبو محمد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ ،[٣] ومن هؤلاء أيضا الوزير ابن الخطيب موضوع دراستنا ، فقد كتب عدة رسائل في الدعابة أورد أكثرها في كتابه ريحانة الكتاب في باب أسماء (كتب الدعابات والفكاهات).[٤]

وفي هذا الباب جمع ابن الخطيب رسائل الدعابة التي بعثها الى بعض اخوانه وأصدقائه وثقاته وهي على الترتيب في

---

(١) راجع : النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، ص ٢٦٠ ومابعدها .
(٢) انظر : النثر الفني في القرن الرابع ج/١ ص ١٦١ .
الفكاهة في الأدب العربي ، ص ٢٦١ ومابعدها .
الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص ٥٩٣ .
(٣) راجع: ملامح التجديد في النثر الأندلسي ، ص ٤٤٣ .
(٤) ريحانة الكتاب مج /٢ ، ص ٢٢٦ .

الريحانة:

١ - رسالة لأبي زيد بن خلدون بمناسبة اعراسه برومية ، وقد أورد ابن الخطيب هذه الرسالة في الاحاطة ،[(١)] كما أوردها المقّرى في نفح الطيب.[(٢)]

٢ - رسالة خاطب بها أبا اسحق بن الحجاج على لسان قاضي غرناطة ابن أبي الحسن.

٣ - رسالة بعثها هو الى ابن الحاج السالف الذكر ، وقد أوردها في الاحاطة.[(٣)]

٤ - رسالة الى من تزوج قينته ، وقد أوردها في نفاضة الجراب.[(٤)]

٥ - رسالة الى أحد الأطباء.

٦ - رسالة الى ابن جبور والى مكناسة ، وقد أوردها في نفاضة الجراب.[(٥)]

٧ - رسالة الى الوزير أبي بكر من الحكيم ، وقد أوردها في الاحاطة.[(٦)]

٨ - رسالة الى أبي عبدالله اليتيم ، وقد أوردها المقّرى في نفح الطيب.[(٧)]

٩ - رسالة الى أحد المنتحلين صنعة الحجامة.

١٠- رسالة الى أبي جعفر بن سليمان القرشي ، وسنتركها نظرا لقصرها وعدم وضوحها ، وله في فن الدعابة أيضا رسالتان لم يوردهما في الريحانة:

---

(١) مـج / ٣ ص ٥٠١.
(٢) جـ/ ٦ ص ١٧٤.
(٣) مـج / ١ ص ٣٥١.
(٤) ص ٢٠٣.
(٥) ص ٢١٢.
(٦) مـج / ٢ ص ٢٧٥.
(٧) جـ/ ٦ ص ٩٢.

الأولى : رسالة بعث بها الى أبي عبد الله ابن الغفار اليسرى ، وقد أوردها في الاحاطه[1] ، عند ترجمته لحبيب بن محمد بن حبيب.

الثانية: رسالة بعث بها الى محمد بن قاسم الأنصارى ، وقد أوردها في الاحاطه[2] ، كما أوردها أيضا المقرى في نفح الطيب.[3]

وسنحاول في الصفحات القادمة استعراض كل رسالة من هذه الرسائل على حدة.

الرسالة الأولى :

بعثها الى ابن خلدون صاحب المقدمة المشهورة ، وقد أوردها في الاحاطة[4] ، كما أوردها المقرى في نفح الطيب[5] ، ومناسبة الرسالة أن ابن خلدون اشترى مولدة من بنات الروم تدعى هند ، وأعرس بها ، فأرسل اليه ابن الخطيب هذه الرسالة صبيحة ابتناء ابن خلدون بجاريته.

وبنى هذه الرسالة على التلويح بالمعاني الخفية ، ومايكون بين المرء وحليلته ، وبعض أبياتها فيه تصريح بما ينبغي ستره

---

(١) مج / ١ ص ٤٨٨.
(٢) مج / ٣ ص ١٩٧.
(٣) جـ/ ٦ ص ١٦٨.
(٤) مج / ٣ ص ٥٠١.
(٥) مج / ٦ ص ١٧٤.

من ألفاظ المناكح ، وهذا مايمنع من ايراد نصوصها واستعراض عناصرها .

الرسالة الثانية:

بعثها الى أبي اسحق ابن الحاج النميرى ، على لسان قاضي غرناطة (أبي الحسن النباهي) ، والرسالة تقع في صفحة ونصف الصفحة ، وابن الحاج هذا أحد الذين ترجم لهم ابن الخطيب في الاحاطة ،[1] وقال عنه : "كان مليح الدعابة طيب الفكاهة "،[2] وذكر ضمن تواليفه كتابا اسمه (المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة) ، وذكر أيضا أنه ولي القضاء قرب غرناطة.

ومناسبة الرسالة أن ابن الحاج بعث الى أبي الحسن النباهي رسالة ، فراجعه ابن الخطيب على لسان النباهي برسالته هذه ، وهو يفتتحها بقوله : " سيدى جعل الله أكوار العمائم تتضاءل لكور عمامتك ، والنفوس الطامحة الهمم على اختلاف الأمم ، تقر بوجوب امامتك ، . . . . ، . . . ، وصلتني رسالتك التي أخبت[3] في ميدان البلاغة فأوضعت ، وأخلاف الفنون ارتضعت . . . ، . . . ، واستولت العين من الخط على الحسن البعيد الشط . . ".[4]

ثم يستمر في حديثه المسجع الى أن يقول : " وماضر سيدى

---

(١) مج / ١ ص ٣٤٣ .
(٢) الاحاطة مج / ١ ص ٣٤٦ .
(٣) أخبت : جرت.
(٤) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٣٢ .

والله يقيه الضر ، ويحفظ منصبه الحر ، وبحره الذى يقذف الدر ، أن لو ضاعف الطول ، وجمع الفعل والقول ، فوجه مع الكتان ، مايثقل ظهر الأتان ، ومن الزيت مايملأ ركن البيت ، ومن الدجاج والعسل المجاج ، مايتكفل بصلاح المزاج ، ....، ...، فجانب الورع عن هدية سيدى لا يضيق ، فهو الرفيق الشفيق ، والعدل الذى وضح من فضله الطريق ، وأما أن لا يكون حظ وليه الا نقر لا تدفع فقرا ، وألفاظ لا تذهب وقرا ....، فأمر ينكر على المجادة التميمية ".(١)

وهكذا الى أن يختم الرسالة بقوله : "والله يبقي سيدى للقضاة زينا ، وفي العلماء عينا ، ...، والسلام عليه ما استميح جواد ، وأطرف بالفكاهة فؤاد ".(٢)

... ...

والرسالة من حيث الأسلوب تعتمد أيضا على السجع ، وتخلو من الاقتباس ، والتضمين .

وهي تعد من الرسائل الأخوانية ، وليست كبيرة أهمية الا من حيث أنها توضح بعض جوانب ابن الخطيب ، وقدرته على توليد الدعابة الرقيقة التى لا تهدف الا لمجرد الامتاع ومؤانسة الصديق .

... ...

---

(١) المصدر السابق ص٢٣٣ ،وقوله التميمية: اشارة الى أن الحاج النميرى من تميم .
(٢) المصدر السابق والصفحة.

الرسالة الثالثة:

بعثها الى أبي الحجاج السالف الذكر ، وهي تقع في ثلاث صفحات ، ومناسبتها أن ابن الحاج بعد توليه القضاء شغل عن مراسلة اخوانه ، فبعث ابن الخطيب برسالته هذه يداعبه فيها ، ويعاتبه على انقطاعه ، وقد افتتح الرسالة ببيتين من الشعر يقول فيهما :

"يا قاضي العدل الذى لم تزل .·. تمتار شهب الفضل من شمسك
قعدت للانصاف بين الورى .·. فاطلب لنا الانصاف من نفسك"[١]

ثم يقول : " ماللقاضي ـ أبقاه الله ـ ضاق ذرع عدله الرحب عن الصحب، وصم عن العتب ، وضنّ على صديقه حتى بالكتب"[٢] .. الى أن يقول : "وهب البخل يقع بما في الخوان ، فما باله يقع بالبنان"[٣].

وعلى هذا النحو من الحديث يستمر في مداعبته ، ويرسم صورة ساخرة للقاضي ، وقد لبس أحسن الثياب ، وتطيّب " من بعد ماأوقف الآملين الحجابُ على أقدامهم ، وكفهم الخذلان عن اقدامهم ،فمثلوا واصطفوا ، وتألفوا والتفوا .... ، .... ، كأنما أسمعتهم صيحة النشر ، أو خرجوا لأول الحشر"[٤].

ويستمر في رسم الصورة حيث يأتي القاضي ويجلس ، ويقف

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .
(٣) المصدر السابق ، والصفحة.
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

الأعيان حوله " يعلنون بالتفدية ، ويجهرون ، لا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون "(١) ثم يأتي الخصوم فيدلي كل منهم بحجته ، وهنا يلمز الى انشغال القاضي بعمله ، وبما يهدى له ، أو يرشى به " من كبش يجر تارة بروقيه ، ويدفع بعد رفع ساقيه ، ومعزى وجدي ، وقلائد هدي ، وسرب دجاج ذوات لجاج ".(٢)

ثم يتساءل كيف يفرغ القاضي لمكاتبة الأخوان ، وهو منشغل غاية الانشغال ، فيقول : " فمتى يستفيق سيدى القاضي مع هذا اللغط ، . . . ، أو تتفرغ يده البيضاء لاعمال ارتياض ، وخط سواد في بياض ".(٣)

وأخيرا ينهي ابن الخطيب رسالته بخاتمة طريفة يقول فيها : "والمرغوب من سيدى القاضي أن يذكر بؤسنا . . . عند نعيمه ، . . . ، ويسهمنا حظا من فوائد خطه ، لا من فوائد خطته ، . . . ، . . . ، فقد غنينا عن الحلاوات بحلاوة لفظه ، وعن الطرف المجموعة بفنون حفظه ، وعن قصب السكر بقصب أقلامه "(٤) الى أن يقول : "والا فلابد أن نحشد جيش الكلام الى عتبه ، ونوالي الكتائب ، حتى يتقي بضريبة كتبه ، والسلام ".(٥)

والرسالة طويلة جدا ، يصوغها ابن الخطيب على السجع ،

---

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .
(٣) المصدر السابق والصفحة.
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

ويستخدم أحيانا الجناس الناقص ، كقوله : "والمرحلة مرحلة ظالع وخامع ،[١] ومطمع طامع ، ومرأى راء ، وسمع سامع ، والكنف واسع ، والمكان لا ناء ولا شاسع ، والضرع حافل ، والذرع كاف كافل ، والقريحة وارية الزند ، والامامة خافقة البند ".[٢]

... ...

الرسالة الرابعة:

ويبدو أن هذه الرسالة ليست موجهة الى شخص معين ، وانما هي من نوع المقالة الاجتماعية ، أو النقد الاجتماعي الهادف ، وهذا يتضح لقارئ الرسالة من تقديم الكاتب حيث يقول : "ومن ذلك ــ أى من رسائل الدعابة ــ ماصدر عني في سبيل الدعابة فيمن تزوج قينته".[٣] فهو هنا لا يحدد شخصا بعينه .

كما يتضح ذلك أيضا من نص الرسالة ، ففيها من الاشارات والسخرية الجارحة مالا يصح أن يقال عنه ان ابن الخطيب وجهها لشخص معين ، وانما هي رسالة في النقد الاجتماعي بناها ابن الخطيب على السخرية والاستهزاء بمن تزوج قينته ، وقد وردت هذه الرسالة في نفاضة الجراب.[٤]

---

(١) الظالع والخامع: أى الأعرج ، وهي كناية عن قرب المسافة بين ابن الحاج والنباهي .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

(٤) ص ٢٠٣ .

ويفتتح ابن الخطيب رسالته هذه بتمهيد يبين فيه ـ على سبيل التهكم والسخر ـ أنه كان يغبط هذا الشخص الخليع على خلاعته ومجونه ، وعدم مبالاته حتى لو قامت الساعة ، ذلك لأن الانسان ينبغي له أن يستمتع بيومه ، لا أن يفخر بشرفه وقومه ، وأن يقضي وقته في متعة خالصة ، ولا يبالي بمقت الناس له ، يقول : " كنت أغبطك ـ أعزك الله ـ بتسويغ اللذات ، وتسني طيب الحياة ، ولبس خلع الخلاعة ، ولو قامت الساعة ، فانما الانسان بيومه لا بقومه ، وبوقته لا بالمبالات بمقته ".[1]

ثم يدعو لهذا الشخص ، وهو في الواقع يدعو عليه ، يقول : " وأدعو الله أن يجزيك أجرتك ، ويتقبل هجرتك ، . . . ، ويعطف على محلّك قلوب الفتيان ، ويدعو بهم للاتيان ، ويقطع بشهرة قينتك حظوظ القيان ، ويسلبك الغيرة التي تفسد العشرة ".[2] ويستمر على هذا النحو من عكس الحقائق بأسلوب ساخر لاذع الى آخر الرسالة.

وأخيرا يختمها بقوله : " فأقسم عليك ياسيدى أن لا تغفلنا من بالك ، . . . ، وأسهمنا في فضل تجارتك ، . . . ، واضرب لنا بحظ عند قسم مافي طبخارتك ، والسلام ".[3]

. . .   .

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٣٧ .
(٢) السابق والصفحة.
(٣) السابق ص ٢٤٨ .

الرسـالة الخامسـة :

بعث بها الى طبيب ، ولم يذكر اسما ، فربما تكون كسابقتها ، أى أنها ليست موجهة الى شخص معين ، وانما هي من نوع مقالات النقد ، يعرض فيها بالأطباء .

وفي هذه الرسالة يسخر ابن الخطيب من بعض أصدقائه الأطباء ، فهم يجتمعون حوله ، ويقضون يومهم معه ، يتناقشون في أمور الطب ، ولا يحاولون علاجه ، أو السؤال عن صحته ، رغم ظهور أعراض المرض والضعف عليه .

يقول في مستهلها : " أبثك يا أحب الأحباء ، أظرف الأنباء ، من حديث الأطباء ، ذلك أن لي أياما ثلاثة ، أعاني ماأعاني ، . . . ، فأما قوتي فواهية في درجات الضعف متناهية ، . . . ، وأما آلام الفؤاد فما أدريك ماهيه ، فاذا دخل القوم ـ أى الأطباء ـ حيوا وقعدوا ، وصوبوا في الهذر وصعدوا ، وربما امتد طوع تعديهم ، الى تناول الرقاع والكراريس بأيديهم ، يدرسون أسطارها سرا ، . . . ، ويكبون عليها اكبابا مستمرا ، فاذا ملّوا نهضوا على جادة أخرى واستقلوا ، فأفاضوا في التوراة والزبور ، . . . ، وغير ذلك من فضول الأمور ، ولقد أتحامل الى الخلاء والضعف ظاهر الاستيلاء ، . . . ، . . . ، الى أن ينتصف اليوم ، . . . ، فحينئذ يتحرك القوم ، ووالله ماأعملوا في العلاج قولا ، ولا نظروا ، . . . ،[1] ولا تعدوا ، ولا شعروا هل أنا مريض أم لا ؟ ".[2]

---

(١) كلام مستهجن جدا .

(٢) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٣٨ .

ثم يعتب عليهم في آخر الرسالة فيقول : " وان قالوا قد ركسني ، وأنت عن نظرنا غني ، فأنا أغنى عن الزيارة مني الى العلاج ، ... ، قدرت لك عذرى لتقوم فيه بحجتي ، وايضاح محجتي ، لا زلت متحليا من الانصاف بأجمل الأوصاف ".[١]

... ...

الرسالة السادسة :

بعثها الى ابن جبور والى مكناسة ، ومناسبتها أن ابن الخطيب كان قد نزل بجوار مكناسة ، فلم يجد من واليها مايستحق من كرم ، رغم ماعرف به ذلك الوالي من نبل وجود ، فبعث اليه بهذه الدعابة .

يقول في مفتتحها : " شاع ـ أعزك الله ـ على ألسنة أصحابك ممن عرف نبله وعقله ، وصحّ في الأخبار نقله ، أنك جواد الوقت ، الآمن المقت ، ... ، ... ، ومأى الضيف ، في الشتاء والصيف ، وأنا ماعلمت ضيف الكرام حيث حللت ، ونزيل الأجواد متى نزلت ، أرحل عنهم ، والثياب تضيق بها العياب ، ... ، والصرر قد أشرقت منها الغرر ، حرصا على ثناء يخلد ، ومعنى يقلد ، ... ، ... ، فبت بجوارك ليلتين ، أكلت فيهما من زادى ، وشربت من ماء الوادى ، وجعلت الأرض مهادى ، وطال لأجل البراغيث

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

سهادى"[١]. الى أن يقول : " فخاطبتك ـ أعزك الله ـ مخاطبة من يغار على شهرة جودك ، والحكم لك بالثناء قبل وجودك ، فاما أن يقع الصلح على ضريبة قريبة ، ويرتفع عن وجه المجادة الريبة ، أو يكذب النقل ، ويكون قرى ضيفك الماء والبقل ، اللهم الا أن يكون قبولك خاصا بمن راق خده ، وحسن قده ، وتبلبلت نظرته ، وأخجلت البدو[٢] غرته ، فحظنا لديك الخيبة"[٣]

ويختم رسالته بنهاية لطيفة يعتذر فيها للوالي عن دعابته فيقول : " وعلى كل حال فشكرى لشكر الخلق فيك تبع ، وان لم يقع في جوارك رىّ ولا شبع ، وثنائي جميل ، وان لم يقض من برك تأميل ، وما ألممت به انما هو دعابة ، تخف على أهل النبل ، ومن يسلك من التظرف أوضح السبل ، والله يمتع بعد بلقائك ، ويجلي غرر الفضل من تلقائك والسلام"[٤].

والرسالة تمتاز بروح الدعابة اللطيفة التي ليس فيها سخر أو جرح ، وانما هي رسالة صديق لصديق ، كما تمتاز بسلاسة الأسلوب ، والسجع فيها من النوع الذى لا يثقل على القارئ أو السامع.

---

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) أظنها (البدر).
(٣) ريحانة الكتاب مج/٢ ص ٢٤٠.
(٤) المصدر السابق والصفحة.

الرسالة السابعة :

وجهها الى الوزير أبي بكر بن الحكيم ، وقد ترجم له في الاحاطة[١] ، ومناسبة الرسالة أن ابن الحكيم قد بعث بهدية الى ابن الخطيب ، ولكن الهدية لم تكن ذات قيمة ، فبعث ابن الخطيب رسالته الى صديقه ابن الحكيم يداعبه فيها ، ويفتتحها ببيتين من الشعر ، يقول فيهما :

" ألام على أخذ القليل وانما .·. أعامل قوما هم أقل من الذرّ
فان أنا لم آخذه منهم فقدته .·. ولا بد من شيء يعين على الدهر "[٢]

ثم يقول : " سيدي ، أطلق الله يدك بما تملك ، وفتر عن مخنقك البخل لئلا تهلك ، كنت قد هومت[٣] ، وزجرني النوم فتلومت[٤] ، ونومي ماعلمت سني الخلال ، عزيز الوصال[٥] ، ... ، ... ، واذا الباب يدق بحجر ، دقا ينبه[٦] عن ضجر ، ... فقمت مبادرا ، وجزعت وان كان الجزع مني نادرا ، واستفهمت من وراء الغلق ، عن سبب هذا القلق ، واستعذت برب الفلق ، فقالت امرأة من سكان السواد ، ورابطة الفؤاد ، : ياقوم ، رسول خير ، بأيمن طير ، وقرع ادلال لا قرع اذلال ، ... ، ... ، ... ، ونظرت الى رجل قرطبي الطلعة والأخلاق ، ... ، تنهد قبل

---

(١) مج / ٢ ص ٢٧٢ .
(٢) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٤٠ .
(٣) هوم الرجل : هز رأسه من النعاس.
(٤) التلوم : الانتظار والمكث.
(٥) يشير هنا الى ماعرف عنه من الأرق.
(٦) هكذا ، وأظنها (ينبئ) .

أن سلم ، وارتمض لما ذهب من الشبيبة وتألم . . ".[١]

ويستمر على هذا النحو من الحديث المسجوع واصفا هذا الطارق ، وكيف أن مرسله قد حمله حمولا شتى ، ولم يدع عضوا من جسده ، فضلا عن منكبه ويده ، الا أعلقه وعاء ثقيلا ، ويجلس هذا الرجل ، كالكمي[٢] ترك المعترك ، وعلت حوله تلك الأثقال ، وكثر بالزقاق القيل والقال ، ثم تختبر الهدية ، فيبين قصورها ، اذ هي فقط " قعب من اللبن المذوق ، الذى لا يستعمل في البيوت ولا يباع في السوق"[٣]، ويصف ابن الخطيب هذا اللبن بأوصاف هي غاية في الدقة ، ثم يتحول الى " قفة قد خيطت ، وبعنق ذلك البائس قد نيطت ، رمس فيها أفراخ من الحمائم".[٤]

ويستمر على هذا المنوال في السخرية من الهدية ، الى أن يقول : " ولولا أن أحد[٥] الدجاجتين لاحت عليها مخيلة سرو ، وكانت من بقايا ديوك مرو[٦] ، . . . . ، . . . ، لم يكن في الهدية مايذكر ، ولكانت مما ينكر".[٧]

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١.
(٢) الكمي : الرجل المسلح .
(٣) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤١.
(٤) المصدر السابق والصفحة.
(٥) هكذا وردت ، والصحيح (احدى الدجاجتين) .
(٦) مرو مدينة فارسية اشتهر أهلها بالبخل ، وزعم الجاحظ أن البخل طبيعة حتى في أرضها وديوكها ودجاجها .
(٧) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٢.

وبعد ذلك يعود للاعتذار على شاكلة قوله :" واستغفر الله فلو لم تكن التحفة الا تلك الأكولة العاطرة ، ... ، للزم الشكر ووجب ، ... ، ... ، والمكارم وان تغيرت أنسابها ، وادّعي ارثها واكتسابها ، اليكم تشير أيديها ، ... ، ... ، وعلى أرضكم تسح غواديها ، ومثلي ــ أعزكم الله ــ لا يغض من قدر تحفكم الحافلة ، ولا يقعد من شكرها عن فريضة ولا نافلة ، ولكنها دعابة معتادة ، وفكاهة أصدرتها ودادة ، ولا أشك أنكم بما جبلتم عليه من محبتي قديما وحديثا ، ... ، تمهدون جفائي في جنب وفائي ، ...".[1]

والرسالة تقع في أكثر من صفحتين ، ولم يذكرها ابن الخطيب كاملة ، بل ذكر الجزء الذى استعرضناه ، وقال عنها بعد ذلك (وهي طويلة) .

... ...

الرسالة الثامنة :

بعثها الى أبي عبدالله اليتيم[2] ، ومناسبتها أن ابن الخطيب عند تأليفه لكتاب التاج المحلى ، أرسل اليه يسأله من شعره مايثبته له في كتاب التاج ، فأرسل أبو عبدالله قصيدة رقيقة يمدح فيها لسان الدين يقول منها :

---

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) عرف به ابن الخطيب في الجزء المنقول من التاج المحلى في ريحانة الكتاب ، مج / ٢ ، ص ٣٦٦.

"أنت الحبيب الذى لم أتخذ بـدلا .·. منه وحاشا لقلبي من تقلبه
ياابن الخطيب الذى قد فقت كلسنا .·. أزال عن ناظرى اظلام غيهبه"(١)

فـرد عليه ابن الخطيب بهذه الرسالة يقول في مفتتحها :"ياسيدى الذى اذا رفعت راية ثنائه تلقيتها باليدين ، واذا قسمت سهام وداده على ذوى اعتقاده ، كنت صاحب الفريضة والدين"(٢) . . الى أن يقول مبينا شدة اعجابه بكلام أبي عبد الله خالطا ذلك بشئ من المديح : " لم أزل ــ أعزك الله ــ أشد على بدائعك يد الضنين ، واقتني درر كلامك ،ونفثات أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلقائك تعد ولا تسعد "(٣).

ثم يصف بعد ذلك كيف كثرت رسائل أبي عبد الله بعد انقطاع ، ومافي الرسائل من روعة بيان ، فيقول : " وفي هذه الأيام انثالت علي سماؤك بعد قحط ، . . . ، وزارتني من عقائل بنانك ، كل فاتنة الطرف ، عاطرة العرف ، رافلة في حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت لها العرب العاربة بالاعجاز ، ماشيت من رصف المبنى ، ومطاوعة اللفظ المعنى "(٤).

ويشير بعد ذلك الى رقة مديح مراسله في شئ من الظرف

---

(١) نفح الطيب مج / ٦ ، ص ٩٢ .
(٢) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
(٤) المصدر السابق والصفحة .

والمداعبة ، يقول : " غير أن سيدى أفرط في التنزل ، وخلط المخاطبة بالتغزل " [١] .. الى أن يقول : " فأقسم بألفات القدود ، وهمزات الجفون السود ، وحاملي الأرواح مع الألواح [٢] بالغدو والرواح ، لولا بعد مزارك ، ماأمنت غائلة ماتحت ازارك " [٣] .

ثم ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن حرفة التكتيب والتعليم ، وهي الحرفة التي كان يحترفها أبو عبد الله اليتيم ، فيمتدحها في شيء من الغمز مع الاشارة الى رأى الجاحظ فيها ، فيقول : " وتعرفت ماكان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، ... ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وان لاحظ الملاحظ ، ماقال الجاحظ ، فاعتراض لا يرد ، وقياس لا يطرد ، حبذا والله عيش أهل التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان ، ومشاهدة الصور الحسان ، يمينا ان المعلمين لسادة المسلمين " [٤] .

ثم يستمر في الحديث عن المعلمين ، وهنا يرسم صورة ساخرة لمعلمي الكتاتيب ، وكيف أن أحدهم " يغدو الى مكتبه ، كالأمير في موكبه ، حتى اذا استقر على فرشه ، واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالونه وورشه [٥] ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى بالجبال وقارا ، ورفعت اليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم

---

(١) المصدر السابق ، والصفحة.
(٢) تورية اذ معناها القريب الملائكة ، والبعيد ، طلاب وطالبات الكتاتيب.
(٣) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٥) قالون وورش من القراءات.

فتقول كسرى في ايوانه ، أو الرشيد في زمانه ، أو الحجاج بين أعوانه"[١] .. الى أن يقول : " فأى عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه اليه مصروفة ، فان أشار بالانصات ، .... ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولاءم بين الشفاه ، وان أمر بالافصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحُفّ به كما حَفّ بالبيت الحجيج".[٢]

وهنا يشير في شئ من الظرف الى أمر ربما كان يحدث في بعض الكتاتيب ، حيث يقول : "وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتجهز".[٣]

وأخيرا يختتم ابن الخطيب رسالته بالدعاء لأبي عبد الله ، مع الاعتذار عن هذه المداعبة ، فيقول : " هنأ الله سيدى ماخوله ، وأنساه بطيب آخره أوله ، وقد بعثت بدعابتي هذه ، مع اجلال قدره ، والثقة بسعة صدره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها في المجلس بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتا ، من أوقاته ، عملا بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام".[٤]

... ...

والرسالة تقوم على السجع أيضا ، ويستخدم ابن الخطيب

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر السابق والصفحة .
(٣) المصدر السابق والصفحة .
(٤) المصدر السابق والصفحة .

أحيانا فيها السجع المركب ، وتمتاز بالسلاسة وسهولة الألفاظ ، والسجعة فيها تأتي رشيقة ، خفيفة على أذن القارئ ، ويراوح فيها الكاتب بين الأساليب ، فتارة يكون الأسلوب خبريا ، وأخرى انشائيا ، على نحو قوله : " وان لاحظ الملاحظ ما قال الجاحظ ، فاعتراض لا يرد ، وقياس لا يطرد ، حبذا والله عيش أهل التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب "[1] ، وكقوله أيضا : " شيم الانسان خلط الاساءة بالاحسان ، والغفلة من صفات الانسان ، وأى عيش كهذا العيش ، وكيف حال أمير هذا الجيش "[2].

وعموما ، فان رسالة ابن الخطيب هذه غاية في الظرف وخفة الروح ، مع شيء من الوقار .

... ...

الرسالة التاسعة :

وجهها الى أحد المنتحلين لصنعة الحجامة ، ولم يذكر ابن الخطيب اسم هذا الشخص ، وانما اكتفى بقوله : " ومن ذلك - أى من رسائل الدعابة - ما خاطبت به أحد المنتحلين لصنعة الحجامة "[3] ويلاحظ هنا قوله : (أحد المنتحلين) فهو يشير

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
(٢) المصدر السابق والصفحة .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

الى عدم تمرس هذا الحجام ، وأنه في حقيقة أمره ليس حجاما محترفا ، وانما هو منتحل للصنعة.

يبدأ ابن الخطيب رسالته هذه بقوله : " ياأحمد – أبقاك الله – ، ... ، ... ، ... ، حتى يتبين لك حال الشروة ،ويجتمع بين يديك من الشعور مثل مايجتمع بين الصفا والمروة ".[1]

ثم يتساءل عن غيبة هذا المنتحل للحجامة ، تلك الغيبة التي أطالت من معامليه اللمم والشوارب ، فيطلب منه العودة ، يقول : " اثن من عنانك ، وألن لمن خلقك قاسي جنانك ، وارث لخدود كنت حاصد نباتها ، ... ، فقد طغى فيها الآسى على الورد ".[2] .. الى أن يقول راجيا منه العودة خالطا في ذلك الجد بالهزل : " فبلطافة شمائلك ، وطيب حمائلك ، الا ما أخذت في الاياب ، وأدلجت ادلاج الذياب ، فقد طال الأمد ".[3]

وهكذا الى نهاية الرسالة ، وهي قصيرة لاتصل الى الصفحة ، وقد صاغها الكاتب في أسلوب سجع ، يمتاز بسهولة الألفاظ ، ويدل أيضا على قدرة ابن الخطيب في توليد الدعابة والفكاهة والسخر.

... ...

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥.
(٣) المصدر السابق والصفحة.

ومن رسائل الدعابة رسالة لم ترد في ريحانة الكتاب ، وقد وردت في الاحاطة ،[1] ضمن ترجمة حبيب بن محمد بن حبيب ، وقد بعثها ابن الخطيب لأبي عبد الله ابن الفخار البيرى ،ومناسبتها أن ابن الفخار قد وجه الى ابن الخطيب شخصا يدعى حبيبا بن محمد ، وحمله رسالة تتضمن الشفاعة له ، حيث كان يريد الوصول الى السلطان ، وعرض الأخير على ابن الخطيب قصيدة يروم اصلاحها وايصالها الى السلطان ، ولكن القصيدة لم تنل اعجاب ابن الخطيب ، فبعث الى ابن الفخار برسالته هذه على سبيل الاحماض والتفكه .

يقول في بدايتها : " ياسيدى الذى أتشرف ، وبالانتماء الى معارفه أتميز ، وصل اليّ عبيد حصن النجش - يقصد حبيبا - وناهض أفراخ ذلك العش "[2] الى أن يقول مادحا ابن الفخار : " فألقى من ثنائكم الذى أوجبته السيادة والأبوة ، مايقصر عن طيب الألوة ،[3] وتخجل من مشاهدته الغرر المجلوة ، وليست بأولى بر أسديتم ، ومكرمة أعدتم وأبديتم ، والحسنات وان كانت فهي اليكم منسوبة ، وفي أياديكم محسوبة ".[4]

ثم يخبر ابن الفخار عن حاله مع حبيب هذا ، فيقول : "وعرض عليّ حاجته وغرضه ، وطلب مني المشاركة ، وهي مني

---

(١) مج / ١ ص ٤٨٨ ومابعدها .
(٢) الاحاطة مج / ١ ص ٤٨٨ .
(٣) الألوة : شجر العود .
(٤) الاحاطة مج / ١ ص ٤٨٨ .

لأمثاله مفترضة ، ووعدني بايقافي على قصيدة حبرها،...، ...، ...، وطلب مني أن أهذب له ماأمكن من معانيها وألفاظها ، وأجلو القذى عن ألحاظها".(١)

ثم يتحدث عن القصيدة التي لم تعجبه البتة ، قائلا :
" فنظرت منها الى روض كثرت أثغابه (٢) ، وجيش من الكلام زاحم خواصه أو شابه ، ورمت الاصلاح مااستطعت ، فعجزت عن ذلك وانقطعت ، ورأيت لا جدوى الى ذلك الفرض ، مالم تبدل الأرض غير الأرض".(٣)

ويستمر بهذا الأسلوب متناولا الحديث عن الشعر ، وأنه من الفنون التي ليس فيها وسط ، فهو اما أن يكون جيدا أو رديئا .

وأخيرا يوجه الكلام الى ابن الفخار ، كي يشير على حبيب بالاستغناء عن رفع القصيدة لأن ذلك " أقوى لأمته ، ... ،وأستر لما لديه ، قبل أن يمد أبو حنيفة رجليه ، وان أصمت عن هذا العزل سامعه ، وهفت به الى النجاح مطامعه ، فليعمد الى الاختصار ، ... ، ... ، ... ، فاذا رتبها وهذبها ،وأوردها من موارد العبارة أعذبها ، توليت زفافها واهداءها ، وأمطت بين يدي الكفوء الكريم رداءها ، والسلام".(٤)

---

(١) المصدر السابق والصفحة.
(٢) الثغب: ماصلب من الأرض.
(٣) الاحاطة مج / ١ ص ٤٨٨.
(٤) المصدر السابق ص ٤٨٩.

ولولا أن ابن الخطيب قد أشار في الاحاطة الى أنه قد كتب في هذه الرسالة "على جهة الاحماض"[(١)] لما أدخلت في فصل الدعابة ، ذلك لأنها لا تحتوى على كثير من الدعابة اللهم الا بعض السخرية كقوله عن عدم قدرته على اصلاح القصيدة : " رأيت لا جدوى الى ذلك الغرض ، مالم تبدل الأرض غير الأرض"[(٢)] ، وكقوله : " فاقتضى نظركم .... ، .... ، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها .... ، .... ، قبل أن يمد أبو حنيفة رجليه"[(٣)] مشيرا في ذلك الى قصة أبي حنيفة المشهورة.[(٤)]

... ...

ومن رسائل الدعابة رسالة بعثها الى أبي عبد الله الشديد محمد بن قاسم بن أحمد الأنصارى[(٥)] ، وذلك بمناسبة توليه الحسبة ، وهي في حدود الصفحة ، ويبدؤها ابن الخطيب ببيتين من الشعر يقول فيهما :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨٨.
(٢) المصدر السابق ، والصفحة.
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٨٩.
(٤) موجز القصة أن رجلا دخل على أبي حنيفة وهو يلقي درسه على تلاميذه ، مادا رجليه ، فلما رأى الرجل استهابه ، فردهما توقيرا له ، فلما تحدث الرجل ظهرت حقيقة جهله ، فعرف أبو حنيفة أنه قد خدع بمنظر الرجل ، فمد رجليه ثانية.
(٥) ترجم له في الاحاطة مج/ ٣ ص ١٩٦.

"يا أيها المحتسب الجزل .. ومن لديه الجد والهزل
تهنيك[1] والشكر لمولى الورى .·. ولاية ليس بها عزل"[2]

ثم يقول : "كتبت أيها المحتسب ، والمنتمي الى نزاهة النسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك"[3] الى أن يقول : "فان غضضت طرفك ، أمنت من الولاية صرفك ، .... ، .... ، وان كففت كفك حفك العز فيمن حفك".[4]

ثم يتوجه له بالنصح المشوب ببعض الهزل والظرف فيقول : "فكن لقالي المجبنة قاليا ، ولحوت السلة ساليا ، .... ، .... ، .... ، وسر في اجتناب الحلواء على السبيل السواء ، وارفض في الشواء دواعي الأهواء ، وكن على الهراس ، وصاحب شريد الراس ، شديد المراس"[5] .. الى أن يقول : "وأدب أطفال الفسوق في السوق ، لا سيما من كان قبل البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق".[6]

ويتحدث عن الناس وأصنافهم ، فمنهم خسيس وآخر شرير ، وثالث حاسد ، ثم يقول : "فاخفض للحاسد جناحك ، وسدد الى حربه رماحك ، وأشبع الخسيس منهم مرقه فانه حنق ، ودس له فيها عظما لعله يختنق ، واحفر لشريرهم حفرة عميقة .. الخ".[7]

---

(١) هكذا وأظنها (تهناك) .
(٢) نفح الطيب مج/ ٦ ، ص ١٦٨ .
(٣) السابق والصفحة .
(٤) السابق ص ١٦٩ .
(٥) السابق والصفحة .
(٦) السابق والصفحة .
(٧) السابق والصفحة .

وأخيرا ينهي رسالته بخاتمة طريفة يصوغها على شكل الدعاء لهذا المحتسب ، فيقول : " سددك الله تعالى الى غرض التوفيق ، وأعلقك من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقرونا برخص اللحم والزيت والدقيق ". (١)

والرسالة كما يرى غاية في الظرف والدعابة ، وقد اعتمد فيها ابن الخطيب على السجع مع استخدام بعض الجناس كقوله : " فكن لقالي المجبنة قاليا ، ولحوت السلة ساليا " (٢) وكقوله : "وأدب أطفال الفسوق في السوق لا سيما من كان قبل البلوغ والبسوق ". (٣)

ويلاحظ بعد هذا الاستعراض لرسائل ابن الخطيب في فن الدعابة ، اختلافها من حيث الطول والغرض ، فحين تقع رسالته لابن خلدون مثلا في أكثر من ست صفحات ، نجد أن رسالته لأبي جعفر القرشي ورسالته الى منتحل صنعة الحجامة ، كل منهما لا تتجاوز الصفحة.

ثم ان رسائله في هذا الفن تختلف في أغراضها باختلاف مناسباتها ، ولكنها جميعا تدل على مايمتاز به ابن الخطيب من خفة الروح ، ومرح الطبع ، والتفاؤل بالحياة ، والاقبال عليها ، رغم مايحيط به من الهموم والمسؤليات الجسام.

فابن الخطيب ، وان كان قد توفر له من أسباب السعادة

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٩.
(٣) المصدر السابق والصفحة.

الجاه العريض ، والمال الوفير ، والمكانة الاجتماعية المرموقة ،الا أن ذلك لم يكن ليجعله يشعر بالراحة أو الطمأنينة ، فحياته الى آخر يوم منها كانت صراعا في صراع ، صراع مع السياسة التى حكمت عليه بالنفي من وطنه (غرناطة) مدة من الزمان ، ثم صراع مع حاسديه الذين كان أكثرهم من أعز ثقاته ، وقبل ذلك كله ، خوفه وقلقه على مصير غرناطة الذى كان يتجسد أمامه ، وأنها لا محالة ستسقط في أيدى المسيحيين ، بالاضافة الى همومه الخاصة ، في فقد أملاكه ، ومصادرتها ، ووفاة زوجته ، وهمومه العامة في تحمل مشكلات الدولة وأعبائها .

ولكن رغم صعوبة الظروف التي عاشها ابن الخطيب بين تقلبات السياسة في ذلك الصقع النائي الا أنه يتراءى لنا من خلال رسائله في فن الفكاهة ، روح مرح طروب ، ونفس متطلقة فكهة ، ومزاج متفائل ، وابتسامة وضيئة لا يطغى عليها العبوس ، وليس ذلك بغريب على شخصية ابن الخطيب التي توفرت لها من أسباب الفكاهة ، رقة الحس ، وفيض الشعور ، مع طبيعة مرحة جعلته يغالب الهموم الفردية والجماعية ، هذا بالاضافة الى تمرسه بالحياة ، ومعرفته لمختلف طبقات الناس ، وثقافته الواسعة مما أوجد عنده طبيعة فنية تتجلى في دقة الوصف ، وتصوير أدق خلجات النفوس.

ولا شك أنه قد قرأ للجاحظ ، وتأثر به ، وهنا يبرز سؤال مهم ، وهو لماذا اذن لم تكن الفكاهة من أبرز سمات نثر

ابن الخطيب ، كما كانت عند الجاحظ؟

وللاجابة على هذا التساؤل يجدر أن نعرف الفرق بين الرجلين ، فالجاحظ نشأ يتيما في بيت فقير ، وكفلته أمه وقامت على تربيته ، ولم يكن لديه مورد يقتات منه ، الا أنه كان يبيع الخبز والسمك بنهر سيحان بالبصرة ، وبالاضافة الى حياة الفقر التي كان يعيشها ، فقد ابتلي بخلقة ذميمة ، يستبشعها الناس ، ولكنه بعقله الكبير ، وثقافته الواسعة استطاع التغلب على كل هذه الظروف باللجوء الى الظرف والفكاهة ، لكي يكون مقبولا لدى الآخرين ، " ويظهر أن شعوره بالنقص في خلقته جعلته يوفر لشخصيته ضروبا من الكمال في مختلف النواحي فكان له ما أراد ".(١)

ولما كان الجاحظ رجل ظرف ودعابة ، فانه وجد في نفسه أنه لا يصلح لأعمال الدولة لما فيها من الجدية التي تتعارض مع شخصيته ، لذلك نفر من المناصب ، فقد روى أن " المأمون ولاه ديوان الرسائل فلم يلبث فيه الا ثلاثة أيام ثم استعفي فأعفي ".(٢)

ومن هنا يظهر الاختلاف بين حياة الرجلين وشخصيتهما واضحا كل الوضوح ، فابن الخطيب وان كان قد نشأ في ظروف أفضل من ظروف الجاحظ ، الا أنه حمل أعباء الدولة ، وتقلد منصبا مهما فيها ، فكان عمله يفرض عليه الجدية ، ومن ثم خلا نثره

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، ص ١٨٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

في أكثره من الدعابة ، فلم يكتب في هذا الفن الا القليل من الرسائل ، والتي وجهها الى أخص ثقاته الذين عرف هو فيهم حبهم للفكاهة والظرف ، وهو بذلك يراعي أذواق المخاطبين ، وهذا من مراعاة مقتضى الحال ، فتجده مثلا يبعث برسالة الى الوزير أبي بكر بن الحكيم ، ويقول أثناء ترجمته : "كان صدر أبناء أصحاب النعم ، . . . ، كاتبا بليغا ، حسن الخط ، مليح الدعابة ".(١)

ويبعث أيضا برسالة يداعب فيها محمداً بن قاسم الأنصارى ، ويقول في ترجمته : " من أهل الطلب والذكاء والظرف ، . . . ، . . . ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ".(٢)

ويبعث بدعابة ثالثة الى أبي عبد الله اليتيم ، ويصفه في كتاب التاج المحلى بقوله : " هو مجموع الحسان من خط ونغمة لسان ، . . . ، يقرطس أغراض الدعابة ، ويصميها ، ويفوق سهام الفكاهة الى مراميها ".(٣)

وثمة سبب آخر جعل الفكاهة من أبرز سمات الجاحظ ، ذلك أن الجاحظ قد أولع بالاستطراد في كتبه ، والاستطراد ممل اذا لم يدخل الكاتب خلاله شيئا من الفكاهة لتسلية القارئ .

بينما ابن الخطيب لم يعرف عنه الاستطراد كثيرا في كتاباته ،

---

(١) الاحاطة مج / ٢ ، ص ٢٧٢ .
(٢) المصدر السابق ، مج / ٣ ، ص ١٩٦ .
(٣) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٣٦٦ .

بل كان يكتب كل موضوع على حدة.

ولهذه الأسباب لم تكن الدعابة من أبرز سمات ابن الخطيب كما كانت عند الجاحظ ، وهذا لا يتعارض مع ما قرر سلفا من أن ابن الخطيب كان يمتاز بروح مرح طروب ، ونفس متطلقة فكهة ، وابتسامة وضيئة لا يطفئ عليها العبوس ، ولكن عمله وموضوعاته التي كتب فيها كانت تفرض عليه نوعا من الجدية غلب على أكثر ماكتب.

... ...

عناصر الفكاهة في دعابات ابن الخطيب:

من الاستعراض السابق لرسائل ابن الخطيب في فن الدعابة تظهر بعض عناصر الفكاهة التي يقيم عليها دعاباته ، فمن ذلك خلط الجدّ بالهزل ، وهو كثير في رسائله في هذا الفن ، ومن ذلك مثلا قوله في مداعبة ابن الحاج على لسان أبي الحسن النباهي : "وماضر سيدى ــ والله يقيه الضر ، ويحفظ منصبه الحر ، وبحره الذى يقذف بالدر ــ أن لو ضاعف الطول ، وجمع الفعل والقول ، فوجه من الكتان ، مايثقل ظهر الأتان ، ومن الزيت مايملأ ركن البيت ، ومن الدجاج والعسل المجاج ، مايتكفل بصلاح المزاج ، ومن الأترج والليم ، مايخل بحلم الحليم".[1]

وكذلك قوله في الرسالة التي بعثها هو الى ابن الحاج :

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

"والمرغوب من سيدى القاضي أن يذكر بؤسنا ... عند نعيمه، ...،
ويسهمنا حظا من فوائد حظه، لا من فوائد خطته، فقد غنينا
عن الحلاوات بحلاوة لفظه، وعن الطرف المجموعة بفنون حفظه،
وعن قصب السكر بقصب أقلامه".(١)

واذا ماتمعن القارئ الرسالة التي وجهها الى من تزوج قينته،
يجد أنه قد اعتمد في صياغتها من بدايتها الى نهايتها على
عنصر خلط الجد بالهزل مع السخر والنقد والاستهزاء، فهو
يخاطب هذا الشخص، وكأنه جاد في خطابه له، بينما هو يهزأ
به، ويصوره بأقبح الصور، ففي بدايتها يظهر له حسده على
لبس خلع الخلاعة، فيقول: "كنت أغبطك ـ أعزك الله ـ بتسويغ
اللذات، وبتسني طيب الحياة، ولباس خلع الخلاعة، ولو قامت
الساعة".(٢)

ويدعو له، وهو في الواقع يدعو عليه، فيقول: "وأدعو
الله أن يجزيك أجرتك، ويتقبل هجرتك، ...، ويعطف على
محلك قلوب الفتيان، ويدعو بهم للاتيان، ويقطع بشهرة قينتك
حظوظ القيان".(٣)

ويختم الرسالة بقوله: "فأقسم عليك ياسيدى أن لاتغفلنا
من بالك، ...، وأسهمنا في فضل تجارتك، ...، واضرب لنا

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٦، ٢٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧.
(٣) المصدر السابق، والصفحة.

بحظ عند قسم مافي طنجارتك".[1]

ويدخل أيضا هذا العنصر في رسالته التي بعثها الى ابن جبور والى مكناسة ، على نحو قوله : " فخاطبتك مخاطبة من يغار على شهرة جودك ، . . . ، فاما أن يقع الصلح على ضريبة قريبة ، ويرتفع عن وجه المجادة نقاب الريبة ، أو يكذب النقل ، ويكون قرى ضيفك الماء والبقل ، اللهم الا أن يكون قبولك خاصا بمن راق خده ، وحسن قده ، وتبلبلت نظرته ، وأخجلت البدو غرته ، فحظنا لديك الخيبة . . ".[2]

ومن خلط الجد بالهزل ، قوله في الرسالة التي بعثها لأبي عبد الله بن اليتيم : " حبذا والله عيش أهل التأديب ، . . . ، معاهدة الاحسان ، ومشاهدة الصور الحسان".[3]

وكذلك قوله في نهاية الرسالة التي بعثها الى المحتسب محمد بن قاسم الأنصارى على صيغة الدعاء : " سددك الله تعالى الى غرض التوفيق ، . . . ، وجعل قدومك مقرونا برخص اللحم والزيت والدقيق".[4]

ومن عناصر الفكاهة التي استخدمها ابن الخطيب في دعاباته ، تعظيم الحقير وتهويله ، يقول مثلا في رسالته التي وجهها الى أحد

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨.
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٠.
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣.
(٤) نفح الطيب مج / ٦ ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.

المنتحلين لصنعة الحجامة: " اثن من عنانك ، وألن لمن خلقك قاسي جنانك ، وارث لخدود كنت حاصد نباتها ، ومتفيئ جناتها ، فقد طفى بها الآس على الورد".(١)

ويقول راجيا منه العودة: " فبلطافة شمائلك ، وطيب حمائلك ، الا ماأخذت في الاياب وأدلجت ادلاج الذياب".(٢)

... ...

ومن عناصر الدعابة أيضا ، وصف المناظر المضحكة بأسلوب دقيق وساخر أحيانا ، وقد أدخل ابن الخطيب هذا العنصر في دعاباته ، يقول في الرسالة التي وجهها لليتيم واصفا معلم الكتاتيب: " فان أشار بالانصات ، ... ، فكأنما طمس على الأفواه ،ولاءم بين الشفاه ، وان أمر بالافصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحُفّ به كما حَفّ بالبيت الحجيج ..".(٣)

ويقول في رسالته لأبي بكر بن الحكيم واصفا رسوله الذي حمّله الكثير من الأثقال: " وقد حملته سياد تكم من المبرة ضروبا شتى ، ... ، ولم تدع عضوا من جسده ، فضلا عن منكبه ويده ، الا أعلقته وعاء ثقيلا ، وناطت به زنبيلا ، وصيره مضاعف البر ، سفينة من سفن البرّ ، فأناخ كالجمل اذا برك ، واستلقى كالكي

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ، ص ٢٤٥.
(٢) المصدر السابق والصفحة.
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٤.

ترك المعترك ، وعلت حوله تلك الأثقال ، ... ، وكثر بالزقاق القيل والقال ..".[1]

... ...

والتصريح بما يقتضى الحياء ستره من ألفاظ المناكح ، أو غيرها هو أيضا من مايجرى في الفكاهة والمداعبة ، وقد استخدمه ابن الخطيب في بعض رسائله ، كما في رسالته التي وجهها الى أحد الأطباء ، ورسالته التي بعثها لابن خلدون ، ففيها من الشواهد على استخدامه هذا العنصر ، الكثير ، وبخاصة في أبيات الشعر.

... ...

وعموما ، فاذا كانت الطرفة أو الدعابة ، تقوم في أصلها على المفارقات المنطقية ، واللغوية ، وعلى عكس الحقائق كتعظيم الحقير ، وتحقير العظيم ، وخلط الجد بالهزل ، والتفنن في وصف المناظر المضحكة ، فان ابن الخطيب قد استخدم أكثر هذه العناصر في دعاباته.

... ...

أهم المآخذ عليه في رسائل الدعابة :

١ — تكلف السجع في بعض الأحيان ، والمقاربة بين المتباعدات لاتمام السجعة ، ومن أمثلة ذلك قوله في رسالته

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤١.

التي بعثها الى أحد منتحلي صنعة الحجامة: " يا أحمد ـ أبقاك الله ـ ... ، ... ، ... ، حتى يتبين لديك حال الثروة ، ويجتمع بين يديك من الشعور ، مثل مايجتمع بين الصفا والمروة ".(١)

٢ - استخدام الاقتباس من القرآن الكريم في أغراض الهزل ، وهو مما لا يليق بجلال آيات الله ، وهذا كثير في رسائله ، يقول في رسالته لابن خلدون: " فان كنت ـ أعزك الله ـ من النمط الأول ... ، ... ، ... ، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة ، واخرج على قومك في لباس الزينة ، ... ، ... ، وان كانت الأخرى ، فاخف الكمد ، ... ، ... ، ... ، وجئ على قميصك بدم كذب".(٢)

وكقوله: " فكم من غمام طبق وماهما(٣) ، ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى ".(٤)

وكقوله في رسالته التي بعثها لابن الحاج: "ووقفت الأعيان سماطين ، ... ، ... ، ... ، يعلنون بالتفدية ويجهرون ، لا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون".(٥)

٣ - القسم بغير الله ، كقوله في رسالته لأبي عبدالله اليتيم:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٤.
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣١.
(٣) هكذا والصحيح (همى).
(٤) ريحانة الكتاب مج/٢ ، ص ٢٣١.
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٥.

" فأقسم بألفات القدود ، وهمزات الجفون السود ، وحاملي الأرواح مع الألواح في الغدو والرواح ، لولا بعد قرارك ماأمنت غائلة ماتحت ازارك"[1] . . وربما سوّغ له ذلك قصد المجون وخلط الجد بالهزل .

أسلوبه في رسائل الدعابة :

لعل من أظهر خصائصه الأسلوبية في رسائل الدعابة بناءها على السجع والجناس ، وهذا يحدث كثيرا من الايقاع الذى ينشأ من توازن العبارات والكلمات لملاءمة ذلك لغايتها من الامتاع ، بالاضافة الى الموسيقى التي تتولد عن الجناس.

ويستخدم ابن الخطيب في رسائله الهزلية هذه المراوحة بين الأساليب ، فتارة يستخدم الأسلوب الانشائي وتارة الخبرى .

ومن خصائص أسلوبه أيضا الكناية ، والتورية بالمعنى الظاهر عن المعنى الخفي المقصود ، وهذا أعانه كثيرا على التعبير عن أشياء دقيقة ، دون التصريح بها .

... ...

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

الفصل الخامس
(المقـــامـات)

المقامات

المقامة بالضم: الإقامة ، والمقامة بالفتح : المجلس ،والجماعة من الناس ،[1] قال لبيد :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم .·. جن لدى باب الحصير قيام[2]

أى وجماعة من الناس غلاظ الرقاب كأنهم جن لدى باب الملك قيام ، وتجمع المقامة على مقامات ، قال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم .·. وأندية ينتابها القول والفعل[3]

أى وفيهم جماعات حسان وجوههم ... الخ ، ثم تطور مفهوم هذا اللفظ حتى سميت الأحدوثة من الكلام مقامة ، كما ذكر القلقشندى في صبح الأعشى[4] ، وقال الزمخشرى: " يقال قام بين يدى الأمير بمقامة حسنة ، وبمقامات ، أى خطبة أو عظة أو غيرهما ".[5]

... ...

والمقامات كمصطلح هي فن من فنون النثر نشأ على

---

(١) انظر: القاموس المحيط مج /٤ ص ١٧٠ ، الصحاح مج /٧ ص ٢٠١٧ ، وانظر أيضا : شرح مقامات بديع الزمان ، هامش ص ١٠ .
(٢) انظر: الأدب العربي في الأندلس ص ٤٧٦ ، والمقامة ص ٧ .
(٣) ديوان زهير ، ص ٦٢ .
(٤) انظر: صبح الأعشى ، ج/١٤ ، ص ١٢٤ .
(٥) أساس البلاغة ، ص ٣٨٢ .

الأرجح في العصر العباسي [١]، وعلى يد بديع الزمان الهمذاني، المتوفى عام ٣٩٨ هـ، فهو "أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، اذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعا تصور أحاديث تلقى في جماعات" [٢]، وقد صاغ مقاماته في شكل قصص قصيرة، ذات أسلوب أنيق، وجعل لها راويا واحدا هو عيسى بن هشام، وبطلا يظهر في أكثرها هو أبو الفتح الاسكندري.

وتعتمد المقامة عنده على حيلة أكثر من اعتمادها على قصة، لذلك كان بطله في الغالب أديبا شحاذا يروع الناس بمواقفه وفصاحته.

وكان يهدف من وراء مقاماته إلى إظهار قدراته التعبيرية، وإلى تعليم تلاميذه الأساليب المنمقة.

وقد تأثر الحريري المتوفى عام ٥١٦ هـ بمقاماته، فنسج على منواله، ونهج طريقه فجعل لمقاماته رؤيا هو الحارث بن همام، وبطلا هو أبو زيد السروجي.

ثم تأثر أدباء آخرون بها [٣]، فجعلوا يصنفون مقامات كثيرة، وكان من بينهم من سار على ذات الدرب، ومنهم من تغير شكل المقامة عنده، فخرج بها عن رسومها المعروفة "وراح ينظر

---

(١) انظر الملحق رقم (٢).
(٢) المقامة، ص ٨.
(٣) انظر: النثر الفني ص ٢٤٧، تطور الأساليب النثرية ص ٣٦١، تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، ص ٣٠٣ ومابعدها.

إليها على أنها قطعة من النثر المسجوع يتأنق في لغتها وأسلوبها وصياغتها الفنية ، وتشتمل في الوقت ذاته على موعظة أخلاقية ، وبذلك صارت أقرب إلى المقالة منها إلى المقامة "[١] ومن هؤلاء الزمخشرى الذى يستشف مفهوم المقامة عنده من تعريفة لها في (أساس البلاغة) حيث يقول : " قام بين يدى الأمير بمقامة حسنة ، وبمقامات أى بخطبة أو عظة أو غيرهما".[٢]

... ...

لمحة عن المقامات في الأندلس:

كما تأثر المشارقة بالمقامات ونسجوا على منوالها ، تأثر بها أيضا الأندلسيون من خلال المشارقة الذين رحلوا إلى المشرق ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا هذا الفن بين أدبائه.

والواقع أن كتاب المقامة الأندلسية لم يقتفوا أثر البديع والحريرى في معظم رسوم مقاماتهم وإن كان من هؤلاء الكتاب قلة ساروا على نهجهما ، إلا أن الغالبية العظمى منهم " خرجوا بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة أو بما نسميه حديثاً بالمقالة ".[٣]

وقد ظهر في الأندلس أدباء كثيرون كتبوا في المقامات، منهم على سبيل المثال : أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني ، عمر

---

(١) الأدب العربي في الأندلس ، ص ٤٧٨.
(٢) ص ٣٨٢.
(٣) الأدب العربي في الأندلس ، ص ٤٨٢.

الشهيد ، وأبو محمد بن مالك القرطبي ، وأبو طاهر محمد التميمي السرقسطي المتوفى بقرطبة عام ٥٣٨ هـ ، وله خمسون مقامة عارض بها الحريرى ، ولزم في نثرها السجوع مالا يلزم ، ومحارب بن محمد الوادى آشي ، وأبو عبد الله محمد القرطبي الليلي ، وعبد الرحمن بن القصير ، وعمر الزجال ، وابن الخطيب ، وأبو عبد الله بن إبراهيم الأزدى ، ومحمد بن خلف الهمذاني القرطبي ، وأبو الحسن بن سلام المالقي[١] ، وغيرهم.

... ...

المقامات عند ابن الخطيب الأندلسي :

كتب ابن الخطيب عدة رسائل وضعها في مصنفه المسمى (ريحانة الكتاب) في باب أسماه (باب المقامات)[٢] ، وهي كالتالي:

١) رسالة بعث بها الى أبي عنان فارس سلطان فاس عام ٧٥٦ هـ ، وقد بناها على حرف السين.

٢) خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف ، وهي رسالة في وصف رحلة مع سلطانه في ربوع الأندلس.

٣) جزء من رسالة في وصف رحلة ببلاد المغرب.

---

(١) انظر: السابق ص ٤٧٩ ومابعدها ، وتاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٠٥ ومابعدها ، وفن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٢٦٧ ومابعدها .

(٢) راجع : ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٤٦ ومابعدها .

٤) مقامة يصف من خلالها بعض الشخصيات ، واسمها كما ورد في نغاضة الجراب " قطع الفلاة بأخبار الولاة ".[١]

٥) مقامة في وصف البلدان تتألف من مجلسين أو فصلين ، الأول في وصف مدن الأندلس ، والثاني في وصف مدن المغرب ، وهي المسماة (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار) .

٦) رسالة في السياسة.

٧) كتاب الاشارة في أدب الوزارة.

٨) رسالة في مفاضلة مالقة وسلا .

وهناك مقامة أوردها في آخر كتاب روضة التعريف.[٢]

وسنحاول ــ بعون الله ــ الحديث عن كل واحدة من هذه الرسائل والمقامات على حدة:

... ...

الرسالة الأولى : الرسالة المبنية على حرف السين :

كتبها ابن الخطيب ــ حسب ماجاء في آخرها ــ في التاسع من شهر المحرم لسنة ست وخمسين وسبعمائة ، وهي رسالة وجهها الى السلطان أبي عنان فارس ، وكان السلطان الغني بالله بعد أن خلف والده على عرش غرناطة قد بعث بابن الخطيب سفيرا

---

(١) انظر: نغاضة الجراب ، ص ١٥١ .
(٢) م ج / ٢ ، ص ٦٣١ .

الى المغرب لتجديد أواصر المحبة والوصل بين غرناطة وفاس ، ونجح ابن الخطيب في سفارته ، وفي طريق العودة بعث بهذه الرسالة من سبتة الى فاس حيث السلطان أبو عنان ، وفيها يشكره على حفاوته به ، وما لقيه لديه من ترحاب واكرام.(١)

وقد التزم ابن الخطيب في رسالته هذه جعل حرف السين في كل كلمة منها ، كما التزم في بنائها السجع ، مما دفعه الى التكلف ، والتلعّب بالألفاظ.

وبالطبع فان هذا الالزام الذى ألزم نفسه به في هذه الرسالة اضطره الى أن يكني عن بعض الأسماء التي ليس فيها (سين) كقوله كناية عن اسمه (محمد) : "سمي الرسول" وقوله كناية عن شهر المحرم في نهاية الرسالة : "ورسم تاسع مستفتح سنة ست وخمسين وسبعمائة".(٢)

وواضح أن الغرض من الرسالة هو المدح والثناء على أبي عنان ، ولكن ربما كان الهدف من رسمها بهذا الشكل اظهار قدراته التعبيرية ، واستعراض بيانه ، ومدى تمكنه من اللغة ، وتغننه في ذلك أمام كتاب المغرب.

وهنا قد يقول قائل : اذن لماذا وضعها في باب المقامات؟ والجواب على هذا سهل ميسور ، فمفهوم المقامة في عصر الكاتب

---

(١) انظر: الاحاطة ، مقدمة المحقق ، مج / ١ ، ص ٢٣.
(٢) ريحانة الكتاب ، مج / ٢ ، ص ٢٤٧.

قد اتسع - كما سلف القول - وصار يطلق على كل قطعة من النثر المسجوع صيغت في قالب أنيق من حيث لغتها واسلوبها وصياغتها الغنية ، وهذه الرسالة التزم فيها مالا يلزم فجاءت نادرة في صياغتها ، لذا عدها من المقامات ، ووضعها تحت هذا الباب ، وكان الأجدر أن يدرجها ضمن الأخوانيات.

... ...

الرسالة الثانية: خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف: (١)

وهي رسالة يصف فيها رحلة في ربوع الأندلس قام بها بصحبة سلطانه وهي أقرب الى أدب الرحلات ، أو الأدب الجغرافي منها الى المقامات ، بل انها لا تشتمل على أى عنصر من عناصر المقامة ، فهي تخلو من البطل والراوى ، وليس فيها حوار يذكر ، وماهي الا مجرد وصف للرحلة بأسلوب مسجع، متأنق في صياغته الغنية ، وعرضه.

ولعل ابن الخطيب قد عدّها من المقامات ، وأدخلها في بابها ، لصياغتها الغنية ، ولتوسع مفهوم المقامة في عصره.

وسنعرض - بعون الله - لدراسة هذه الرسالة في فصل الأدب الجغرافي لأهميتها هناك.

... ...

---

(١) وردت في الريحانة مج/٢ ص ٢٤٨ ، كما وردت في مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص ٢٥.

٣ - الرسالة الثالثة:

وهي جزء من رسالة في وصف رحلة ببلاد المغرب ، وليست من المقامات في شيء لأنها تخلو من عناصر المقامة ، ثم هي ناقصة ، وربما عدّها من المقامات بمفهومها الواسع الذى سبقت اليه الاشارة.

٤ - الرسالة الرابعة:

أورد ابن الخطيب رسالته هذه في كتابيه (ريحانة الكتاب)[١] ، و(نفاضة الجراب)[٢] ، ولكنها في الأخير أكمل وأوضح ، وقد سماها فيه (قطع الفلاة بأخبار الولاة) وقدّم لها بقوله : " بات عندى أحد الشرفاء ، ممن شأنه انتيابهم ، فأجرى ذكر جميعهم ، وميّز بين أدناهم ورفيعهم ، فضمنت ذلك الكلام المحبّر ، وسميته بما يذكر ".[٣]

ثم يبدأ نص مقامته بذكر الراوى ، ولكنه لا يسميه بل يصفه ، فيقول : " حدث من ينظم فوائد الأخبار في سلك قصصه ، ويدوس حيّات الطرق بأخمصه ، ويطارد شوارد المكارم فتصبح من قنصه فقال ".[٤]

---

(١) مج / ٢ ، ص ٢٧٠ .
(٢) ص ١٥١ .
(٣) نفاضة الجراب ، ص ١٥١ .
(٤) السابق والصفحة.

ثم يقص هذا الراوى قصة ملخصها ، أنه بينما كان يسير في وقت الظهيرة في الصحراء الفسيحة حيث الشمس الحارة ولا ظل ولا ماء ، اذ رأى من بعيد شجرة كبيرة فتوجه اليها ليستظل بظلها ، ولما وصلها وهو ينشد بعض الأبيات فرحا بالظل ، وجد عندها سيدا ، وحوله فتيانه ، والكل نائم في ذلك الظل ، فتحرك السيد (بطل المقامة) طربا من الانشاد ، ونادى الراوى ، فاستظل معهم وتناولوا بعض الطعام حتى لم يبق من عمر اليوم الا القليل ، فرفعت الرحال فوق الظهور ، وسار الجميع مواصلين رحلتهم ، وفي أثناء ذلك يدور حوار بين البطل والراوى ، يقول الراوى : " قلت أيها الرفيق البر الصحابة ، الأغر السحابة ، ان الشقة بعيدة ، والمشقة مبدية معيدة ، ولا يستعان على المراحل اذا سطت واستطالت ، وليالي السرى اذا تمطت وطالت ، الا بتقارب الأخبار المنقولة ، والآداب المصقولة ، فقال (أى البطل) : أثر الكامن ، وازجر الميامن ، وابغ الفلك الثامن ، واطلب غريم الغرائب ، وأنا الضامن ، قلت (أى الراوى) : افسح لي مجال غرضك ، واشرح لي معنى جوهرك وعرضك ، وطية سفرك ، وعودك بظفرك الى نفرك ، فقال (أى البطل) : أنا كالشمس أجوب هذه المنازل مرة في كل سنة ، وأحصي كل سيئة وحسنة ، أطوى الفلاة وأبهرج الولاة ، فهم يرقبون النوبة ، ويتوقعون الأوبة ، ... ، فأسعط الأنوف ، وانتزع حتى الشنوف (١) ، واحكم لساني فيمن

---

(١) الشنوف : جمع شنف وهو القرط.

ينساني ، .... ، .... ، .... ، وأوسع البخيل هجرا ، وأسمعه هجرا [١] ، وأقرظ من كرم نجرا [٢] ، ووضح فجرا". [٣]

ويستمر البطل في وصف حاله ، وأنه قادر على المدح والهجاء بدون خوف من أحد ، وهنا يطلب الراوى منه أن يصف كل وال على حدة ، فيجيبه الى طلبه ، فيعرض الراوى أسماء بعض الولاة ، وعند كل اسم يصف البطل صاحب الاسم اما بالمدح أو القدح .

وقد استعرض ابن الخطيب في هذه المقامة ثمانية عشر شخصا من الولاة والقضاة ، ورجال الدولة ، وذكرت أسماء أحد عشر شخصا من هؤلاء ، أما السبعة الأسماء المتبقية فجعل مكانها (بياض) وربما يكون ابن الخطيب قد ذكر تلك الأسماء ، ولكن النساخ بعد تركوها خوفا من أصحابها ، خاصة وأن أكثر مايذكر بعد الفراغ (البياض) يكون هجاء .

والشخصيات المذكورة في هذه المقامة من الولاة وغيرهم هم من رجال المغرب ، ويؤكد ذلك أمران :

الأول : في بداية المقامة عندما يطلب الراوى من البطل أن يصف له رجال " الحضرة وجباتها" [٤] ، وهو يقصد بالحضرة مدينة (فاس) المغربية .

---

(١) الهجر بضم الهاء : قبيح الكلام.
(٢) النجر والنجار: الأصل والحسب.
(٣) نفاضة الجراب ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٤) السابق ، ص ١٥٦ .

الثاني : أنه يذكر أسماء بعض الشخصيات مشيرا الى مناصبهم في الدولة المغربية كقوله : " قلت فوالي مكناسة عبد الله بن محمد "،[١] وقوله : " قلت فأخوه الأحس (يعني زكريا بن يحيي) بأزمور"،[٢] وقوله : " قلت فوالي تيط بن بطان".[٣]

ويظهر أن ابن الخطيب قد ألف هذه المقامة فيما بين سنتي ٧٦١ ، ٧٦٣ هـ ، أى أثناء اقامته بالمغرب ، ذلك لأنه أوردها في نفاضة الجراب الذى ألفه في تلك الفترة ، والغرض من تأليف المقامة كما هو واضح المدح والهجاء.

ولعل هذه المقامة تعطي صورة واضحة عن قدرة ابن الخطيب على المديح والهجاء ، فهو حين يمدح يصل بممدوحه الى الذروة العالية ، وحين يهجو ينزل بالمهجو الى أسفل سافلين مستخدما في ذلك أساليب السخرية مع السباب والدعاء على المهجو ، بل قد ينزل به الى أدنى من ذلك حين يصفه بأقذر الأشياء كوصفه لابن الربيب حيث يقول على لسان الراوى : " قلت فالوالي ابن الربيب[٤] ؟ فشد (أى البطل) خيشومه واستدفع بيمن الله

---

(١) السابق ، ص ١٥٩ .
(٢) السابق ، ص ١٦٠ ، وأزمور احدى مدن المغرب.
(٣) السابق والصفحة.
(٤) ابن الربيب أحد خدام السلطان أبي سالم المريني ، وكان مكلفا بصرف الجراية لابن الخطيب وغيره ، ويبدو أنه لم يفِ بحقوقهم مما جعل ابن الخطيب يشكيه الى ابن مرزوق الحاجب ، راجع أزهار الرياض ، مج /١ ص ٢٧٥ .

شومه ، ثم قال : الروض الأنف محتاج الى الكنف ".[١]

ثم يستمر البطل في هجاء ابن الربيب بمثل قوله : " اعلم أنني على طول تجربتي ، . . . . ، لم أعثر له على شبيه ، فلعنة الله عليه وعلى أبيه ، الجهل والرعونة ، والطلعة الملعونة ، والخيانة التي (لم) يعرفها الوجود ، واليد التي في غير الخنا[٢] لا تجود ، . . . . ، . . . . ، . . . ، الخامل البيت والهمة ، الكثير الذّام ، القليل الذمة ".[٣]

وهذه المقامة تشتمل على راو وبطل ، وحوار يقيمه الكاتب بينهما ، ولكنها لا تقوم على عنصر الكدية الذى تقوم عليه مقامات الهمذاني والحريرى ، ثم ان الكاتب لا يضع للراوى أو البطل أسماء كما هو الحال عند الحريرى والهمذاني ، بل يكتفي بوصف الراوى والبطل بحديث طويل مما زاد المقامة طولا حتى تجاوزت العشر صفحات .

وقد بنيت هذه المقامة على السجع ، كما استخدم فيها الكاتب الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين الشعر ، وغير ذلك من المحسنات التي يجدها القارئ بسهولة.

والحق أن هذه المقامة تحتوى على بعض التشبيهات

---

(١) نغاضة الجراب ص ١٥٨ ، والروض الأنف الذى لم يرع ، والكنف جمع كنيف وهو مكان قضاء الحاجة.
(٢) الخنا : الفساد .
(٣) نغاضة الجراب: ص ١٥٨ .

والاستعارات والكنايات التي تبلغ الغاية في الدقة والجمال مما ينم عن عقلية مبتكرة.

ويلاحظ أن ابن الخطيب يطيل في الوصف في مواضع عدة من مقاماته دون أن يكون هناك داع للاطالة ، من ذلك مثلا قوله على لسان الراوى حين يتحدث عن كيفية التقائه بالبطل : " فبينما أنا في بعض الطرق وقد وصلت الهاجرة ، وتبرجت المفازة الفاجرة ، وسورة القيظ ، تكاد تميز من الغيظ ، ... ، ... ، ... ، والشمس قد ركبت سنام خط الزوال ، ومدرجة الصبا قد ضنت بالنوال ، ... ، ... ، ... ، والظل مرامه من العسير ، والماء بمنزلة الاكسير ، اذ رفعت لي على البعد سرحة[١] فريدة عن اللدات ، ... ، ... ، ... ، فملت الى سمتها[٢] وانحرفت ، وثنيت العنان نحوها وصرفت"[٣] الى أن يقول بعد وصف طويل : " وكان في جملة من اغتنم المقيل ، ... ، وألم بالنوم الخفيف على الرحل الثقيل ، لا ئث عمة على همة ،[٤] ثم يواصل وصف البطل بحديث طويل أيضا .

ومن وصفه الطويل أيضا وصف البطل لنفسه حيث يقول : أنا كالشمس أجوب هذه المنازل مرة كل سنة ، وأحصي كل سيئة

---

(١) السرحة: كل شجرة طالت ، وجمعها سروح .
(٢) السمت : الطريق .
(٣) نفاضة الجراب ، ص ١٥٢ .
(٤) السابق ، ص ١٥٤ ومابعدها .

وحسنة ، أطوى الغلاة وأبهرج الولاة " الى أن يقول : " أهجم هجوم السيل بالليل ، وأجرعلى البيوت فضل الذيل ، . . . ، . . . ، . . . ، وأعود والصرة لا يجتمع مغلاقها والبدرة لا يقلها معلاقها ، والعياب[١] يصعب معها الاياب ، وتبرز من خلال أستارها الثياب "[٢] الى آخر وصفه .

وفي هذه المقامة تظهر خاصية من خصائص نثر ابن الخطيب ، وهي محاولة توليد الجمل ، فيبدأ الحديث بكلمة واحدة ، ثم يأتي بجملة على سجعتها ، ولكنها أطول ، وهكذا ، مما يعطي جرسا موسيقيا في الكلام ، كقوله في هجاء أحدهم : " خدوم ، وقاضي سدوم[٣] ، وموجود معدوم "[٤] وكقوله في هجاء آخر مشيرا الى ثقل روحه : " فارة ، وقضاء وكفارة ، . . . ، وبعوضة في الآذان تغني عن الاستئذان ، وتطرق حتى سبات الاقامة والأذان ، قادر على تلفيق الثبوت ، وحمل اليهود على نسيان السبوت ، يرى الحكمة خبيئة جيبه ، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه "[٥] .

وأخيرا فان هذه المقامة تقترب الى حد ما من الشكل الظاهر للمقامات القديمة المعروفة وذلك من حيث البناء على

---

(١) العياب : جمع عيبه كالحقائب .
(٢) نفاضة الجراب ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٣) في المثل (أجور من قاضي سدوم) راجع أساس البلاغة ، ص ٢٠٧ .
(٤) نفاضة الجراب ، ص ١٥٧ .
(٥) السابق والصفحة .

السجع ، ووجود بطل وراو فيها ، ولكنها تبتعد عنها من حيث الغرض والأسلوب.

... ...

الرسالة الخامسة :

وهي المسماة (كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، أو ذكر المنازل والآثار) [١] وتتألف هذه المقامة أو الرسالة من فصلين ، الأول في وصف مدن الأندلس ، والثاني في وصف مدن المغرب ، مما يؤكد أنه كتبها بعد ما زار المغرب سفيرا لمحمد الخامس الغني بالله ، أى بعد عام ٧٥٥ هـ.

وقد تحدث المقرى في نفح الطيب عن هذه المقامة فقال : "وللسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الأندلس والعدوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب" ، [٢] ثم ذكر جزءا منها في وصف سبتة ، وآخر في وصف مكناسة.

ويفتتح ابن الخطيب مقامته هذه بمقدمة يحمد فيها الله ثم يصلى ويسلم على النبي الكريم عليه السلام ، ثم يتحدث عن

---

(١) انظر: ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٧٩ ، ومشاهدات لسان الدين ص ٦٩.
(٢) مج / ٦ ص ٢٠٩.

الغرض الذى دفعه لكتابة هذه المقامة فيقول : " أما بعد ، ساعدك السعد ولان لك الجعد ، فان الانسان وان اتصف بالاحسان ، وابانة اللسان ، لمّا كان بعضه لبعض فقيرا ، نبيها كان أو حقيرا ، اذ مؤنته التي تصلح بها حاله ، ولا يسعها انتحاله ، لزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره ، ويختزن بها أقواته التي بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه ، فان كان اتخاذها جزافا واتفاقا ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقا ، تحاول شرها وخيرها ، وتعارض نفعها وضيرها ، وفضلها في الغالب غيرها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ، وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر ، وكانت ساوئها بالنسبة الى محاسنها تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضح للآمال ، ولله در القائل:

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها

كفى المرء فضلا أن تعد معايبه[١]

ويظهر من النص أن ابن الخطيب قصد في مقامته الى وضع معايير معينة لكل مدينة أو موازنة بين المدن ، لأنه يرى أن اختيار الفرد للسكن والاقامة في مدينة مايجب أن يبنى على دراسة وتخطيط ، ومن هنا نعرف لم أطلق على المقامة اسم

---

(١) مشاهدات لسان الدين ، ص ٧٠.

(معيار الاختيار).

ويستمر ابن الخطيب مقامته ، وهنا يذكر قصة يرويها راو سكني عنه بأوصاف كثيرة ، يقول : " وبحسب ذلك — أي ماجاء في المقدمة — حدث من يعنى بالأخبار ينقلها ، والحكم يصقلها ، والأسمار ينتقيها ، والآثار يخلدها ويبقيها .. الخ ".[1]

ثم يروى هذا الراوى المجهول اسما ، المعروف صفة ، قصة مغادها : أنه في احدى الليالي رمق في بعض السقائف " آمنا في زى خائف ، وشيخا طاف منه بالأرض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف ، ... ، ... ، ... ، حكم له بياض الشيبة بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش ، والى يمينه دلو فاهق ،[2] وعن يساره تلميذ مراهق ، وأمامه حمار ناهق ".[3]

ثم يستمر الراوى في وصف المجلس ، وكيف أن الشيخ يتحسر على شبابه ، وعلى الدنيا التى رأى أوطارها ، وحلب أشطارها ، ويدور حوار بعد ذلك بين الشيخ وفتاه : " فقال فتاه ، وقد افترت عن الدر شفتاه مستثيرا لشجونه ، ومطلعا لنجوم همه من دجونه ، ومدلا عليه بمجونه ، وماذا بلغ الشيخ من أمدها ، أو رفع من عمدها ، حتى يقضي منه عجب ، أو يجلى منه محتجب

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) فاهق : ممتلئ .
(٣) مشاهدات لسان الدين ، ص ٧١ .

فأخذته (أى الشيخ) حمية الحفاظ لهذه الألفاظ ، وقال : أى بني مثلي من الأقطاب يخاطب بهذا الخطاب ؟ وأيم الله لقد عقدت الحلق ، ولبست من الدهر الجديد والخلق ، وفككت الفلق وابعدت في الصبوة الطلق ، وخضت المنون ، وصدت الضب والنون[1] ، وحذقت الفنون وقدت بعد سليمان الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت لمرض العيون"[2] ، الى أن يقول : " فآها والله على عمر قد مضى وخلف مضضا .. الخ "[3] ثم بعد ذلك يجهش الشيخ بالبكاء وينشد أبياتا منها قوله :

" لقد مات اخواني الصالحون .·. فما لي صديق ولا لي عماد
اذا أقبل الصبح ولى السرور .·. وان أقبل الليل ولى الرقاد"[4]

فتمتلك الراوى رقة للشيخ ، فيدخل عليه ويقول له : " على رسلك أيها الشيخ ، شاب حنت الى حوار ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بنار .."[5] ثم بعد حوار بين الراوى والشيخ يطلب الراوى منه أن يصف له البلاد الأندلسية ، ويتلوها بالبلاد المغربية (المرينية) ويبدأ الراوى في ذكر اسم المدينة ، والشيخ يتحدث عنها الى أن تنتهي المقامة بعد عرض لأكثر مدن الأندلس،

---

(١) النون : الحوت.
(٢) مشاهدات لسان الدين ، ص ٧١ ، ٧٢ .
(٣) السابق ، ص ٧٢ .
(٤) السابق ، ص ٧٣ .
(٥) السابق والصفحة.

ثم يطلب الشيخ (بطل المقامة) من الراوى بعض المال ، وينام الجميع بعد ذلك ، ويستيقظ الراوى فلا يجد الا مكان الشيخ فيتحسر على ذلك ، ويقول متأسيا (لكل اجتماع من خليلين فرقه)".[1]

وبهذا ينتهي الفصل الأول أو المجلس الأول من المقامة ، وهو في وصف مدن الأندلس ، ويبدأ بعده المجلس الثاني وهو في وصف بعض مدن المغرب ، ويفتتحه ابن الخطيب بقوله : " قال المخبر: فلما اندمل جرح الفراق ، بعد طول ، وزمان مطول ، ومحا رسم التذكر تكرر الفصول ، ... ، ... ، ... ، بينا أنا ذات يوم في بعض أسواق الغبار ، أسرح طرف الاعتبار في أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب ، ... ، ... ، ... ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون[2] ، وسل سيف لاطون[3] ، ... ، ... ، وأمامه تلميذ قد شمر الأكمام ، والتفت الخلف والأمام ، ... ، ... ، ويقول (أى الشيخ) : أيها البهم السارح ، والحزب المسرور بما لديه الفارح ، والسرب الذى تقتاته لولاة البغي الجوارح ، صرفتم غروب اعتنائكم لمآرب نسائكم وابنائكم ، وذهلتم عمّن حلّ بفنائكم ، ... ، ... ، ... ، أنا قاطع الدماء اذا نزفت ، وكاشف الغماء اذا ما انكشفت ،

---

(١) السابق ، ص ٩٧.

(٢) القيطون : بمعنى الخيمة في لغة أهل المغرب - راجع مشاهدات لسان الدين ص ٩٨ هامش (١).

(٣) لاطون : ربما (النحاس) راجع مشاهدات لسان الدين ص ٩٨ هامش (٢).

أهنأ[(١)] الابل فلا تجرب ، وأحط حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وأدخن بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب"[(٢)] الى أن يقول : "وأما معرفتي بالأخبار ،، وذرع الأرض بالأشبار ، ... ، وأوصاف المدن الكبار ، فقد ثبت بالاخبار ، قال (أى الراوى): فأشار قديمي ، وأذكرني بنديمي ، فقلت : الله أكبر ، أوضح الخبر المخبر ، فخضت اليه من بيني وبينه ، وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، ... ، ... ، ... ، وقلت : أيها الحبر ، ضالتي قريب أمدها ، معروف معتمدها ، وعلى ذلك فالشكر ممنوح ، والرفد طوفان نوح ، فألن العريكة ، وسلم النطع والعريكة ،[(٣)] وقال : أجل واعرض ، وأنزل السؤال وافرض ، فقلت: بي الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون".[(٤)]

ثم يدور حوار بينهما كالسابق ، فيذكر الراوى اسم المدينة ، والشيخ يصفها بحديث يطول ويقصر الى أن يعرض أهم مدن المغرب.

وينهي ابن الخطيب مقامته بقوله على لسان الراوى " ثم لما وصل الى هذا الحد نظر (أى الشيخ) الى حاج السوق قد أفاض ، ومزاده أعمل فيه الانفاض ، وعلوّ الأصوات به قد صار

---

(١) هنأ البعير: اذا طلاه بالقطران.
(٢) مشاهدات لسان الدين ، ص ٩٨.
(٣) في الريحانة: (فألان العريكه ،وسلم النطع والأريكه) ولعلها أصح .
(٤) مشاهدات لسان الدين ، ص ١٠٠.

الى الانخفاض ، فقال : وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شيء الى تمام ، ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين[1] فأرقته ، وقلت له : لأحكمنك من كرام بني الأصفر ، في العدد الأفر ، ماثلة في اللباس المزعفر ، فلما خضب كفيه بحنائها ، وحصلت النفس على استغنائها استدناني ، وشبك بنانه ببناني ، وقال : لاحبط عملك ، ولا خاب أملك .... ، .... "[2] ثم يقول الراوى: "واستثبت مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه وحماره ونبيذه ، وقد تنكر بالخضاب المموه ، والزى المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوه ، فقلت: هيه ، أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يجحد أو ينكر ، كيف الحال بعدى ، وماعتذارك عن اخلاف وعدى ، فقال :

خذ من زمانك ماتيسر ∴ واترك بجهدك ماتعسر

الى أن يقول :

واذا امرؤ خسر الاله ∴ فليس خلق منه أخسر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط في الغمار ، وتركني اتقرئ الآثار ، وكل نظم فالى انتشار"[3] وبهذا تنتهي المقامة.

---

(١) العين : الذهب.
(٢) مشاهدات لسان الدين ، ص ١١٥ .
(٣) السابق والصفحة.

وهذه المقامة هي في الأصل كتاب أو رسالة صيغت في قالب المقامات ، وقد ألفها ابن الخطيب ، كما يروى في النفاضة ، أثناء المدة التي قضاها بمدينة سلا ، أى بين عامي (٧٦٠ - ٧٦٣هـ).[1]

ولا يهمنا معرفة سنة تأليف هذه المقامة بقدر مايهمنا ماتمتاز به من حيث الاسلوب والشكل والقيمة الفنية.

وأول مايلفت الانتباه في هذه المقامة عدم خلوها من الراوى والبطل ، فالراوى هنا موجود وكذلك البطل ، وهو الشيخ ، ولكن المقامة لاتعتمد في أساسها على عنصر الكدية ، كما كانت عند البديع والحريرى ، كما أنها تخلو من القصة أو الحدث الذى يؤدى الى النتيجة ، وكل مافيها أن الراوى يلتقي بالبطل ، ويدور بينهما حوار عن مدن الأندلس ، ويفترقان ثم يلتقيان مرة أخرى ، فيدور بينهما حوار مماثل عن مدن المغرب ، وان كان ابن الخطيب يحاول في آخر فصلي المقامة أن يدخل عنصر الاستجداء ، ولكنه يختلف عن عنصر الكدية الذى نجده عند الهمذاني والحريرى ، اذ هما يقيمان المقامة على هذا العنصر.

واذا ماقورنت مقامة ابن الخطيب هذه بالرسالة الأولى وجد أن المقامتين أو الرسالتين تختلفان من حيث الغرض والهدف ، فالأولى صيغت على شكل رسالة مدح وشكر ، ويهدف ابن

---

(١) راجع: نفاضة الجراب ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ومشاهدات لسان الدين ص ١٢.

الخطيب من خلالها الى اظهار قدراته التعبيرية أمام كتاب المغرب، أما هذه فغرضها وصف جغرافي للبلدان، وابن الخطيب يهدف فيها الى التعريف بمدن الأندلس والمغرب من خلال نظرته المتولدة عن تجاربه الشخصية، وربما كان الباعث الذى دفع به للكتابة في هذا الموضوع بالذات، هو عمله كوزير وسياسي يهتم بشئون الدولة.

وأخيرا فان مقامة (معيار الاختيار) تعد من باب المقامات من حيث البناء الفني أو الشكل الظاهر، أما من حيث الموضوع فهي أقرب الى الأدب الجغرافي، اذ تشتمل على أوصاف لبعض مدن المغرب والأندلس، ولذا سنتعرض لها في فصل الأدب الجغرافي.

... ...

الرسالة السادسة: (مقامة السياسة)[1]

وهذه هي أشهر مقامات ابن الخطيب، وأجودها، ولا يعرف بالضبط تاريخ كتابتها، ولكن الثابت أنه ألفها قبل كتاب الاحاطة، أى قبل عام ٧٦٩ هـ، فهو قد ذكرها ضمن تواليفه التي ذكرها في آخر الاحاطة،[2] بل وأدرجها كاملة في كتاب الاحاطة،[3] وقال انه أملاها في ليلة واحدة.

---

(١) انظر ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٣١٦، ونفح الطيب مج / ٦ ص ٤٣١.
(٢) انظر: الاحاطة مج / ٤ ص ٤٥٩.
(٣) انظر: الاحاطة مج / ٤ ص ٦١٤، وريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٣١٦ هامش

والمقامة تحتوى على راو يعرفه ابن الخطيب بوصف طويل ، يقول : " حدث من امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجة الاشتهار ، بنقل حوادث الليل والنهار ، وولج بين الكمائم والأزهار ، وتلطف بخجل الورد من تبسم البهار ..".(١)

ثم يروى هذا الراوى قصة موجزها أن الرشيد سهر ذات ليلة ، وشعر بالملل فأرسل رجاله الى الطرق ، وطلب أن يحضروا من يجدوا ، فعادوا له برجل أشعث أغبر ، طويل القامة ، " فابتدره الرشيد سائلا ، وانحرف اليه مائلا ، وقال : من الرجل ؟ فقال : فارسي الأصل أعجمي اللسان ، عربي الفصل ، قال (أى الرشيد) ، بلدك وأهلك وولدك ؟ فقال : أما الولد فولد الديوان ، وأما البلد فمدينة الايوان ، قال : النحلة وماأعملت عليه الرحلة ؟ قال : أما الرحلة فالاعتبار ، وأما النحلة فالأمور الكبار ، قال : فنك الذى اشتمل عليه دنك ، فقال : الحكمة فني الذى جعلته أثيرا ، وأضجعت فيه فراشا وثيرا ، وسبحان الذى يقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ، وماسوى ذلك فتبيع ، ولي فيه مصطاف وربيع ، فقال (أى الراوى) : فتعاضد جذل الرشيد وتوفر ، وكأنما أغشي وجهه قطعة من الصبح اذا أسفر ، وقال مارأيت كالليلة أجمع لأمل شارد ، وأنعم بموانسة وارد ، ياهذا انى سائلك ، ولن تخيب بعد وسائلك ، فأخبرني بما عندك في هذا الأمر الذى بلينا بحمل أعبائه ..".(٢)

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٣١٦.
(٢) السابق ، ص ٣١٧ ، ٣١٨.

ثم بعد ذلك يبدأ الرجل الحكيم بالحديث عن السياسة ، فيبين حقوق الرعيه وواجباتها ، ثم يبين فضل الوزراء ، وكيف تكون معاملتهم ، ثم الجند ، وفائدتهم ، وكيف يمكن للحاكم أن يسيطر على أهوائهم وحركاتهم ، ثم العمّال والولاة ، ثم الولد والنسل ، فالخدم ، فالنساء والحرم ، ثم يبين بعد ذلك فضل العلماء ، ووجوب احترامهم . كل ذلك في حديث طويل مفصل مسجع ، وينتهي بعد ذلك من الحديث ليرى الليل قد انتصف ، فيطلب عودا ويصلحه ويغني عليه بأبيات طويلة ، ثم يحيل اللحن الى التنويم ، لينام الجميع وينسل الرجل فيستيقظ الرشيد ولا يجده ، ويأسف لفراقه ، فيأمر بتخليد حكمه في بطون الأوراق ، وبهذا تنتهي المقامه .

والمقامة طويلة جدا تقع في أكثر من أربع عشرة صفحة ، وهي كسابقتها لا تعتمد على عنصر الكدية ولا تقوم عليها ، وانما هي رسالة أدبية موضوعها السياسة ، وقد بنيت على شكل مقامة يدور فيها حوار بين الرشيد والحكيم الفارسي ، ولعل ابن الخطيب قد " اصطنع هذا الأسلوب تشويقا الى قراءتها للافادة مما اشتملت عليه من قيم سياسية وهذه القيم التي أطلقها ابن الخطيب على لسان الحكيم الفارسي ليست في الواقع الا خلاصة آرائه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم الذى يرجى له النجاح والدوام "[1] ومن المؤكد

---

(١) الأدب العربي في الأندلس ، ص ٤٩٥ .

أن ابـن الخطيب يهدف من وراء ذلك الى تعليم ملوك عصره شيئا من فنون السياسة عن طريق غير مباشر.

ويبدو أن ابن الخطيب قد قرأ قصص ألف ليلة، وتأثر بها، واستفاد منها في بنائه لهذه المقامة، ذلك لأنه بني مقامته هذه حول هارون الرشيد، ومعروف أن أكثر قصص ألف ليلة وليلة تدور حول هارون الرشيد أيضا، ثم ان هذه المقامة تشبه في شكلها الى حد ما قصص ألف ليلة وليلة التي عرفت بين المسلمين منذ القرن العاشر الميلادى،[1] أى قبل القرن الذى ظهر فيه ابن الخطيب بأربعة قرون.

ويلاحظ في المقامة أنها تحتوى على بطلين هما (الرشيد، والحكيم الفارسي) بالاضافة الى راوى المقامة الذى سبق الحديث عنه.

وربما كان اختيار ابن الخطيب، حكيم مقامته من فارس لما عرف عن الفرس في العصور القديمة من قدرتهم على تنظيم الدواوين، وترتيب أمور السياسة، واعتماد العباسيين أول ظهورهم عليهم في ادارة أمور الدولة.

وتمتاز هذه المقامة عن سابقتها ـ من حيث الأسلوب ـ بندرة الاقتباس من القرآن الكريم، وبندرة تضمين الشعر، وقد

---

(١) انظر: النقد الأدبي الحديث، ص ٤٩٤.

بناها ابن الخطيب على نوعين من فن البديع هما (السجع والجناس) في أسلوب يتميز بالسهولة مع محاولة انتقاء الجيد من الألفاظ، غير أنها لا تخلو من الاسهاب الذى هو طابع نثر ابن الخطيب.

والواقع أن هذه المقامة تتميز عن أغلب ما كتب ابن الخطيب فهو رغم التزامه فيها السجع والجناس الا أن ذلك لا يجعله يغلب اللفظ على المعنى، بل يشعر القارئ أحيانا أن ابن الخطيب استطاع تطويع اللفظ المسجوع للمعنى الى حد ما.

وعموما فان هذه المقامة أقرب الى الرسائل الأدبية من حيث موضوعها، وان اتخذت في شكلها الظاهر أو بنائها الفني شكل المقامة، وسنشير لها في فصل الرسائل الأدبية.

... ...

الرسالة السابعة: [1]

هي المقامة المسماة (كتاب الاشارة الى أدب الوزارة) وموضوع هذه المقامة السياسة أيضا وهذا يتضح من عنوانها، وهي أيضا لا يعرف تاريخ تأليفها بالضبط الا أن ابن الخطيب ذكرها ضمن تواليفه في آخر الاحاطة، [2] مما يدل على أنه ألفها قبل عام ٧٦٩ هـ.

---

(١) انظر: ريحانة الكتاب مج/ ٢ ص ٣٣٥.
(٢) راجع: مج/ ٤ ص ٤٥٩.

ويفتتح ابن الخطيب كتابه هذا (أو مقامته هذه) بالحمدلة والصلاة على النبي الكريم عليه السلام، ثم يقدم لها بعد ذلك بمقدمة يقول فيها: "ان من دعا الى الله — أيها الوزير الصالح السعيد — بعصمة يضفي عليك لباسها، وعزة يصدق عليك قياسها، ...، ...، فانما دعا للدولة بتأييدها وللملة بتمهيدها، وللمملكة بتجديدها، فقد ظهر من عنايته بك اختيارك، ومن حسن أثره في نصرك ايثارك، وهو الكفيل لك بالمزيد من آلائه، وموصول بنعمائه، واني لما رأيت برك دينا يجب عليّ قضاؤه، ولا يجمل بي القاؤه، تخيرت لك في الهدايا مايملأ اليد، ويصاحب الأمد، وينجب العقب والولد، فلم أجد أجدى من حديث الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا، من أمل لرتبتها السامية فقد أحل محلا كبيرا، والوصاة التي تنفعك من حيث كنت وزيرا، والموعظة التي تفيدك تنبيها من الغفلة وتذكيرا، فاخترعت لك وضعا غريبا، وغرضا قريبا، ...، ...، ...، جانحا الى الاختصار، عادلا الى الاكثار، منسوبا الى بعض الحيوان، على عادة الأول ممن صنف في السياسة قبلي، أو ذهب لما ذهبت اليه من فعلي، فقلت وبالله العون والقوة، ومنه نلتمس السعادة المرجوة".(١)

ويلاحظ أن هذه المقدمة كبيرة الشبه بالاهداء الذى تصدر به بعض الكتب في عصرنا، فربما كان هذا الاهداء موجها الى

---

(١) ريحانة الكتاب مج/٢ ص ٣٣٥.

وزيــر بعينـه ، وربما كان موجهـا الى كل مـن يهمـه أمـر الوزارة ،أو يأمل في بلوغهـا ، اذ لا يمكن القطـع باسـم شخـص معـين وجـه لـه هـــذا الكتـاب ، أو هـذه الرسـالة أو المقامـــة.

وبعـد المقدمـة يسـند ابن الخطيـب مقامته الى راو لا يسميـــه ، وانمـا يصفـه بقولـه : " حكى مـن يكلـف برعي الآداب السوائم ، ويعـنى باستنـزال الحـكم الحوائم ، ويقيـد المعـاني الشـاردة علـى ألسنـــة البهـــائم ". (١)

ويسـرد هـذا الـراوى قصـة موجـزها : أن نسـرا يكـنى أبـا فـــروة ، كان وزيـرا للأسـد ملـك الغـابـة ، وكـان مـن خـيرة الـوزراء ، ولكنـه كبر وشـاخ فتقـدم الى ملكـه طالبـا السمـاح لـه بـترك الوزارة ، فيوافـق الأسـد علـى ذلـك ، ويأمـر بنقـل الوزارة الى ابـن النسـر ، ويفضـــل النسـر الأب قضـاء بقيـة حياتـه زاهـدا معتـكفا ، فيتوجـه ابنـه اليـــه في معتكفـه ، ويطـلـب منـه النصيحـة ، عنـد ذلـك يبـدأ النسـر فـــي نصـح ابنـه وارشـاده وتعريفـه آداب الـوزارة ، فـي حـديث طويـــل ، يبـدأه بمقدمـة فـي فصـول يـورد خـلالـهـا معـنى الـوزارة ، وشيئـــا مـن تاريخهـا وشروطهـا ، ثم يقسـم وصـاتـه الـى أركـان ستـة يشتمـــل بعضهـا علـى فصـول : " الركـن الأول : وهـو العقـد الـذى عليـــــه المعـول فيمـا يستشعـره الوزيـر بينـه وبـين نفســه ". (٢)

---

(١) الســابـق والصفحـــة.
(٢) الســابـق ، ص ٣٤٢.

- "الركن الثاني : فيما يستشعره الوزير مع الملك ، ليأمن عادية الأمر المرتبك . . ".[1]

- " الركن الثالث: فيما يحذره من تقدم الملك عليه في الأمر الذى أسند اليه . . ".[2]

- " الركن الرابع: في تصنيف أخلاق الملوك ، للسير بمقتضاها والسلوك . . ".[3]

- " الركن الخامس: في سيرته مع من يتطلع لهضبته ، ويحسده على رتبته . . ".[4]

- " الركن السادس: فيما تساس به الخاصة والبطانة ، وذوو الدّالة والمكانة . . ".[5]

وينهي ابن الخطيب مقامته على لسان راوية بعد ذلك بقوله : " فلما استوفى في النمر مقاله ، وأحرز الشبل سؤاله ، وقرر حاله ، انصرف متجها الى خدمته ، وصرف النمر الى العبادة وجه همته ، ثم لحق بعد ذلك بجوار ربه ورحمته ، وقيد الحاكي ماأفادته هذه المحاورة ، لتلقى ربما يقتضي[6] ، وحلما به يهتدى اذا ذهب الأثر وعفا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل".[7]

---

(١) السابق ، ص ٣٤٥.
(٢) السابق ، ص ٣٤٧.
(٣) السابق ، ص ٣٤٩.
(٤) السابق ، ص ٣٥٠.
(٥) السابق ، ص ٣٥٢.
(٦) ربما الصحيح (يقتفى) لتوافق السجعة.
(٧) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٣٥٤.

وهـذه المقامـة في أصلهـا كتـاب ، ذكـره ابن الخطيـب في آخـر الاحاطـة[1] ، كما ذكـره المقـرى في نفـح الطيب عنـد ذكـره لتواليـف لسـان الديـن[2] ، وقـد أدرجـه ابن الخطيب في بـاب المقامـات عنـد تصنيفـه للريحانـة ، وذلـك نظـرا لاتخـاذه شـكل القصـة أو المقامـة الى حـد مـا .

وتختلـف هـذه المقامـة عـن مقامات ابن الخطيـب الأخـرى مـن حيث كـون الأبطـال فيهـا مـن عـالم الحيوان ، بخـلاف سابقاتهـا ، ومـن حيـث تقسيمهـا الى فصـول وأركـان يشتمـل بعضهـا على فصـول .

ومـن يقـرأ مقـامـة ابن الخطيـب هـذه لا يغـامـره شـك في أنـه قـد تأثـر في صياغتهـا بهـذا الشـكل بكتـاب (كليـلة ودمنـة) لابـن المقفـع المتوفى عـام ١٤٢ هـ ، خاصـة وأنـه قـد أشـار الـى شـيء مـن ذلـك فـي مقدمتـه التي سـلـف ايرادهـا حيث يقـول : " فـلـم أجـد أجدى مـن حـديث الحـكمة ، .... ، ... ، ... ، منسـوبـا الـى بعـض الحيـوان على عـادة الأول ممـن صنـف في السياسـة قبـلي ." [3]

ويبـني ابن الخطيـب مقامـته هـذه على السجـع والجناس أيضـا ، مـن ذلـك قـولـه عـلى لسـان النمـر مخاطبـا شبـلـه : " ياولـدى الـذى رجـوتـه لخـلف شخصـي ، وتتمـيم نقصـي ، وفضـل الحكمـة عني ، وسـتر

---

(١) انظـر: مـج / ٤ ص ٤٥٩ .
(٢) انظـر: نفـح الطيـب مـج / ٧ ص ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) ريحـانـة الكتـاب مـج / ٢ ص ٣٣٥ .

الجزء الأرضي مني ، طالما ابتهلت الى الله في سدادك ، واستدعيت حكماء الهياكل المقدسة لارشادك ، فلو استغنى أحد عن موعظة توقظ من نوم ، أو سداد رأى يعصم من لوم ، . . . . ، . . . ، لكنت بذلك خليقا ، ومن أسر الافتقار طليقا ، لكن الانسان لما تزيده ذو فاقه ، . . . . ، . . . . ، . . . ، ومتى ظن بنفسه غير ذلك فهي حماقة ، وبحسب مايحاوله أو يحاوره يكون افتقاره لمن يشاوره . . "(١).

وأحيانا يستخدم السجع القصير الفقرات كقوله في شروط الوزير: " يشترط فيه أن يكون قديم النعمة ، بعيد الهمة ، مكين الرأفة والرحمة ، كريم العيب ، نقي الجيب ، مسدد السهم ، ثاقب الفهم ، واثبا عند الفرصة ، واصفا للقصة ، . . . ، . . . ، موفور الأمانة ، أصيل الديانة ، قاهرا للهوى ، مستشعرا للتقوى ، . . . . ، . . . ، جليل القدر ، رحب الصدر ، مشهور العفة ، معتدل الكفة . . "(٢).

ويقل في هذه المقامة الاقتباس من القرآن الكريم ،والتضمين من الشعر ، الا أنها تحتوى على نوع آخر من التضمين ، ذلك هو تضمين بعض الحوادث والقصص ، فابن الخطيب عندما يضع بعض الآراء أو القيم يحاول أن يبرهن على صحتها من خلال قصة

---

(١) السابق ، ص ٣٣٩.
(٢) السابق ، ص ٣٤٢.

يوردها بايجاز داخل المقامة ، نحو قوله على لسان النمر محدثا شبله : " واصبر على ذوى الفاقة ، ... ، واياك والضجر ، فانه يكدر الصفو ، ويذهب العفو ، ويبقي الفلتة الشنيعة ، ويفسد الصنيعة ، وقد ركل أبو عباد الوزير رجلا برجله ، فرفع الى الخليفة من أجله :

قل للخليفة ياابن عم محمد ∴ اشكل وزيرك انه ركال
اشكله عن ركل الرجال وان ترد ∴ مالا فعند وزيرك الأموال

وتركها مثلا يذكر ، وفلتة لاتنكر ... ".[1]

وعلى نحو قوله في موضع آخر: " ولا تخف من طاعة الملك الا ماوافق طاعة ربه يضع الله تجلتك في ذاته ، واذكر قول الوزير المتقدم ، وقد أمره الملك المسلط بقتل رجل ، وتلطف فسبق له عن ذنبه ، بما جرّ عظيم انكاره وفظيع عتبه : أيها الملك السعيد لو كنت مالكي وحدك ، لأنفذت من غير مهلة أمرك ، وشرحت بالامتثال صدرك ، ولكنك تملك ظاهرى وحده ، ولي من يملكه ومابعده ، واذا أنفذت عهدك ، نكثت عهده ، واذا خرجت من يدك ، دخلت في يده التي لاتمتنع ، فكيف أصنع ، وله الأمر أجمع وأنا لك في طاعته من شراك نعليك أطوع ، فبكى الملك الجاهل لصدق حجته ، وحمل الرجلين

---

(١) السابق ، ص ٣٤٤.

من العفو على أوضح محجته".[1]

وثمة شئ يجدر الاشارة اليه ، ذلك أن ابن الخطيب وان كان قد بنى مقامته على ألسنة الحيوانات الا أنه لا يلتزم في داخل الحوار الحديث عن الحيوانات أو عن مملكة الحيوانات على نحو قوله : " واعلم أن المملكة البشرية الخليقة بالافتقار الحريسة ، لما كان راعيها مركبا من أضداد متغايرة ، ... ، لم يكمل حراسة ماوكل اليه بنفسه ، ... ، فاحتاج الى وزير من جنسه".[2] ونحو قوله : " ولا تحتجب عن الناس يغشو بفضك ، ...".[3]

وبدهي أنه لا يقصد سياسة لعالم الحيوان ، ولكن كان من الأجدر به أن يلتزم داخل حواره الحديث عن الحيوان ، وعن المملكة الحيوانية ، لتتم له الصورة الرمزية التي أراد .

وكأن ابن الخطيب في هذه المقامة يحاول أن يضع لنفسه منهجا مثاليا يسير عليه في أمور الوزارة التي أسندت اليه ، غير أنه وان حاول وضع الحوار على ألسنة البهائم ، وبنى الموضوع على شكل مقامة أو قصة ، الا أنه عالجه بطريقة مباشرة ، تخلو من الصراع أو الحدث الذى يؤدى بالتالي الى النتيجة ، ومن هنا كانت هذه المقامة بمثابة رسالة أدبية مليئة بالقواعد

---

(١) السابق ، ص ٣٤٧.
(٢) السابق ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣.
(٣) السابق ، ص ٣٤٥.

والأسس السياسية.

وتحتوى هذه المقامة على الكثير من الارشادات والقيم السياسية التي تهم من يبلغ منصب الوزارة من ناحية ، وتبين من ناحية أخرى مدى ماوصل اليه الفكر السياسي الاسلامي في القرن الثامن الهجرى ، وهي في حقيقتها خلاصة تجربة رجل ، أمضى جل عمره في السياسة ، يعرضها في شكل مقبول وبأسلوب يمتاز بالسلاسة والسهولة والوضوح ، وان كان فيه بعض الاسهاب والتطويل.

وأخيرا فان هذه المقامة أيضا تعد من الرسائل الأدبية من حيث موضوعها أو مضمونها وان اتخذت في بنائها الفني شكل المقامات ، وسنشير لها في فصل الرسائل الأدبية.

... ...

الرسالة الثامنة: " مفاخرة مالقة وسلا "[(١)]:

وهي في الواقع ليست من المقامات في شئ اذ تخلو من عناصر المقامة ، وماهي الا رسالة في وصف البلدان ، ولذا فهي أقرب الى الأدب الجغرافي منها الى المقامات ، ولهذا سنعرض لها بالحديث في فصل الأدب الجغرافي.

... ...

---

(١) وردت في الريحانة مج / ٢ ص ٣٥٥ ،وفي مشاهدات لسان الدين ص ٥٧.

الرسالة التاسعة :

ومما يدخل في فن المقامات رسالته التي أوردها في روضة التعريف[1] ، وجعلها خاتمة للفصل المسمى (غصن المحبين) ، وصدرها بقوله : " خاتمة تشتمل على اشارات ، وتختال من الحق في شارات ".[2]

والحق أن ابن الخطيب لم يشر الى أنها مقامة غير أنها تقترب في شكلها من المقامات ، اذ هي على طريقة القصة ، ويرويها راو مكنى عنه بأوصاف ، ويبدؤها ابن الخطيب بقوله : " قال بعض من يطأ بمطية السلوك حمى الملوك ، وينفض زوايا الغيوب عن المطلوب ، ويبصر بصائر القلوب ".[3]

ويعتمد فيها ابن الخطيب على خيال جامح ، فيتحدث في بدايتها عن أصناف المحبين وطرقهم في الوصول الى الله ، ثم يتحدث عن موقفهم يوم القيامة ، ومحاسبتهم ، وعن الرقاع التي أخذوها ، ومحتوى كل رقعة ، كل ذلك في حديث مسجع مليئ بالاصطلاحات الصوفية .

يقول في أولها على لسان الراوى : " شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد ، وتباين الآفاق ، لا أدرى أقال

---

(١) مج / ٢ ص ٦٣١ .
(٢) روضة التعريف مج / ٢ ص ٦٣١ .
(٣) السابق والصفحة .

(أى الراوى) كشفا وشهودا ، أم يقظة أم هجودا ، وقد ركضوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بعصيّ المشارب والأذواق ، وتزودوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعوائق ، واستسهلوا في المحبوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجواد واقتحام المضايق ، والطرق الى الله عدد أنفاس الخلائق".[1]

ثم يتحدث عن أصناف هؤلاء ، موردا خلال ذلك بعض الأشعار ، الى أن يقول : " وأوصلوا رقاع شكواهم ، بسرائر هواهم ، ويرزوا صفا ، ... ، ... ، وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتبذت الأصناف وتحيزت ، والعشاق نجست ، ... ، منهم الصقورة[2] والمجان ، والحرافيش والبهلوان[3] ، ممن يعول على ذراعه وقراعه ، وملاكمته وصراعه ، وطول باعه ، وصلابة طباعه ، وسلاطة لسانه ، وامتزاج اساءته باحسانه ، شأنه البحث عن المحبوب مع الشروق والغروب ، والتوصل الى وصله المطلوب ، بالحركة الرشيقة ، واللغظ الخلوب ، ... ، ... ، ... ، ومنهم بداة ليس لهم الى المنادمة أداة ، تعذر عليهم تمييز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تنزيهه فأفرطوا .

ربما ضرّ عاشق معشوقا ∴ ومن البّر مايكون عقوقا

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) كذا ، وربما كانت الصفوة.
(٣) الحرفش والحربش ، الأفعى ، وهنا الماكر من الناس ، والبهلوان (معرب من الفارسية) الذى يحاول ادهاش الناس بأشياء غريبة كالألعاب وغيرها ،انظر روضة التعريف مج / ٢ ص ٦٣٤ ،هامش(١٥٥٢).

وغلبت على سجيتهم السلامة ، ولم تنلهم ... الملامة ".[1]

ويستمر في حديثه عن أصناف المحبين ، فيقول: " ومنهم من شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف والعصمة ، والكتم للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، ... ، ... ، ... ، ومنهم مغلوب الحال ، المحمول من فوق الرحال ، رقص وشطح ، وسكر فافتضح ، ... ، ... ، ... ، ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حد ولا مقت ، ولا حال ولا وقت ، لو نطق لقال: (أنا المعدوم الموجود ، والشاهد والمشهود) .. الخ ".[2]

ثم يصف الراوى حالهم عند تسلمهم صحائف الأعمال، يوم القيامة ، فيقول : " ولم يكن الا أن خرجت الرقاع ، وفضلت البقاع ، (ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون)[3] فكان في رقعة طائفة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء)[4] قلد تم العقل وله طور ، ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يسبر له غور ، ... ، ... ، ويا شرّ ماأصبحتم في المبدأ الأول تعتقدونه ، اذ جعلتم التصرف في عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا امكانكم ، واستروا شأنكم ،

---

(١) روضة التعريف مج / ٢ ص ٦٣٤.
(٢) السابق ، ص ٦٣٥.
(٣) آية (٢٥) آل عمران.
(٤) آية (٥١) الشورى.

وكان في أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)[١] أساطين الحكمة المشرقية، وفراش الأنوار الخفية، دعونا من استكثار الأنوار، واحتشاد الأطوار، فالحق نور، لا يعيّن حسن ذاته، الا من ركب ظهر افتياته، فارفعوا الكلف، واجروا مجرى من تقدم وسلف".[٢]

وهكذا يستمر في سرد نصوص كل رقعة، مصدرا لكل نص بآية قرآنية، ومستخدما في كل نص عبارات ومصطلحات صوفية، ويتحدث خلال هذه النصوص عن بعض الفرق والمذاهب والأديان، ويجعل الحديث عن المحبين في آخر رقعة في الرسالة أو المقامة، اذ يقول: "وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا، من بعد ما تخيروا للاصطفاء وتنخلوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم، وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)[٣] أنتم الأحباب، ولبّ اللباب، وبواسطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب، لولاكم لم يفتح الباب، فلا يصل الا من أوصلتم، ولا يحجب الا من قطعتم وفصلتم، أنتم الرعاة والخلق الهمل، وأنتم الدعاة لمن يريد نيل الأمل، ويكون الرسول الخاتم عليكم شهيدا، فطوبى لمن أصاخ منكم

---

(١) آية (١٣) الحديد.
(٢) روضة التعريف مج/٢ ص ٦٣٦.
(٣) آية (٣٤) آل عمران.

الى نداه ، واستضاء بنور هداه ، وصلوات الله عليكم أبدا ، أنتم أولو الألوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهل المحبة ، وأدلاء مبتغي الوسيلة والقربة[(١)] .. الى أن يقول : " قال المخبر: فرأيت وجوه قوم قد تهللت ، ونواسم المسرات نحوهم قد أقبلت ، ومن سواهم من خالص وزائف ، بين راج وخائف ، وسمعت أن طائفة قد استدعيت بحب حفي ، وأدخلت من باب خفي ، وقيل لي : هم أصحاب الجزاء المكتوم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله منهم برحمته وفضله".[(٢)]

ويختم هذه الرسالة بأبيات يقول فيها :

"ولولا الحب ماقطعوا الفيافي .·. ولولا الحب ماركبوا البحارا
فدعهم والذى ركبوا اليه .·. وبحثا عن خلاصك واختبارا
ولا تشغل بحب ديار ليلى .·. ولكن حب من سكن الديارا"[(٣)]

... ...

وبعد استعراض الرسائل والكتب والمقامات التى أدرجها ابن الخطيب في باب المقامات من كتابه ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، والرسالة التي ختم بها فصل (غصن المحبين) في كتاب روضة التعريف بالحب الشريف ، يخلص له أربع مقامات هي : { قطع الفلاة بأخبار الولاة ، وكتاب معيار الاختيار ، ورسالة

---

(١) روضة التعريف مج / ٢ ص ٦٣٩ .
(٢) السابق ، ص ٦٤٠ .
(٣) السابق والصفحة.

السياسة ، وكتاب الاشارة في أدب الوزارة) فهذه الأربع تقترب من حيث البناء الفني من شكل المقامات المعروف قديما ، من حيث وجود رواة وأبطال فيها ، كما أن فيها عنصر الحوار.

الا أنها جميعا لاتعتمد على عنصر الكدية الذى تقوم عليه مقامات بديع الزمان والحريرى ، ولذا خلت من الحركة أو الحدث أو الصراع الذى يؤدى الى النتيجة ، وجاءت جميعا باردة في شكل حوار يعتمد على السؤال والجواب.

ويمكن القول أن كتاب معيار الاختيار ، يدخل في باب المقامات من حيث البناء الفني أو الشكل الظاهر ، الا أنه في مضمونه أقرب الى الأدب الجغرافي ، أو أدب الرحلات.

ورسالة السياسة ، وكتاب الاشارة في أدب الوزارة ، في مضمونهما أقرب الى الرسائل الأدبية ، وان كانتا أيضا تدخلان في باب المقامات من حيث البناء الفني أو الشكل الظاهر.

أما خطرة الطيف ومفاخرة مالقة وسلا ، فهي من الأدب الجغرافي أو أدب الرحلات ، وليست من المقامات في شيء اذ تخلو من عناصرها .

وكذلك الرسالة التي ختم بها فصل (غصن المحبين) في روضة التعريف ، ليست من المقامات لأنها -وان وجد بها راو- تخلو من البطل ، كما تخلو من عنصر الحوار ، ولا تعتمد على عنصر الكدية ، ثم ان موضوعها ، وان صيغ في أسلوب أدبي ، الا أنه

أقرب الى نثر التصوف منه الى الرسائل الأدبية.

وتبقى بعد ذلك الرسالة التي بنيت على حرف السين ،وكان من الأجدر أن توضع ضمن الرسائل الأخوانية ، غير أن ابن الخطيب لزم فيها مالا يلزم ، فجاءت نادرة في صياغتها ، ولهذا أدخلها ضمن المقامات ، وعدّها منها ، لتوسع مفهوم المقامة في عصره ، وان كانت لا تحتوى على أى عنصر من عناصرها .

وهنا يبرز سؤالان :

الأول :هل صنف ابن الخطيب مقاماته ضمن كتاب خاص بها ، كما فعل الهمذاني ، والحريرى ، والسرقسطي وغيرهم ممن كتب في هذا الفن؟

الثاني :ماقيمة مقامات ابن الخطيب من الناحية الفنية أو الأدبية ؟

ويجاب على السؤال الأول بأن ابن الخطيب ذكر في ترجمته لنفسه في آخر الاحاطة تواليفه التي ألفها قبل اتمام الاحاطة،[1] وذكرها المقرى في نفح الطيب،[2] وأضاف اليها ماتأخر تأليفه عن الاحاطة ، هذا بالاضافة الى أن أكثر الذين حققوا تراث ابن الخطيب ذكروا في مقدماتهم مصنفاته ومؤلفاته ، ولم يذكر في كل ذلك أى كتاب خصص في مقامات ابن الخطيب.

---

(١) انظر:الاحاطة في أخبار غرناطة مج/ ٤ ص ٣٥٩ ومابعدها .
(٢) انظر: نفح الطيب مج/ ٧ ص ٩٧ ومابعدها .

ويبدو أن ابن الخطيب لم يضع مقاماته ليحاكي بها كتب المقامات ، وانما كانت في أغلبها عبارة عن مقالات ورسائل وكتب مختلفة الأغراض ، وجدها أثناء تصنيفه لرسائله التي وصفها في الريحانة[١] ، فأعجب بصياغتها وحسن أسلوبها ، فوضعها في باب المقامات لينظمها في سلك واحد ، خاصة وأن مفهوم المقامة في عصره قد اتسع ، كما أشرنا سلفا ، ومما يؤكد هذا أن كتاب الريحانة عبارة عن نتف وقطع مختلفة الأغراض مما كان كتبه قديما ، ثم جمعه وصنفه في أبواب ، وقد أشار هو الى ذلك في مقدمة الريحانة حيث يقول : " وسميته لتنوع بساتينه المشوقة ، وتعدد أفانينه المعشوقة ، ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ، وقسمته الى حمدلة ديوان ، وتهنئة أخوان " الى أن يقول : " وتتنوع أغراض هذا الريحان المنتشق الذكية العبق ، الى تحميد ثبت في صدور ماينسب لي من المصنفات ، وماألفي من الصدقات والبيعات ، .... ، ... ، ثم الى المقامات في الأغراض المختلفات ".[٢]

... ...

أما من ناحية القيمة الفنية والأدبية لمقامات ابن الخطيب ،

---

(١) أصدر هذا الكتاب أخيرا الأستاذ / محمد عبد الله عنان ، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠١هـ ، والحق أن هذا الكتاب لم ينل مايستحقه من عناية المختصين في تحقيق التراث من علماء العربية - فجاء كغيره من كتب ابن الخطيب التي أصدرها - مليئا بالغلط والخلط والتصحيف والتحريف ، مما عوق الانتفاع به .

(٢) ريحانة الكتاب مج / ١ ص ٢٠ .

فقد أشار الدكتور احسان عباس في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين) الى أن مقامات ابن الخطيب "ليس فيها مايشير الى تطور ما في طبيعة المقامة أو موضوعها، فقد كانت مقامات لسان الدين في الأكثر تدور حول الرحلات ووصف المدن".[١]

والواقع أنه من الاستعراض السابق لمقامات ابن الخطيب نجد أن له مقامات يظهر فيها التطور في الموضوع، فمقامة (قطع الغلاة بأخبار الولاة) موضوعها الهجاء والمديح، ومقامتي (السياسة، والوزارة) موضوعهما السياسة، هذا فضلا عن أن مقامة الوزارة قد صيغت على ألسنة الحيوانات.

وكلا هاتين المقامتين (السياسة، والوزارة) بالاضافة الى صياغتهما الفنية، تحتويان الكثير والكثير من الارشادات والقيم والمبادئ السياسية، التي لا تدل على مدى ماوصل اليه الفكر السياسي الاسلامي في القرن الثامن الهجري فحسب، بل تدل أيضا على قدرة هذا الأديب السياسي على تطويع السياسة للأدب، والأدب للسياسة.

أسلوبه في المقامات:

لا يختلف أسلوب ابن الخطيب كثيرا في مقاماته أو رسائله، عدا المقامة الأولى، التي لزم فيها مالا يلزم، حيث جعل حرف

---

(١) السابق، ص ٣٢٦.

السين في كل كلمة من كلماتها ، وربما يكون متأثرا في هذا بمقامات السرقسطي المتوفى عام ٥٣٨ هـ [١] ، خاصة وأنه قد أشار اليها عندما ترجم له في الاحاطة [٢] ، فربما تكون قد وصلت اليه ، وقرأها .

أما بقية مقاماته فلا يختلف بعضها عن بعض في الأسلوب ، فهو يلتزم فيها جميعا السجع ، ويستخدم أحيانا الجناس ، ويقتبس من القرآن الكريم ، ويضمن الشعر ، وبالاضافة الى استخدامه أكثر فنون البديع يستخدم أيضا الاستعارات والتشبيهات ، كل ذلك في أسلوب يمتاز بالسلاسة والسهولة ، ويخلو من الغريب غالبا ، وأحيانا يستخدم بعض المصطلحات الصوفية ، كما في رسالته التي أوردها في روضة التعريف .

وربما يعيب أسلوب ابن الخطيب في مقاماته هذه أو رسائله ، الاسهاب ، وهو عيب يقع في أكثر نثره ، وقد انتقده به أحد المشارقة ، فقال عنه : " شاعر مفلق ، وخطيب مصقع ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في انشائه من الاكثار الذى لا يكاد يخلو من عثار ، والاطناب الذى يفضي الى الاجتناب ، والاسهاب الذى يقدّ الاهاب ، ويورث الالتهاب " [٣] .

---

(١) مقامات السرقسطي ، هي المسماة بالمقامات اللزومية ، وهي خمسون مقامة ، لزم فيها ما لا يلزم ، ومن أوضح أمثلتها (المقامة الهمزية) التي جعل سجعتها الى آخرها على حرف الهمزة ، ومثلها المقامة النونية والجيمية والدالية ، وغيرها ، راجع فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٢٩٣ .

(٢) انظر ترجمة السرقسطي في الاحاطة مج / ٢ ص ٥٢١ .

(٣) نفح الطيب مج / ٦ ص ٢٦ .

وقد أورد المقّرى هذا القول في نفح الطيب ، ووصف صاحب العبارة بأنه متعصب ناقص ، خامل ، وردّ عليه بقولة :"وهذا الانتقاد غير مسلم ، فان لسان الدين وان أطنب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب". [1]

أهم المآخذ عليه في مقاماته أو رسائله :

١ - تفتقر مقامات ابن الخطيب الى عنصر الحكاية أو القصة ، ومن هنا جاءت مقاماته باردة وصارت أقرب الى الرسائل منها الى المقامات المطبوعة بطابع قصصي ، وهذا ظاهر في كل مقاماته .

٢ - ومن المآخذ كذلك الاسهاب واطالة الجمل ، بما ليس تحته كبير معنى ، وهذا كان له دوره أيضا في اضفاء طابع الاملال في مقامات ابن الخطيب ، اذ لو كان اتخذ لها أسلوبا موجزا لكانت أولى بالقبول .

٣ - ومن المآخذ أنه لا يعنون مقاماته على طريقة البديع أو الحريري ، أو الزمخشري ، وانما يصدرها بمثل قوله : (ومن ذلك ماصدر عني .. الخ) أو يسميها بعناوين طويلة مسجوعة مثل (الاشارة الى أدب الوزارة) أو (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والمنازل والديار) .

---

(١) السابق والصفحة .

وربما كان السبب في ذلك أنه لم يصنفها في كتاب مستقل ، ولم يؤلفها في وقت واحد ، أو غرض واحد ، ولم يعارض بها من صنف في هذا الفن ، وانما هي رسائل ألفها قديما وجعل لبعض منها أسماء مسجوعة.

ولهذا السبب اختلفت من حيث الحجم ، فبعضها يزيد على خمس عشرة صفحة ، وبعضها يقع في بضع صفحات.

واختلفت أيضا من حيث الراوى فهو لا يذكر راويا معينا في كل مقاماته ، كما كان يفعل البديع والحريرى ومن سار على نهجهما ، وانما يذكر راويا مكنى عنه بأوصاف.

واختلفت من حيث البطل ، فهو لا يلتزم بطلا أو أبطالا معينين في كل مقاماته ، فتارة بطله شيخ ، وتارة فارسي حكيم ، وتارة من عالم الحيوان.

٤ - تكلف السجع في بعض الجمل مما يوقعه في الحشو والاطالة ، كقوله : " حدث من ينظم فرائد الأخبار في سلك قصصه ، ويدوس حيات الطرق بأخمصه ، ويطارد شوارد الكلام حتى يصبح من قنصه ".[1]

وكقوله في مدح أحد الولاة : " ألوف ودود ، أنوف عن الخبث والمكيدة صدود ، محسوب من الأسرياء معدود ".[2]

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٧٠.
(٢) السابق ص ٢٧٥.

وكقوله في هجاء ابن الربيب: " الجهل والرعونه ، . . . ،
والحيا المسلوب ، والصبر المهزوم عند الشهوات المغلوب. ".(١)

٥ - الاسفاف أحيانا في الهجاء والشتم ، كما في وصفه لابن
الربيب السالف الذكر ، حيث يقول على لسان الراوى:
" قلت: فالوالي ابن الربيب ، فشدّ (أى البطل) خيشومه ،
واستدفع بيمن الله شومه ، ثم قال: الروض الأنف ،
محتاج الى الكنف ، اعلم أنني على طول تجريبي ، وتشريقي
وتغريبي ، لم أعثر له على شبيه ، فلعنة الله عليه وعلى
أبيه . . الخ ".(٢)

وكقوله بعد وصفه لابن الربيب على لسان الراوى أيضا:
" قلت ففلان ، فقال شعلة من ضرام،(٣) ودمّل من أورام ،
ولا بد لكل شيء من انصرام:

سعيد الدين خير من أبيه .·. وطرح الكلب خير من سعيد".(٤)

وكقوله في وصف أحد الولاة: " حمول للكلفة ، كثير
الألفة ، حمار قليل العلفه".(٥)

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) الضرام، هو الحطب الدقيق وهو سيتقبح في اشعال النار، راجع أساس البلاغة ص ٢٦٩.
(٤) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٢٧٦.
(٥) السابق ص ٢٧٧.

وفي مقابل الاسفاف في الهجاء نجد أحيانا الغلو في المديح كما في قوله في وصف أحد الولاة: "سورة الفضل والكمال ، وصورة الحلال والجمال ، ... ، ... ، وكعبة الآمال"[١] الى أن يقول: "أقسم لو سبق الزمن زمانه ، ... ، لما كان لكعب من علو كعب ، ولا ساعد ابن سعدى ذكر ، ولا أعمل في مدح هرم بن سنان فكر ، ولطوى حاتم طي ، ولم تأخذه يد النشر الى الحشر ، .. الخ".[٢]

... ...

---

(١) السابق ص ٢٧٨.
(٢) السابق والصفحة.

الفصل السادس
(الخطابة والزجر والوعـــظ)

الخطابة والزجر والوعظ

الخطبة هي الكلام المنطوق تميزا لها عن الحديث المكتوب ، وهي كالشعر من حيث احتياجها الى الخيال والبلاغة والثقافة الواسعة التي تكون رصيدا في ذهن الخطيب يلجأ اليه كلما كان بحاجة الى استشهادات أو ماشاكل ذلك .

ويعرفها أرسطو بأنها " القدرة على الكشف نظريا في كل حالة من الحالات عن وسائل الاقناع الخاصة بتلك الحالة ".(١)

ولكي تكون الخطبة مؤثرة وتحرك مشاعر الجمهور لابد أن تبنى على الحجج الصحيحة لاقناع الآخرين عن طريق تحريك الأفكار واثارة المشاعر معا ، وهذا يعتمد على اللغة الواضحة الدقيقة ، الخالية من التكلف ، لهذا كان على الخطيب أن يصوغ عباراته بحيث لاتخلو من الايقاع وجهارة العبارة لاثارة انفعالات الجمهور ، وبحيث تكون جمله ذات أجزاء لا طويلة ، ولا قصيرة يسهل النطق بها في نفس واحد ، لأنها لو كانت طويلة ملها السامع ، وتخلى عن متابعتها ، واذا جاءت قصيرة جدا فجأته ، وجعلته يضيق بها كأنما تعثر ذهنه وفكره.(٢)

وينبغي للخطيب أيضا أن يمثل المنظر أمام عيون الجمهور ، ووسيلته في ذلك استخدام صيغة الحاضر ، والاستعارات والتشبيهات

---

(١) النقد الأدبي الحديث ، ص ٩٥ .
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٩٤ ومابعدها .

التصويرية الملائمة للموضوع.(١)

وتتكون الخطبة في العادة من ثلاثة أجزاء ، المقدمة ثم غرض الموضوع ، ثم الخاتمة.

والمقدمة يفتتح بها الحديث ومن شروطها أن لا تبتعد عن الموضوع ، وأن تكون ممهدة له ، مفضية اليه ، بينة الدلالة على الغرض ، آخذة بحجز مابعدها حتى تشوق السامع اليه.

وقد وضع العرب بعد الاسلام شروطا لمقدمة الخطبة أوجبوا السير عليها ، والتقيد بها فجعلوا افتتاحها بالتحميد والتمجيد لله ، والصلاة على نبيه عليه السلام ، وسموا ماخلا من ذلك بالبتراء.(٢)

والموضوع ، وهو أهم عناصر الخطبة وأحفلها ، لأنه هو الأساس الذى تبنى عليه الخطبة ، والمحور الذى تدور حوله ، لذلك لابد أن يعرض بحيث يكون متماسكا ، متلاحم الأفكار ، حتى لا يضعفه التفكك ، وتخلخل الفكرة ، ومن هنا لابد أن يكون الخطيب قوى الذاكرة بحيث لا ينسى مابدأ به ، وكذلك ينبغي أن يكون عرض الموضوع مرتبا غير مضطرب ، حتى يصل الى الأذن ، وكأنه نغمة متساوقة ، لا نشاز فيها ، وأن يكون واضحا بعيدا عن اللبس والاحتمال ، قاطع الدلالة على الغرض،

---

(١) راجع النقد الأدبي الحديث ، ص ٩٧.
(٢) انظر البيان والتبيين ، مج ١ ج ٢ ص ٦.

مقنعا حتى لا يأباه العقل ، صادقا لا يتسرب اليه الريب.[١]

وقد أحبت العرب أن يزين الخطيب خطبته بآى من الذكر الحكيم ، وسموا الخطبة التي تخلو من ذلك بالشوهاء[٢] ، كما عمد بعض الخطباء الى توشيح خطبهم بشيء من حديث الرسول الكريم عليه السلام ، أو من أقوال الحكماء المأثورة ، أو بأبيات من الشعر.

واذا صار عرض الموضوع في الخطبة كذلك ، استطاع الخطيب تحقيق هدفه ، وهو " الوصول بالمستمعين الى درجة التصميم على العمل ، وحفز أولئك الذين يدركون ماتناوله في خطابه من مبادئ على التقدم في ميدان العمل ، وبفضل الخطيب تتحول الأفكار الى احساسات ثم تتحول هذه الاحساسات الى ارادة وتصميم .. ".[٣]

ونهاية مطاف الخطيب في خطبته هي الخاتمة ، وقد تلتقي فيها على ايجازها منابع الفيض الذى يهدر بالموضوع كله ، لأنها آخر نغمة في آذان السامعين بعد الفراغ من الخطبة ، لذلك ينبغي أن تكون قوية مؤثرة ، وقد تكون تلخيصا للغرض وتوكيدا له ، فهي أثبت في الذهن ، وأقوى على التأثير ، وأعون على الحفظ ، ويكره تطويلها ، وتكون غالبا ممزوجة

---

(١) عن الخطب والمواعظ ، ص ٤٢ - بتصرف.
(٢) انظر البيان والتبيين ، مج ١ ج ٢ ص ٦.
(٣) نظرية الأنواع الأدبية ، ص ٣٥٣.

بالدعاء ، خاصة في الخطب الدينية.

والواقع أن الخطابة العربية منذ ظهور الاسلام صارت مؤسسة على الدين ، تقتبس منه أحكامها وتبني عليه أوامرها ونواهيها ، لذلك صبغت بصفة دينية لم تفارقها حتى العصر الحديث.(١)

والخطبة اما أن تكون مرتجلة ، أو محفوظة ، أو مكتوبة وللخطبة المرتجلة مكانة رفيعة في نفوس نقاد العرب ، وان كان أغلب الخطباء يعدون لهذا النوع من الخطب بعضا من الأفكار ، ويهيئون عناصر الموضوع في رؤوسهم قبل أن يقفوا خطباء ، كما يروى أن عثمان بن عفان في أول عهده قام ليخطب فارتج عليه ، فقال : ان أبا بكر وعمر كانا يهيئان لهذا المقام مقالا .(٢)

وقد يعمد بعض الخطباء الى استظهار خطب يكتبونها ، وينقحونها ، ثم يلقونها حفظا عن ظهر قلب.

ومنهم من يكتب خطبته في ورقة ثم يلقيها ، وهذا النوع من الخطب المكتوبة لم يعرفه العرب قديما ، وقد انتشر في العصور المتأخرة.(٣)

ولعل من أهم أسباب انتشار هذا النوع من الخطب ،

---

(١) راجع : أسس النقد الأدبي ، ص ٦٢٢ .
(٢) راجع : السابق ، ص ٦٢٨ .
(٣) راجع : السابق ، ص ٦٣٠ .

كتاب الدواوين ، فقد كانوا يكتبون بعض الخطب ليصدع بها بعض الخلفاء والأمراء والقواد ، وحتى بعض خطباء المنابر ، لذلك نجد أن بعضا من الرسائل السلطانية المدبجة بأقلام بعض كتاب الدواوين ، توجه الى الجمهور ، ويصدع بها على المنابر بعض الخطباء.

وقد قسم أحد النقاد[١] الخطابة العربية من حيث موضوعها الى ثلاثة ألوان:

اللون الأول:

سياسي ، ويشمل الخطب التي يلقيها الخلفاء في أول عهدهم بالخلافة ، والولاة عندما يعهد اليهم بادارة ولاية من الولايات ، وفيها يبسط الخليفة أو الوالي سياسته الجديدة ويبينها للشعب.

اللون الثاني:

اجتماعي ، يتناول شئون الفرد والمجتمع لينهض به ويهديه سواء السبيل ، وهذا اللون من الخطب يعمد فيه الخطيب الى تحسين الحسن ، وتقبيح القبيح من خلال نظرة دينية ، مستشهدا على ذلك بشيء من آى القرآن الكريم ، أو من الحديث الشريف ، أو من أقوال الحكماء المأثورة ، ويدخل في هذا

---

(١) هو الدكتور أحمد أحمد بدوى في كتابه أسس النقد الأدبي عند العرب ، ص ٦٢٢.

اللون الخطب التي تقال للاصلاح بين الناس ، واستلال الضغائن من صدورهم.

اللون الثالث:

خطب المناسبات ، وهي الخطب التي تلقى لمناسبة هدف معين كتلك التي تدعو الى الجهاد حينا ، والى الدفاع عن الوطن حينا آخر ، وكتلك التي تتحدث عن الفتوح وعن النصر على العدو ، وتصف مادار في المعارك.

ويضاف الى هذه الألوان الثلاثة لونان آخران:

الأول : خطب النكاح ، وهي لون من ألوان الخطب الاجتماعية ، وكان من سنتهم فيها أن يطيل الخاطب ، ويقصر المجيب.

الثاني : خطب المدح ، التي كانت تقال في سدة دار الخلافة.

وهناك نقاد آخرون قسموا الخطابة أيضا من حيث موضوعها الى أنواع عدة[١]، ولكنها لاتخرج عن التقسيم السابق.

... ...

وللخطابة دواع وأسباب تختلف باختلاف الظروف السياسية والدينية ، فهي بين مد وجزر منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث ، فاذا مادعت الحاجة اليها قويت ونشطت،واذا ماقلت

---

(١) انظر مثلا لذلك الخطب والمواعظ ص ٥٥ ومابعدها.

الحاجة اليها ضعفت ، ذلك لأن هدف الخطبة التأثير والاقناع، وتسكين ثائرة الجمهور ، أو تحريكه ضد شيء معين .

ويطول بنا الحديث لو أردنا التفصيل في تاريخ الخطابة العربية وتطورها لنرى مدى استجابتها لهذه الدواعي والأسباب، لذلك سنكتفي باشارة موجزة الى بدايات هذا الفن في أدبنا العربي خلال العصر الجاهلي ، والعصور الاسلامية الأولى .

لقد عرف عرب الجاهلية الخطبة لأنهم كانوا في حاجة اليها ، فقد "دعاهم اليها مادعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ، ونجارها ، والذود عن شرفها ، وذمارها ، واصلاح ذات البين بين الحيين ، والسفارة بين رؤوس القبائل ، وأقيالهم ، أو بين الملوك وعمالهم".[1]

ولما جاء الاسلام ازدادت الحاجة الى الخطابة لنشر الدين ، واقناع الناس به ، وحثهم على التقوى ، والتقرب الى الله ، ومن ثم فرضت الخطبة في الجمعة والأعياد ، وبعض المناسبات الأخرى ، وبهذا اتخذت الخطابة طابع الوعظ والارشاد .

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه ، واختلاف المسلمين ، وتعدد الفرق ، ظهر نوع جديد من الخطابة ، ذلك هو الخطابة السياسية، لأن كل فريق كان بحاجة الى نشر نحلته ، وترويج أفكاره ، وكانت وسيلته في ذلك الخطابة.

واستمر الأمر كذلك طوال العصر الأموى ، وصدر العصر العباسى الأول ، واشتهر في هذين العصرين الكثير من الخطباء

---

(١) تاريخ الأدب العربي - الزيات ، ص ١٩ .

وخاصة الحكام والخلفاء ، كمعاوية في العصر الأموى ، والمنصور ، والمهدى ، والرشيد في العصر العباسي الأول ، "فلما استوثق الأمر لبني العباس ، وقام المولى بسياسة الدولة ، وقيادة الجيش ، وقلّ النضال بالسنان واللسان ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي لها ، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم ، وقصرت على خطب الجمع والعيدين والزواج".(١)

وقد كان الخلفاء يخطبون الناس ، ويؤمونهم في الصلاة ، حتى جاء العصر العباسي الثاني " فضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء ، وان ظلت مزدهرة في المساجد ، وفي خطب الجمع والعيدين ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة ، الا ماكان من الخليفة المهتدى الورع ، الذى ظلّ في الحكم نحو عام ، فانه كان يذهب الى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ، ويخطب الناس ويؤمهم ، ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد فارتج عليه ، ولم تسمع خطبته ، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضي ، ولم تؤثر خطبه".(٢)

وضعف الخطابة الدينية في العصر العباسي الثاني على

---

(١) السابق ، ص ٢٩.
(٢) تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الثاني ـ شوقي ضيف، ص ٥٢٧.

ألسنة الخلفاء لا يعني ضعفها مطلقا ، فقد نشطت نشاطا عظيما في المساجد ، حتى أصبح يطلق على أحدهم لفظ الخطيب ، ومن أولئك الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ ، والخطيب التبريزى المتوفى عام ٥٠٢ هـ.

... ...

لمحة عن الخطابة في الأندلس:

اذا تمعنا في تاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامي في أواخر القرن الهجرى الأول نجد أن دواعي الخطابة هناك كثيرة ، فالحث على الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام ، وتحريض المسلمين على المسيحين ، وتصارع القيسية واليمنية داخل الأندلس ، هذا بالاضافة الى تقلبات السياسة ، كل ذلك أدى الى نشاط الخطابة بجميع ألوانها ، " ولهذا كان الخطيب موضع الاجلال والاحترام ، ... ، بل لقد ارتقت الخطابة بأبطالها الى أسمى المراتب وارتفعت بهم الى أعلى الدرجات ، وأصبح لقب الخطيب من ألقاب التشريف والتعظيم ".[1]

ولعل أقرب مثال على ذلك بيت لسان الدين ابن الخطيب ـ الذى هو موضوع دراستنا ـ فقد عرف بيته ببني الخطيب ، اذ كان جده الثالث سعيد خطيبا مشهورا ، والى عهده يرجع

---

(١) ملامح التجديد في النثر الأندلسي ، ص ٢٣٤.

سبب هذه التسمية.[١]

واذا كانت كتب التراث الأندلسي لم تحتفظ لنا من خطب الأندلسيين الا بالنزر اليسير ، فهذا لا يعني قلة الخطب، وانما يعني قلة ماروى منها ، ولذلك أسبابه التي منها أن الخطب لأنها مرتجلة يصعب حفظها وتدوينها ، ثم ان أغلب خطباء الأندلس كانوا قد أجادوا في أكثر من فنّ ، فلم يدون الرواة عنهم كل ماأبدعوا ، ولكنهم اكتفوا بما يدلل على نبوغهم.

وقد اشتهر في الأندلس منذ الفتح الى سقوط غرناطة عدد لا يسهل حصره من الخطباء ، نذكر منهم على سبيل التمثيل: عبد الرحمن الداخل صقر قريش المتوفى عام ١٧٢ هـ ، وسعيد بن جودى السعدى الشاعر الفارسي المتوفى عام ٢٨٤هـ ،والقاضي منذر بن سعيد البلوطي المتوفى عام ٣٥٥ هـ ، وأبا الوليد الباجي المتوفى عام ٤٧٤ هـ ، وأبابكر الطرطوشي المتوفى عام ٥٢٠ هـ ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفى عام ٥٤٠هـ ،والقاضي عياض المتوفى عام ٥٤٤ هـ ، وابن الجنان المتوفى عام ٦٥٠هـ ، ولسان الدين ابن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦ هـ .[٢]

... ...

---

(١) انظر: الاحاطة مقدمة المحقق ج/ ١ ص ٢٠ ، وج / ٣ ص ٣٨٦ ومابعدها .

(٢) راجع: ملامح التجديد في النثر الأندلسي ص ٢٣٥ .

الخطابة في نثر ابن الخطيب:

عرف عن ابن الخطيب أنه كاتب ديواني ، كما أنه شاعر جيد له من القصائد والموشحات مايدلل على نبوغه واجادته ، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا ، هو: هل كان لسان الدين خطيبا مصقعا كما يرى بعض المشارقة حيث يصفه بقوله: " شاعر مفلق ، وخطيب مصقع ، وكاتب مترسل بليغ ..."؟ (١)

وللاجابة على هذا التساؤل يجدر بنا أن نرجع الى كتب ابن الخطيب التي جمع فيها نثره ، بالاضافة الى أهم الكتب التي ألفت حوله ، ذلك هو كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب".

ومن يفتش في طيات هذا الكتاب لايجد نصا واحدا يدل على أن ابن الخطيب قد وقف في موقف ما ليلقى خطبة مكتوبة أو محفوظة أو مرتجلة ، بل انه لا يوجد في كتبه نص يدل على أنه ألقى خطبة بنفسه ، عدا نص واحد في الريحانة، (٢) يقدم له بقوله: " وسكنت هرج الناس بقولي عند ما شار الشيخ على بن علي بن نصر ، صادعا بذلك فوق أعواد المنبر بالجامع الأعظم من حضرة غرناطة ، مبلغا من السلطان رضي الله عنه الأمان .. الخ". (٣)

---

(١) نفح الطيب مج/ ٦ ص ٢٦ .

(٢) مج/ ٢ ص ٥٧ .

(٣) السابق والصفحة.

واذا ماتمعن القارئ في هذه الكلمة التي صدع بها فوق منبر جامع غرناطة ، وجدها تمثل ظهيرا أو بلاغا من السلطان للناس ، وليس فيه شيئ من عناصر الخطبة.

وعلى هذا فربما لا يكون لسان الدين خطيبا ، ولكنه كاتب دبج بعض الخطب اما ليلقيها غيره ، أو ليبعث بها هو على شكل رسائل ، وقد جمع في ريحانة الكتاب في باب أسماه (كتب الزواجر والعظات) بعض هذه الخطب التي دبجها، بالاضافة الى بعض نصوص جمعها في باب (كتب مخاطبات الرعايا والجهات) ، ويمكن تصنيف هذه النصوص الى أربعة أنواع هي :

١ - الخطب أو الرسائل الوعظية :

وله من هذا النوع ثلاث خطب أوردها في ريحانة الكتاب وفي روضة التعريف ، وقدم لأولاها بقوله : "فمن ذلك ماصدر عني على لسان واعظ".[١]

ويبدأ مقدمة خطبته هذه بقوله : "الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من البعيد ، القريب في بعده ، فهو أقرب اليه من حبل الوريد ، محيي ربوع العارفين بحياة تحيات التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار الى العرض الزهيد"[٢] الى أن يقول :"ونشهد

---

(١) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٢.
(٢) السابق والصفحة.

أن محمدا عبده ورسوله ، قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الادلال ، واقطاع الكمال ، بين مقام المراد ، ومقام المريد".[1]

ويستمر على هذا النحو في مقدمته الطويلة ، المليئة بالمصطلحات الصوفية ، موردا خلال ذلك بعض آيات من القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث الحاضة على الاكثار من ذكر الموت ، ثم يختتم ذلك كله بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

وينتقل بعد ذلك من المقدمة الى غرض الموضوع بادئا ذلك بأبيات يقول فيها :

قعدت لتذكير ولو كنت منصفا .:. لذكرت نفسي فهي أحوج للذكرى
اذا لم يكن مني لنفسي واعظ .:. فياليت شعرى كيف أفعل في أخرى[2]

ثم يقول : "آه ، آه ، أى وعظ بعد وعظ الله ـ يا أحبابنا ـ يسمع ، وفيماذا ـ وقد تبين الرشد من الغي ـ يطمع ، يامن يعطي ويمنح ، ان لم تقم الصنيعة فماذا نصنع ، اجمعنا بقلوبنا يامن يفرق ويجمع".[3]

ثم يتوجه بالحديث الى الناس فيقول : " اعلموا ـ يرحمكم الله ـ

---

(١) السابق ص ١٧٣.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) السابق والصفحة.

أن الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملوان [١]، فان الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدركون أنكم في أطوار سفر لا يستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا يتأتى معها اقامة ولا مهلة ، من الأصلاب الى الأرحام الى الوجود ، الى القبور الى النشور ، الى احدى داري البقاء ، أفي لله شك ..". [٢]

وليجسد الحياة أمام العيون من خلال نظرة زاهد منصرف عنها ، يقول: " فلو أبصرتم مسافرا في البرية يبني ويغرس ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله ، والله ما أموالكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم ، الا بناء سفر في قفر ، أو اعراس في ليله نفر ..". [٣]

ويروي خلال ذلك بعضا من أقوال السلف ، كقوله: " ذكروا أن عمر بن عبد العزيز شيع جنازة فلما توسط القبور بكى ، ثم قال: ان الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير ، وشابها هرم ، وحيها ميت .. الخ". [٤]

---

(١) الملوان: الليل والنهار أو الفترات من الدهر.
(٢) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥.
(٣) السابق ، ص ١٧٥.
(٤) السابق والصفحة.

ويستمر في هذا الأسلوب في الحث على التقرب الى الله ، والزهد في الدنيا حتى نهاية الخطبة ، ثم يختمها بقوله : فرحم الله من نظر لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجرّ الى الموت ، والغفلة تقود الى الفوت ، والصحة مركب الألم ، والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم". (١)

... ...

ويورد بعد نهاية الخطبة خطبة أخرى تكاد تكون تتمة للسابقة ، اذ تأخذ نفس الغرض ، وتخلو من المقدمة ، ويقول في تقديمه لها : " وان شاء قال بعد الخطبة ". (٢)

ثم يدخل مباشرة في صلب موضوع الخطبة ، فيقول :"اخواني ، ماهذا التواني ؟ والكلف بالوجود الفاني ، عن الدائم الثاني ، والدهر يقطع الأماني ، وهاذم (٣) اللذات قد شرع في نقض المباني ، ألا معتبر في معالم هذه المعاني ؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغاني ؟ ". (٤)

ويتساءل في وعظه بمثل قوله : " أين العمر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين

---

(١) السابق ص ١٧٧.
(٢) السابق والصفحة ، وهذا القول دليل على أنه يعد خطبا ، كما سلفت الاشارة.
(٣) هاذم: قاطع ، وهاذم اللذات كناية عن الموت.
(٤) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٧.

المجادل أين المجالد ؟ (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)".[1]

وكما يلاحظ فهو يستخدم المراوحة بين الأساليب في خطبته محاولا الاقناع ، كما يقتبس من القرآن الكريم ، ويضمن خطبته كثيرا من الشعر.

ويختتم خطبته بعد حديث طويل بدعاء يقول فيه :
" الهي دلها[2] من حيرة يضل فيها الا ان هديت الدليل ؟ واجلها من غمرة ، وكيف الا باعانتك السبيل ؟ نفوس صدى منها على مر الأزمان الصقيل ، .... ، ... ، ... ، وعبرات لا يقيلها الا أنت ، يا مقيل العثار ، يا مقيل ، أنت حسبنا ونعم الوكيل".[3]

وبهذا تنتهي الخطبة ، أو الجزء الثاني من الخطبة الأولى .

... ...

ويورد أيضا وراء هذا الجزء خطبة أخرى في نفس الغرض تكاد تكون أيضا تتمة للأولى والثانية ، اذ تخلو كذلك من المقدمة ، وتسير في نفس الغرض .

---

(١) السابق ص ١٧٩ ، والآية من سورة مريم رقم ٩٨ .
(٢) الضمير عائد على القلوب.
(٣) روضة التعريف مج / ١ ص ١٨١ .

ويستهلها بقوله : " اخواني : صمت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار اليه شهير ، أين الملك ، وأين الظهير ، أين الخاصة ، أين الجماهير؟ أين القبيل أين العشير ، أين كسرى وأين أزدشير ؟ صدق والله الناعي ، وكذب البشير ، وغش المستشار وأتهم المشير ، وسئل عن الكل فأشار الى التراب المشير ".(١)

ويواصل حديثه ووعظه في اسلوب سجع طويل ، الى آخر خطبته ، ثم يختمها بدعاء يقول فيه : " اللهم انظر الينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يادليل الحائرين دلنا ، ياعزيز ارحم ذلنا ، ياولي من لا ولي له ، كن لنا كلنا ، اذا أعرضت عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلب قلوبنا يامقلب القلوب ، واستر عيوبنا ياستار العيوب ، ياأمل الطالب وغاية المطلوب ، ياأرحم الراحمين ".(٢)

... ...

٢ - رسائل أخوانية غرضها الوعظ أو الزجر :

ولابن الخطيب بعض الأخوانيات التي اتخذت شكل الوعظ والزجر ، فمن ذلك رسالته لأبنائه والتي يغلب عليها الوعظ

---

(١) السابق ص ١٨٢ .
(٢) السابق ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

والنصح والارشاد والتوجيه ، والحث على الاعتصام بحبل الله.[١]

ومن ذلك أيضا رسالته التي وجهها لابن مرزوق ، وقد استعرضناها في باب الرسائل الأدبية ، وأشرنا الى أنها ارتقت الى مرتبتها ، لنجاح الكاتب فيها بالانتقال من خصوصية الموضوع الى عموميته.

ورسالة أخرى بعث بها واعظا لمن طلب منه ذلك ، وقد أوردها في روضة التعريف[٢]، وهي مليئة بالحث على الزهد والانصراف الى الله ، والتقرب اليه ، وقد ختمها بقصيدتين طويلتين لأبي العتاهية ، الأولى مطلعها :

خانك الطرف الطموح ∴ أيها القلب الجموح

والثانية مطلعها :

لمن طلل أسائله ∴ معطلة منازله

ومن الرسائل الأخوانية التي اتخذت شكل الزجر رسالة وجهها لشخص يدعى أبا سعيد ولم ترد الا في ريحانة الكتاب.[٣]

ومن نص هذه الرسالة يتبين أنها رد على رسالة بعث

---

(١) راجع : نص هذه الرسالة في نفح الطيب مج/ ٧ ص ٣٩١.
(٢) مج / ١ ص ١٨٦.
(٣) مج / ٢ ص ٤٤٧.

بها أبو سعيد هذا لابن الخطيب ، حيث يقول ابن الخطيب في صدر الرسالة : " الحمد لله على نعمة الاسلام ، ... ، حفظك الله ياأبا سعيد ، وأرشد سعيك ، ... ، ... ، وقفت على براءتك الطويلة الذيل ، المطففة في الكيل ، مشتملة على تهويل ، ... ، وعتاب طويل ، وتبجح بألفاظ وأقاويل .. الخ ".(١)

وتمتلئ الرسالة بالزجر الذى يكاد يصل الى حد الشتم والهجاء ، كقوله : " شأنكم في الاختيار شأن البليد ، وعقولكم يترفع عنها عقل الوليد .. ".(٢)

وكقوله : " أينكم من الوسائل الشرعية ، والذمم المرعية ، أين الصدقات ، اذا حدقت الى الأكف الحدقات ، أين زلف الليل ، أين الزكاة المتوعد مسكها بالويل ، ... ، ... ، ... ، عدل عن ذلك كله الى البخل على المساكين ، والسلاطة على أهل الدكاكين ، ... ، والتعويل على الوصول الى الله من خرجة ابن سبعين ".(٣)

ويبدو أن أبا سعيد هذا كان من أتباع أو أشياخ احدى الفئات الضالة ، كالصوفية المفرقة التي تزعم أن ذكر الله

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٤٤٧.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) السابق ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، وابن سبعين ، أحد أئمة المتصوفين بالأندلس.

لا يكون الا بالانقطاع لذلك ، والبعد عن العمل والتكسب ، والتواكل على أرزاق الناس ، ويتضح ذلك من مثل قول ابن الخطيب :
" كأن الأنبياء لم تبين مايعمل ، كأن الشريعة ليس لأوضاعها سوق ، ولا لنخلها بسوق ، كأن الشافعي أو مالك ليس بسالك ، وان مادون أشياخكم هالك ، هذا لو كان لكم أشياخ ، ... ، انما هي أعلام تنصب ، وتيجان للخطوب تعصب ، والنسيء يذكر ، والذكر ينسى ".[1]

ومن مثل قوله : " ماالذى رابكم ، آنس الله اغترابكم ، من سيرة السلف الذين تجروا وكسبوا ، وانتموا لغنى الأكف وانتسبوا ، وتصدقوا ووهبوا ، وجاهدوا وحجوا ، وماانحرفوا ولا لجوا ، وبسيرة أعمالهم احتجوا ، وسعوا والتسوا ، وأكلوا الطيّب ولبسوا ، وجوارحهم بميزان الشريعة ، أرسلوا وحبسوا ، ... ، لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا ، وأشفقوا من فراق أهليهم اشفاقا ، ولا حلّوا لحسن العهد نظاما ، ولا قتلوا أولادهم املاقا ... ".[2]

ولم يوضح ابن الخطيب ظروف هذه الرسالة ، الا أنه يبدو من النص أنها نصح وارشاد في أسلوب عنيف لأبي سعيد هذا ، ومن سار على نهجه ، اذ يقول ابن الخطيب

---

(١) السابق ص ٤٤٨ .
(٢) السابق ص ٤٤٩ .

فيها موجها الحديث لأبي سعيد : "وأما مايخص حالك ياأبا سعيد ، والقريب والبعيد ، فمورد المودة لم ينضب معينه ، ولا التبس بالشك يقينه ، ... ، ومايتصل بكم من جفاء فهو - علم الله - تأديب وتهذيب وغيرة ، يجدها ولي حبيب ، والله شهيد رقيب ، ولو كان بودى ، لم تكن يدك مغلولة ، ولا نيتك مسلولة ، ولا عقيدتك معلولة ، ولا نفسك على الشح مجبولة ، ولا ولدك عاريا ذليلا .. الخ".(١)

ثم يبين له أنه قد بذل له النصيحة من قبل في رسالة (الغيرة على أهل الحيرة) ،(٢) ولكنه لم يصغ لذلك ، ويختم ابن الخطيب رسالته هذه بقوله : "هذا جواب سحاءتك المسجعة ، ورسالتك القليلة الطحن ، الكثيرة الجعجعة ، وقد أعدتنا - والحمد لله - تلك الغزارة ، وان النفس لأمّارة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما".(٣)

... ...

٣ - رسائل الاستنجاد :

ومما يدخل أيضا في باب الخطب بعض رسائل الاستنجاد ،

---

(١) السابق ص ٤٥٠.
(٢) راجع ملحق رقم (١).
(٣) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥١.

فمن ذلك رسالة وجهها برفقة الشيخ أبي الحسن ابن المحروق ، الى المغرب يستدعي الامداد ، ويحض على الجهاد ، وقد نصّ ابن الخطيب في الريحانة على أنّ الشيخ ابن المحروق صدع بها على منبر جامع القرويين.[1]

ولم يورد ابن الخطيب مقدمتها ، ويبدأ النص الذى أورده بقوله : " أيها الناس — رحمكم الله — ان اخوانكم المسلمين بالأندلس ، قد دهم العدو - قصمه الله - ساحتهم ، ورام الكفر — خيبه الله — استباحتهم ، ورجفت أبصار الطواغيت اليهم ، ومدّ الصليب بذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البرّ والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فاستبصروه ".[2]

ثم يستخدم التكرار للتوكيد كمثل قوله : " الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الاسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، فقد استغاث بكم الدين فأعينوه".[3]

---

(١) راجع السابق ص ٦١.
(٢) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٦١.
(٣) السابق والصفحة.

ويواصل استنهاض الهمم ، وتحريك الشاعر بمثل قوله :

" أعينوا اخوانكم بما أمكن من اعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ، جردوا عوائد الحمية يصل الله لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تناديكم ، والله سبحانه يقول فيه : (يا أيها الناس هل أدلكم على تجارة تنجيكم) وسنة رسول الله قائمة فيكم ، وما صح عنه صلى الله عليه وسلم : من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار ، لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم ، من جهز غازيا في سبيل فقد غزا ".[1]

ويستمر على هذا النحو في طلب العون ، والحث على الجهاد ، وادراك عليل الاسلام ، " أدركوا أرمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسلكم عن عباده ، جاهدوا في سبيل الله بالأنفس والأموال والأقوال حق جهاده ".[2]

ولاسترقاق القلوب يضمن خطبته بعضا من الشعر ، كمثل قوله :

" ماذا يكون جوابكم لنبيكم ∴ وطريق هذا العذر غير ممهد

---

(١) السابق ص ٦٢ . والآية من آية رقم ١٠ سورة الصف.
(٢) السابق والصفحة.

ان قال لم فرطتم في أمتي .·. وتركتموهم للعدو المعتد
تالله لو أن العقوبة لم تخف .·. لكفا الحيا من وجه ذاك السيد"[١]

وأخيرا يختم خطبته بدعاء يقول فيه : " اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم الضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبائك وأوليائك ياخير الناصرين .. الخ ".[٢]

... ...

٤ - ظهائر ورسائل سلطانية غرضها الوعظ أو الزجر :

ومما يدخل أيضا في باب الوعظ والزجر بعض الرسائل السلطانية ، والظهائر الموجهة الى الرعيـة.

وقد أورد ابن الخطيب من هذا النوع في ريحانة الكتاب ، التالي :

أ - رسالة كتبها عن السلطان أبي الحجاج المتوفى عام ٧٥٥هـ ، ووجهت الى أهل المرية ، يعرفهم فيها بهلاك ملك قشتالة ، واقلاع جيشه عن جبل الفتح .[٣]

---

(١) السابق والصفحة.
(٢) السابق والصفحة.
(٣) راجع : السابق ص ١٤٠.

ب ـ رسالتان كتبهما عن الغني بالله ، يعظ بهما الناس ، ويحثهم على التمسك بعرى الدين لمرضاة الله ، ولنصرة الاسلام ، وقد وجههما الى غرناطة وربضها ، وقال عنهما ابن الخطيب انهما (مما يجرى مجرى الحكم والمواعظ والأمثال) [(١)] ، وقد صدع بهما الخطباء على المنابر.

جـ ـ ومن الظهائر أورد ظهرين موجهين الى الرعية ، الأول صدع به هو على منبر الجامع الأعظم بغرناطة لتسكين هرج الناس بعد ثورة على بن على بن نصر ، ولتبليغه ومن معه الأمان من السلطان الغني بالله. [(٢)]

والثاني يعرف فيه الرعية بتوجه أحد الفقهاء لتطلع أحوالهم عام ٧٦٥ هـ . [(٣)]

د ـ رسالة وجهها هو نيابة عن السلطان لأهل غرناطة ، لمّا وصله كتاب السلطان بخط يده معرفا بفتح أطريرة واستيلائه عليها . [(٤)]

والحق أن هذه الرسائل والظهائر تكاد تخلو في أغلبها من عناصر الخطبة ، كالمقدمة والخاتمة ، ولا تقترب من شكل

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٤٢ .
(٢) راجع السابق ص ٥٧ .
(٣) راجع السابق ص ٥٩ .
(٤) راجع السابق ص ٦٣ .

الخطبة الا من حيث أنها ألقيت على جمهور من الناس،وان كانت الرسالتان اللتان كتبهما عن الفني بالله لحث الناس على العودة الى الله تمتازان ببعض المميزات التي تقربهما نوعا ما من الخطابة ، لما فيهما من وعظ وارشاد وتوجيه ، ولما فيهما من جهارة العبارة ، ومحاولة اثارة المشاعر ، باستخدام أساليب الاقناع والاقتباس من آى الذكر الحكيم.

بعض المآخذ عليه في وعظياته :

١) تكلفه السجع والجناس أحيانا مما دفعه الى الحشو ، كقوله في احدى وعظياته : " اخواني : ماهذا التواني ، والكلف بالموجود الفاني ، عن الدائم الثاني "[١] فكلمة (الثاني) في العبارة من الحشو الذى لاداعي له ، غير أنه أتى بها ليكمل السجعة.

ومن الحشو الذى يعثر ذهن المستمع ، ويقطعه عن مواصلة الفهم ، قوله في احدى خطبه : " الحمد لله الولي الحميد ، ....، ....، محيّ ربوع العارفين بحياة تحيات التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين ، بكنوز احتقار الافتقار الى العرض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون رهون التقييد ، الى فسح التجريد ، ....، ....، ...، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد،

---

(١) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٧.

.... ، .... ، .... ، الذى جعله السبب الأول في نجاة الناجي ، وسعادة السعيد ، وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعد والوعيد .. الخ".[1]

٢) تكلف بعض الصور البيانية ، وهذا يظهر في مثل قوله : "وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) .... ، .... ، .... ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تقوم ببعض حقه الأكيد ، وتسرى الى تربته الزكية من ظهور المواجد الحبية على البريد ".[2]

وكقوله في مقدمة احدى وعظياته : " نحمده ، وله الحمد المنتظمة دره في سلوك الدوام ، وسموط التأييد".[3]

٣) ومن المآخذ في وعظياته استخدامه لبعض المصطلحات الصوفية كالمراد والمريد ، والتفريد وغيرها . وقد أساء اساءة باللغة حين وصف بمثل هذه الألفاظ رسول الله عليه السلام في قوله : " ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قلادة الجيد المجيد ، .... ، المخصوص بمنشور الادلال واقطاع الكمال بين مقام المراد مقام المريد ".[4]

---

(١) السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٢) السابق ص ١٧٤ .
(٣) السابق ص ١٧٢ .
(٤) السابق ص ١٧٣ .

والادلال عند المتصوفه ، كما أشار محقق الكتاب في هامشه[١]، حال تعترى العارف بالله بحيث يغلب عليه فيها الأنس والانبساط مع حفظ الهيبة للحضرة الالهية ، ... ، وابن الخطيب يشير الى كون الرسول عليه الصلاة والسلام كان له هذا المقام ، وعموما فان مجرد وصف الرسول عليه السلام بالتصوف فيه كثير من الاساءة ، لانه لم يطلقه على نفسه ، ولم يسمه به ربه عز وجل ، ثم ان التصوف في أكثره بدعة وضلاله.[٢]

٤) المبالغة والتهويل في الحث على الانصراف عن الدنيا في نحو قوله : " فلو أبصرتم مسافرا في البرية يبني ويغرس ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله".[٣]

٥) لا يحقق أسانيد الأحاديث التي يسوقها ، مما أوقعه في ايراد أحاديث لم تصح أو ضعيفة ، مثل : " شوبوا أمانيكم بذكر مكدر اللذات "[٤]، "وكفى بالموت واعظا".[٥]

---

(١) راجع السابق والصفحة ، هامش رقم ٢٦٦.
(٢) راجع كتاب (هذه هي الصوفية) لعبد الرحمن وكيل،لترى مدى مافي أكثر التصوف من ضلال وزيغ.
(٣) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٥.
(٤) أشار محقق روضة التعريف الى أن هذا الحديث رواه ابن أبي الدنيا في الموت ، وهو عنده مرسل ، وقال عنه الحافظ العراقي انه لم يصح ، انظر روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٤ هامش رقم ٢٧٠ .
(٥) أشار أيضا محقق الروضة الى أن هذا الحديث رواه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر باسناد ضعيف ،انظر روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٤ ، هامش رقم ٢٧٢.

ومما يقترب من ذلك سوق الحكايات والمواعظ دون تمحيص وتحقق ، كقوله في احدى وعظياته : " ذكر أن عمر بن عبد العزيز شيع جنازة ، فلما توسط القبور بكى ثم قال : ان الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل .. "(١) الى آخر الخبر.

... ...

أهم سمات وخصائص وعظياته :

١) البناء على السجع والجناس ، واستخدام بعض المحسنات الأخرى ، والحق أن الوعظيات اذا صيغت بحيث يكون فيها شيء من الايقاع المتولد عن الجناس والسجع غير المتكلف ، كانت أقدر على اثارة انفعالات المستمع ، وقد التزم ابن الخطيب هذا في أكثر وعظياته ورسائله التي تدخل تحت باب الوعظ والزجر ، يقول في احدى رسائل السلطان الموجهة الى الرعية : " ان المعصية اذا فشت في قوم ، أحاط بهم سوء كسبهم ، وأظلم مابينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ووقعت فيهم المثلات والنقمات ، وشحت السماء ، وغيض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجفت الضروع ، وأخلفت الزروع ، فوجب علينا أن نخولكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توقظ من السّنة ، وتقرع

---

(١) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٥.

آذانكم بقوارع الألسنة ، فاقرعوا الشيطان بوعيها ، وتقربوا
الى الله برعيها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها
المعروفة فكلموها .. الخ".[1]

غير أنه أحيانا يبني جمل كثيرة على سجعة واحدة ،
ويلتزم مالا يلزم في بعض فقرات وعظياته ، كالتزام حرفين
أو أكثر في السجع ، مما يطبع بعضها بالطول والتكلف ،
كما يرى في مقدمات بعضها .

٢) تمتاز أغلب وعظياته بجهارة العبارة ، وحسن السبك ،
واختيار الألفاظ السهلة الميسورة ، والاستعانة بالمحفوظ
من القرآن الكريم ، والحديث والشعر.

٣) ومن خصائص وعظياته المراوحة بين الأساليب ، فتارة يستخدم
الأسلوب الخبرى ، وتارة الانشائي ، ولعل هذا ما أكسب
وعظياته شيئا من القبول ، اذ يدفع السأم والملل عن
القارئ والمستمع ، كقوله : " اذا شعرت نفسك بالميل الى
شئ ، فاعرض عليها غصة الفراق ، (ليهلك من هلك
عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة) ، فالمفروح به هو
المحزون عليه ، أين الأحباب ؟ سرو فياليت شعرى أين
استقروا ؟ واستكانوا والله واضطروا ؟ واستغاثوا بأوليائهم
ففروا ، وليتهم اذ لم ينفعوا ماضروا ، فالمنازل من بعدهم

---

(١) ريحانة الكتاب مج / ٢ ص ٤٤٠

خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية ".[١]

وكقوله : " فان الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدركون أنكم في أطوار سفر ، لا يستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا يتأتى معها اقامة ولا مهلة ، من الأصلاب الى الأرحام ، الى الوجود ، الى القبور ، الى النشور ، الى احدى دارى البقاء ، أفي الله شك ؟ ".[٢]

٤) ويلاحظ في وعظياته اطالة المقدمات ، بل والاطالة في الخطبة أو الرسالة بعامة ، الا أن خطبه ووعظياته على الرغم من طولها ، فيها كثير من الروعة التي تشد القارئ ، وتدفعه الى استكمالها ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى أنه يحاول تحريك الأفكار ، واثارة المشاعر ، واستخدام الحجج الصحيحة للاقناع من خلال مايروى في داخل وعظياته من أقوال ، أو من خلال التساؤلات كقوله في احدى خطبه : " أين المعمر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل أين المجالد (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) ".[٣]

---

(١) روضة التعريف مج / ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) السابق ص ١٧٥ .
(٣) السابق ص ١٧٩ ، والآية من سورة مريم رقم ٨٩ .

٥) ويستعين أحيانا في وعظياته بقصص الوعاظ على نحو قوله:
" أوصى الله الى موسى صلوات الله على نبينا وعليه :أن ضع يدك على متن ثور ، فبعدد ماحازته من شعره تعيش سنين فقال: يارب وبعد ذلك ؟ قال: تموت، قال: يارب فالآن".[١]

كما ينقل في داخل وعظياته نصوصا من بعض مواعظ الوعاظ ، كقوله: " وقال أمير الوعاظ[٢] ـ رحمه الله ـ ... :
"يامقتولا ماله طالب ثأر ، بريد الموت مطلق الأعنة في طلبك ، ومايحميك حصن ، ثوب حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قوية في النسج الضعيف ، فياسرعة التمزق ، يارابطا مناه بخيط الأمل ، انه ضعيف الفتل ، صياد التلف بث الصقور ،وأرسل العقبان ، ونصب الأشراك ، وقطع الموارد ، فكيف السلامة ..".[٣]

٦) ويبدو من نقله تأثره بأعلام فنّ الوعظ ، ومحاولته احتذاء طريقتهم ، الا أنه في كلامهم بساطة الصدق ، وسلاسة الطبع ، أما كلامه فيشوبه أحيانا بعض التعقيد والتكلف، والتنميق والتصنع .

---

(١) السابق ص١٧٨.
(٢) أشار محقق الروضة الى أنه ربما يكون المقصود ابن الجوزى المتوفى عام ٥٩٧ هـ رحمه الله.
(٣) روضة التعريف مج/ ١ ص١٨٧.

٧) وتقتصر موضوعاته في وعظه على الزهد ، والانصراف عن الدنيا ، والاقبال على الله وتقواه ، والتذكير بحال الدنيا ، والوعظ بالموت ، من خلال نظرة فيها شيء من التصوف.

وعموما فان وعظيات ابن الخطيب أو خطبه قليلة جدا اذا ماقيست بفنون أخرى كتب فيها ، كالرسائل السلطانية ، أو التراجم أو غيرهما .

... ...

الفصل السابع
(التاريخ)

التاريخ

عرّف أصحاب المعاجم التاريخ بأنه تعريف الوقت ، أو التوقيت،[(١)] وهو من حيث الاصطلاح " فنّ يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان".[(٢)]

وقد عرف هذا الفن منذ أقدم العصور الانسانية ، وكان الغرض منه ومازال " اتخاذ العظة من الماضي ، وتوضيح الحاضر ، والنظر للمستقبل في ضوء هذا الماضي بعظاته وعبره".[(٣)]

ولقد مر التاريخ عند العرب ــ كما هو الحال عند غيرهم ــ بأطوار ومراحل عدة ، من حيث الكتابة التاريخية ، ومن حيث المادة التاريخية ذاتها .

فمن حيث الكتابة التاريخية ، يجمع مؤرخو الأدب العربي على أن تدوين التاريخ ــ باستثناء بعض النقوش القديمة ــ ظهر في فترة متأخرة بعد ظهور الاسلام ، وكان العرب يكتفون بالرواية الشفهية " ، فلما جاء الاسلام وقامت الدولة العربية ، أصبحت الحاجة ماسة لتدوين التاريخ ، واتسع هذا العلم وتطور حتى أصبح من أهم العلوم عند العرب".[(٤)]

---

(١) انظر: الصحاح مج / ١ ص ٤١٨ ، القاموس المحيط مج / ١ ص ٢٦٩ ، لسان العرب مادة (أرخ) .
(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٧ .
(٣) علم التاريخ ـ نشأته وتطوره ، ص ١٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٨ ، وانظر: نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، ص ٥ وما بعدها .

وكان العرب قبل الاسلام ، وبعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزه يعرفون الأوقات ، ويحددونها بالنجوم والأهلة ، كما يؤرخون للأعوام بالأحداث العظيمة ، والوقائع المشهورة: كعام الفيل ، وعام الرمادة ، ونحوهما ، حتى جاء عصر خلافة عمر فأمر أن تتخذ هجرة النبي عليه السلام كبداية للتاريخ الاسلامي ، واستمر الأمر كذلك الى يومنا هذا.[(١)]

أما من حيث المادة التاريخية ، فقد اتخذ التاريخ في البداية طابع القصص ، وذكر الأيام والأنساب ، وبعض الأخبار المتفرقة التي يتناقلونها عن طريق الرواية ، فلما احتيج الى تدوين التاريخ بدأ المؤرخون في تدوين مايقتضيه الدين "(كالمغازى) للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث ، (والفتوح) لعلم مافتح من البلاد صلحا أو عنوة ، فينتظم أمر الخراج والجزية (والطبقات) للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين ، والعرب أسبق الأمم كافة الى هذا النوع من التاريخ (والأنساب) لتمييز أشراف القرشيين ، وسادات القبائل ، فتعلم مراتبهم ، وتقدر رواتبهم ، (وأيام العرب) لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه".[(٢)]

والواقع أن اهتمام مؤرخي العرب بالنسبة للموضوعات كان "مركزا في البداية على شئونهم وما اتصل بهم من دول ، ثم اتسع

---

(١) راجع علم التاريخ ، العبادى ، ص ٥٢ (هرنشو).
(٢) تاريخ الأدب العربي ، الزيات ، ص٢٧٦.

هذا النطاق فشمل الدولة الاسلامية عامة ، ثم اتسمت الكتابة التاريخية بشمول أكثر يمثل وحدة التاريخ وتكامله".[١]

ويمكن اجمال أهم الموضوعات التي كتب فيها المؤرخون العرب[٢] فيما يلي :

١) حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته ونشأته ، وبعثه وقصة كفاحه ضد المشركين في مكه ثم هجرته الى المدينة المنورة ، وغزواته مع اليهود والمشركين الى وفاته عليه السلام.

٢) تاريخ المعارك والحوادث الاسلامية التي حدثت بين المسلمين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من الشعوب الأخرى.

٣) تاريخ الأمم الأخرى التي احتكوا بها كالفرس والروم وغيرهما.

٤) تاريخ الأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية وغيرهما ، بالاضافة الى التاريخ للأنبياء والرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة.

٥) الأنساب ، وتراجم الرجال ، وقد اتخذت الكتابة التاريخية في هذين الموضوعين طرقا عدة.

٦) الأخبار ، والقصص ، وهذه كثيرا مايتطرق اليها الخيال ، فيمتزج فيها الحق بالباطل.

---

(١) علم التاريخ ، نشأته وتطوره ، ص ٢٩.
(٢) انظر: المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٦١.

ولقد ظهرت كتب كثيرة للمؤرخين العرب في التاريخ العام والخاص[1]، ولعل أهم كتب التاريخ العام تاريخ اليعقوبي المتوفى عام (٢٨١ هـ) ، والأخبار الطوال للدينورى المتوفى عام (٢٨٢هـ)، وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى المتوفى عام (٣١٠ هـ) ، وأخبار الأمم من العرب والعجم ، ومروج الذهب ، وأخبار الزمان ، وكلها للمسعودى المتوفى عام (٣٤٦ هـ) ، وتجارب الأمم لابن مسكويه المتوفى عام (٤٢١ هـ) ، والكامل في التاريخ لابن الأثير المتوفى عام (٦٣٠ هـ) ، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء المتوفى عام (٧٣٢ هـ) ، والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون المتوفى عام (٨٠٨ هـ) ، وغيرها كثير جدا .

ومن كتب التاريخ الخاص نذكر: جمهرة الأنساب ، وبيوتات قريش لابن السائب الكلبي المتوفى عام (٢٠٦ هـ) ، وفتوح الشام ، والمغازى النبوية ، وكلاهما للواقدى المتوفى عام (٢٥٧هـ) ،وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم المتوفى عام (٢٥٧هـ) أيضا، وولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام (٣٥٠ هـ) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى عام (٥٧١ هـ) ، وغيرها كثير.

وقد اعتمد المؤرخون العرب في تدوينهم للتاريخ على ثلاثة مصادر:

---

(١) راجع: تاريخ الأدب العربي ، حنّا فاخورى ، ص ٧٧٠ ومابعدها . ، وعلم التاريخ (هرنشو) ص ٦٢ ومابعدها .

١) النقل من المدونات: كالوثائق والسجلات الرسمية والكتب العربية والمترجمة ، ولقد ساعدهم في ذلك ظهور الدواوين التي أدى ظهورها الى وجود "سجلات رسمية ، ومصادر أصيلة للكتابة التاريخية ، استخدمها واستند عليها كثير من المؤرخين".[١]

كما ساعدهم على ذلك أيضا انتشار المكتبات الضخمة في العالم الاسلامي حينئذ ، وظهور الترجمة من اللغات الأجنبية ، مما أدى الى وجود كتب عربية ومترجمة يعتمدون عليها في نقل المادة التاريخية.

٢) النقل عن طريق الرواية والمشافهة: وتحريا لصحة النقل عن هذا المصدر اتخذوا عنصر الاسناد فلا يروون الخبر أو الحادثة التاريخية غالبا الا بعد اسناد متصل ، وعلى مدى سلامة السند وتسلسله تتوقف قيمة الرواية أو صحة الحدث،[٣] وقد يروون الحادثة الواحدة بأسانيد مختلفة ليضمنوا تأكيد صحة الخبر.[٤]

وللتأكد من سلامة السند اتخذوا علم (الجرح والتعديل) لنقد رجال السند ورواة الخبر ، وهم في كل ذلك متأثرون بطريقة علماء الحديث والفقه ،[٥] ولعل السبب في ذلك هو

---

(١) علم التاريخ ، نشأته وتطوره ، ص ٥٩.
(٢) راجع : البحث العلمي مناهجه وتقنياته ، ص ١٤٧.
(٣) انظر: علم التاريخ نشأته وتطوره ص ٥٥ ، تاريخ آداب اللغة ج/ ٢ ص ١٥٧.
(٤) راجع : الأدب المقارن ، ص ٢٥٣.
(٥) انظر: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ،روزنتال ، ص ٩١٧.

أن نشأة تدوين التاريخ متصلة بتدوين الحديث.

ولا يعني التزام عنصر السند في الرواية أن جميع المؤرخين العرب قد التزموا هذا العنصر ، فهناك من المؤرخين من تأثر بطريقة الفرس في التاريخ بدون أسانيد كالبلاذرى ، والمسعودى ، والدينورى.(١)

٣) النقل عن طريق المشاهدة والمعاينة والمعاصرة.

... ...

ولقد شدد علماء التاريخ على مبدأ الأمانة التاريخية ، والدقة في النقل ، كما اهتموا بذكر المصادر أثناء الكتابة ، وعدوا مايكتب في التاريخ ناقصا اذا لم تذكر مصادره ، كل ذلك بهدف غربلة الخبر التاريخي والوصول للحقيقة.(٢)

ومن هنا صار كتاب التاريخ الاسلامي على نوعين:

الأول : يهتم بجمع الأخبار دون تمحيصها أو الاهتمام بصحتها ونقدها فضلا عن ربط النتائج بالمقدمات ، والتحليل والتعليل.

الثاني : يحاول نقل الأخبار الصحيحة بعد تمحيصها ونقدها ، ولكنه لايحاول التحليل وربط النتائج بالمقدمات الا نادرا ،

---

(١) انظر: الأدب المقارن ، ص ٢٥٤.
(٢) انظر: علم التاريخ ، نشأته وتطوره ، ص ٥٦ ومابعدها.

فلما ألمت بالدولة الاسلامية عوامل الضعف التي أدت الى تفككها ، وجعلتها مطمعا للأعداء ، اهتم أكثر المؤرخين بالنقد فبرزت ظاهرة التحليل والتعليل وربط النتائج بالمقدمات ظهورا واضحا في التاريخ .(١)

... ...

وقد اتخذ المؤرخون العرب مناهج مختلفة في كتابة التاريخ وتدوينه ، فمنهم من اتخذ الترتيب الزمني ، ومنهم من سار على الترتيب الموضوعي ، وآخرون اتخذوا الترتيب الجغرافي .

... ...

التاريخ في الأندلس :

اتسمت الحياة الثقافية في الأندلس بالاعتماد على المشرق العربي مصدر الثقافة الاسلامية ، وانتقلت أكثر كتب المشارقة الى الأندلس ، وتأثر الأندلسيون خطى المشارقة في أكثر العلوم والفنون ومن ثم ظهرت المؤلفات الكثيرة في شتى العلوم ، ونال علم التاريخ النصيب الوافر من اهتمام الكتاب الأندلسيين لما شعروا بأن للأندلس تاريخا يستحق التقييد والتخليد ، ولعل أول من ألف في تاريخ الأندلس عبد الملك بن حبيب

---

(١) راجع : علم التاريخ نشأته وتطوره ص ٣٨ ، تاريخ الأدب العربي ، حنا فاخوري ص ٧٧٠ ، وانظر : نشأة التدوين التاريخي عند العرب ص ٦٧ وما بعدها .

المتوفى عام (٢٣٨ أو ٢٣٩ هـ)[١]، وله في التاريخ كتاب كبير.[٢]

وألف كثير من الكتاب والمؤرخين الأندلسيين في التاريخ، واشتهر كثير منهم كأحمد بن محمد الرازي المتوفى عام (٣٤٤هـ)، وأبو محمد بن حزم المتوفى عام (٤٥٦ هـ)، وأبو عمر بن عبد البر المتوفى عام (٤٦٣ هـ)، وابن حيان القرطبي المتوفى عام (٤٦٩ هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي المتوفى عام (٤٨٨ هـ)، والفتح ابن خاقان المتوفى عام (٥٣٥ هـ)، وابن بسام الشنتمري المتوفى عام (٥٤٢ هـ)، وابن الخطيب الأندلسي المتوفى عام (٧٧٦ هـ) وغيرهم كثير.

وقد مزج مؤرخو الأندلس التاريخ بالأدب، ونقلوا الحقائق التاريخية بعبارات رصينة واسلوب جزل، وتركيب متين، كما يجد القارئ ذلك في أكثر مؤلفاتهم التاريخية، كالذخيرة لابن بسام، والمقتبس لابن حيان، وغيرهما.[٣]

وامتاز أكثر التاريخ الأندلسي بالموضوعية العلمية حيث برع الأندلسيون في تعليل الظواهر التي فصلوا الحديث فيها من خلال التحليل، وربط النتائج بالمقدمات، كما اهتموا بتحري الدقة ونشدان الحقيقة من خلال الاهتمام بسند الرواية، والاهتمام

---

(١) انظر: الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، ص ١٢٥.
(٢) انظر: ترجمته في جذوة المقتبس ص ٢٨٢، ترجمة رقم (٦٢٨)، وانظر: الأعلام مج/٤، ص ١٥٧.
(٣) راجع: ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص ٦٠٥.

بذكر المصادر التي ينقلون عنها ، وهذا قريب مما سمي حديثا بالنقد الخارجي أو الظاهرى .

ولتحرى الدقة أيضا اتخذوا مايسمى حديثا بالنقد الداخلي أو الباطني ، والذى يتمثل في نقد متّن الخبر ، ووزنه بميزان العقل والمنطق ، وتفهم ملابسات الخبر ، ومقارنته بما صح من آخبار.(١)

... ...

التاريخ عند ابن الخطيب:

لعل أكثر ماعرف به ابن الخطيب ـ بعد كونه كاتبا ووزيرا في الدولة النصرية ـ هو أنه مؤرخ وقد ترك ضمن تراثه الضخم مؤلفات تاريخية كثيرة منها ماكتب نظما ، ومنها ماكتب نثرا ويمكن حصر كتاباته التاريخية في الكتب التالية:(٢)

أ ـ النظم:

١ ـ رقم الحلل في نظم الدول ، وهو أرجوزة في التاريخ ، لذلك فهي تخرج عن هذه الدراسة لكونها نظما .

٢ ـ قطع السلوك في أحوال الدول والملوك ، وهو أرجوزة في

---

(١) انظر: ملامح التجديد في النثر الأندلسي ص ٦٠٥ ومابعدها ، ، علم التاريخ نشأته وتطوره ص ١٢٧ ومابعدها .

(٢) راجع ملحق المصنفات .

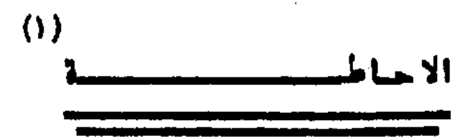
التاريخ أيضا وقيل أنها اسم آخر للأرجوزة السالفة ، وعموما فهي أيضا تخرج عن هذه الدراسة لكونها نظما أيضا .

ب ـ النـثر:

١ ـ الاحاطة في أخبار غرناطة.
٢ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام.
٣ ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
٤ ـ اللمحة البدرية في أحوال الدولة النصرية.

وسنحاول في الصفحات القادمة ـ بعون الله ـ استعراض كل من هذه الكتب على حدة لنتبين من خلال ذلك كله منهجه في البحث التاريخي .

... ...



الاحاطة (١)

حظي كتاب الاحاطة من بين الكتب التي صنفها ابن الخطيب بتنويه بارز ، واكبار متميز ، قال المقرى : " وأما كتاب الاحاطة فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب ، والمشارقة أشد اعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجا بذكره ، مع قلته في هذه البلاد المشرقية ، وقد اعتني باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي ، وسماه (مركز الاحاطة في أدباء غرناطة) ، ... ، ... ، وقال في آخره مانصه : " هذا آخر ماأردت ايراده ، وفوفت أبراده ، من كل طرفة وتحفة ، وفائدة أدبية تاريخية ، في كتاب (الاحاطة بتاريخ غرناطة) ... ، ... ، ... ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير الى عفو ربه ، محمد بن ابراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمنه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ".(٢)

وأورد المقرى حجة الوقفية التي كتبها الوزير أبو يحي ابن عاصم لما وقف سلطان الأندلس(٣) ، نسخة منه على بعض مدارس غرناطة في رجب من عام تسعة وعشرين وثمانمائة وفيها وصف الكتاب بأنه " واحد في فنه وفذ في معناه".(٤)

---

(١) حقق الأستاذ محمد عبدالله عنان هذا الكتاب أخيرا ، وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٩٧ هـ في أربعة مجلدات ضخمة.

(٢) نفح الطيب ج/٧ ص ١٠٢.

(٣) هو السلطان محمد الثامن ابن يوسف الثالث (٨٢٠ - ٨٤٥ هـ) .

(٤) نفح الطيب مج/٧ ص ١٠٤.

وأورد كذلك مايشير الى افادة العلماء - على اختلاف مشاربهم - منه واعجابهم به اذ قال: " وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة - يعني التي أرسلها ابن الخطيب الى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء - خطوط جماعة من العلماء ، فمن ذلك ماكتبه الحافظ المقريزى المؤرخ ، ونصه: " انتقى منه داعيا لمؤلفه أحمدُ ابن على المقريزى في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة ، ومارقمه الحافظ السيوطي ، ونصه: الحمد لله وحده ، طالعته على طبقات النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة ، انتهى ، وبعد هذين ماصورته: انتقى منه داعيا لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة ، وبعده ماصورته: أنهاه نظرا ، وانتقاء على الحموى الحنفي ، لطف الله به ، وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدى الشيخ محمد البكرى الصدّيقي مانصه: طالعة مبتهجا برياضه المونقه ، وأزهار معانيه المشرقة ، مرتقيها في درج كلماته العذاب ، سماء الاقتباس ، مقتنيا من لطائفه دررا وجواهر ، بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصدّيقي ، غفر الله له ، انتهى ، ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب ، كابن دقماق ، والحافظ ابن حجر ، وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ، ابن المؤلف أبي الحسن علي بن الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله بن مرزوق ، والعلامة أبي الفضل بن الإمام التلمساني ، والنحوى الراعي ،

والشيخ الفهامة الشهير يحي العجيسي شارح الألفية ، وصاحب التآليف ، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم".(١)

كما شهد له بعض المعاصرين بالتميز ، منهم الأستاذ الزيات، حيث يقول : " ولابن الخطيب القدم الراسخة في التاريخ ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتابا ، أشهرها (كتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة) وهو معجم تاريخي لرجالات غرناطة ".(٢)

ومنهم الأستاذ محمد عنان حيث يقول عنه : " هو بلا ريب أشهر كتب ابن الخطيب وأضخمها وأقيمها ".(٣)

تاريخ كتابته :

للاستاذ عنان في مقدمة تحقيقه للاحاطة كلام مضطرب ،لا يتفق على مادلّ عليه كلام ابن الخطيب نفسه من انجاز التصنيف الأول في عهد وزارته الأولى ، حيث يرى عنان أن ابن الخطيب قد أتم كتابه الاحاطة " لأول مرة قبل أوائل سنة ٧٦٩ هـ"،(٤) "وأنه استمر يدون وينقح تباعا في تراجم الاحاطة حتى أوائل سنة ٧٧٢ هـ".(٥)

---

(١) نفح الطيب ج/٧ ص ١٠٦ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ص ٣٤٣ ، وهذه الجملة غير دقيقة فمؤلفات ابن الخطيب كلها تبلغ الستين من تاريخ وغيره ، راجع ملحق رقم (١) .
(٣) الاحاطة مج/١ مقدمة المحقق ص ٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٥ ، ٦ .

وابن الخطيب في ترجمته لنفسه التي ألحقها بآخر الاحاطة ، ونقلها المقرى في نفح الطيب ،[(١)] ذكر كتابه هذا ضمن تواليفه التي صنفها في عهد وزارته الأولى قبل خلع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦٠ هـ ، باسم (الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة) وقال عنه (كتاب كبير في أسفار تسعة هذا متصل بآخرها).[(٢)]

كما ورد في كتابه (نفاضة الجراب) الذى صنفه عن فترة اغترابه في المغرب بعد خلع سلطانه في التاريخ المذكور اجازة بالمغرب ، كتبها أثناء مقامه به ، برواية كتابه المذكور مع كتب أخرى ، وقال في باب ماافتتحه بقوله " وصدر عني لهذا العهد من نظم الكلام ونثره مايذكر"[(٣)] :- "وطلب مني صاحب العلامة الرئيس الفاضل أبو القاسم بن رضوان ،[(٤)] أن أكتب لولده على ظهر مجموع انتسخ له من شعرى بالاجازة ، فكتبت له مانصه : ... ، ... ، ... ، أجزت الولدين المذكورين فيما يصح لي أن أجيز فيه من رواية أشرك هذا الفاضل في بعضها ، وأسهم بقلمه في فرضها ، ونظم ونثر هذا المكتتب من بعض بنيه ، وتأليف ينبه عليه : ككتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة في أسفار سبعة .. الخ ".[(٥)]

---

(١) مج / ٧ ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الاحاطة مج / ٤ ص ٤٦١ .
(٣) نفاضة الجراب ص ٣٤٣ .
(٤) كان في خدمة السلطان أبي الحسن المريني ثم السلطان أبي عنان انظر ترجمته في الاحاطة مج / ٣ ص ٤٤٣ ، وانظر نفاضة الجراب هامش ص ٣٢٥ .
(٥) نفاضة الجراب ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

وفي هذا مايؤكد أن كتاب (الاحاطة) كان مما صنفه ـ أصلا ـ في عهد وزارته الأولى قبل سنة ٧٦٠ هـ.

ولكننا نجد من الشواهد والتواريخ مايدل على أنه راجع تصنيفه بالزيادة والتنقيح الى وقت لاحق، وزمان متأخر، وصل فيما ذكره الى عام ٧٧١ هـ، وهذا التاريخ ورد في ترجمته لنفسه التي ألحقها بالاحاطة حيث يقول، وهو يشكو حزنه مما يلاقيه من حساده: "من الاستهداف للشرور، والاستعراض للمحذور، والنظر الشزر، المنبعث من خزر العيون"[١] قال: "والحال الى هذا العهد وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة على ماذكرته أداله الله بحال السلامة وبفيأة العافية، والتمتع بالعبادة، ...، ...، ...، نفثت عن بث، وتأوهت عن حق، ليعلم بعد المنقلب قصدى، ويدل مكتبتي على عقدى"[٢] ولم يرد في كلامه مايشير الى أن تصنيفه امتد الى أبعد من هذا التاريخ المذكور كما يزعم محقق الاحاطة.

ومما يدل على أن ابن الخطيب قد عاود تصنيفه بالتنقيح والزيادة، ماأضافه من أحداث ووقائع وأحوال لم تكن الا في عهد وزارته الثانية، ومن ذلك ذكره ماوقع من غزوات أندلسية عام ٧٧١ هـ[٣]، ومنه أيضا حديثه عن أسر ابن الحاج ومحنته

---

(١) الاحاطة مج/ ٤ ص ٤٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٤٧.
(٣) المصدر السابق ص ٥٣٦، وراجع مقدمة التحقيق مج/ ١ ص ٦٠.

عام ٧٦٨ هـ ،[1] ومنه في ترجمة ابن خاتمة شاعر ألمرية ذكره أنه كان بقيد الحياة في " ثاني عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة ".[2]

ومن الطبيعي أن يؤدى الاتساع في بعض الترجمات ، وزيادة عدد المترجمين الى زيادة أسفار الكتاب من السبعة التي ذكرت في اجازته في (نفاضة الجراب)[3] ، الى التسعة التي ذكرت في ترجمته لنفسه[4] التي أوردها المقرى ،[5] الى الاثنى عشر سفرا التي ذكرت في نص حجة الوقفية التي كتبها ابن عاصم لما وقف سلطان الأندلس ،[6] من كتاب الاحاطة نسخة على بعض مدارس غرناطة.[7]

... ...

أولية موضوعه :

ذكر المقرى أن ابن الأحمر[8] حفيد الغني بالله تعالى - الذى كان ابن الخطيب وزيرا له ، ثم انفصل عنه - أشار الى مايتعلق

---

(١) المصدر السابق مج / ١ ص ٣٦٣ ، وراجع مقدمة التحقيق ص ٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٩ ، وراجع مقدمة التحقيق ص ٦ .
(٣) راجع نفاضة الجراب ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
(٤) راجع الاحاطة مج / ٤ ص ٤٦١ .
(٥) راجع نفح الطيب مج / ٧ ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٦) هو السلطان محمد الثامن ابن يوسف الثالث (٨٢٠ - ٨٤٥ هـ) .
(٧) راجع نفح الطيب مج / ٧ ص ١٠٤ .
(٨) هو اسماعيل ابن الأحمر المتوفى عام ٨٠٧ هـ له كتاب نثير فرائد الجمان ، انظر ترجمته في الأعلام مج / ١ ص ٣٢٩ .

بكتاب الاحاطة في جملة كلام نصه : " وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد ، الأصيل حسبا ، البارع أدبا ، أبا عبد الله بن جزى ، وفد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنابه ، وكمل من تقريبه واصطناعه آرابه ، فانتدب الى ذكر وطنه الأندلسي ، ....، ....، وبرع غاية البراعة في التاريخ الذى جمعه ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، ....، ....، لكن سابق أجله منع من الاستمتاع بمجمله ومفصله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا ، والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال ، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فعين لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاص الدولة ، ورئيس الجملة ، أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جزى على شاطئ نهر فياض ، وانتشق من ورقاته أزاهر رياض ، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بـ (الاحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة) ... ".[1]

وحمل هذا بعض الباحثين المعاصرين من محققي تراث ابن الخطيب ، وهو الدكتور أحمد مختار العبادى على أن يقول : " وتجدر الاشارة الى أن هذه المحاولة ــ يعني التاريخ لغرناطة ورجالها ــ قد سبق أن قام بها قبل ابنِ الخطيب الأديبُ الشابُّ

---

(١) نفح الطيب مج/ ٧ ص ١٠٧ .

الغرناطي أبو عبد الله بن جزى الذى كتب أثناء مقامه بفاس تاريخا عاما لبلده غرناطة ، ولكن للأسف مات قبل أن يتمه سنة ٧٥٧ هـ ، وقد صرح ابن الخطيب نفسه أنه قابل ابن جزى بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة ٧٥٥ هـ ، وأنه قرأ كتابه ، وسار على منهاجه عند تأليف كتابه الاحاطة ، كذلك يذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة (١) ، الى أن ابن الخطيب قد نقل كثيرا في احاطته من تاريخ ابن جزى". (٢)

وليس في كلام ابن الخطيب عن ابن جزى المذكور ، وهو محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف بن جزى الكلبي (٣) ، مايشير الى اعتماده على كتابه في الاحتذاء به ، أو النقل عنه ، فكل ماذكره عن ذلك الكتاب في ترجمته لابن جزى قوله : " أخبرني عند لقائه اياى بمدينة فاس في غرض الرسالة ، عام خمس وخمسين وسبعمائة أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة ، ذاهبا هذا المذهب الذى انتدبت اليه ، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطلاعه وقيد بخطه من الأجزاء الحديثة ، والفوائد والأشعار مايفوت الوصف ، ويفوق الحد ". (٤)

كما أن ابن الخطيب لم يورد كتاب ابن جزى في مقدمته للاحاطة ،

---

(١) لعل الكاتب يقصد اسماعيل ابن الأحمر صاحب (نثير فرائد الجمان) ولا أدرى من أين استقى هذه المعلومة ، حيث أنه لم يشر الى ذلك.
(٢) نفاضة الجراب هامش ص ٣٦٧.
(٣) انظر ترجمته في الاحاطة مج / ٢ ص ٢٥٦.
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٧.

بين كتب التراجم والتاريخ التي ناظر بها تصنيفه ، ولم يذكر في مادة - مما ضمنه كتابه - نقلا عنه أو أخذا منه ، على كثرة ما اقتبس من آثار السابقين والمعاصرين .

على أن هذا لا ينفي احتمال النقل دون اشارة ، فكثيرا مايعمد ابن الخطيب في كتاباته الى اهمال السند ، واغفال المصدر ، وهو غير ماتقتضيه الدقة والأمانة العلمية ، ولكن التحقق من ذلك يحتاج الى دليل .

وهو لم ينوه بسابق له في معالجة الموضوع الذى تصدى له سوى أبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي المعروف بالملاحى المتوفى عام ٦١٩ هـ ، مؤلف كتاب (تاريخ علماء البيره وانسابهم وأنبائهم) [(١)] ، وهي عاصمة ولاية غرناطة القديمة ، اذ قال في مقدمة كتابه " وقد كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة ، قام من هذا الفرض بفرض ، وأتى من كله ببعض فلم يشف غله ، ولا سد خلة ، ولا كثر قلة ، فقمت بهذا الوظيف ، وانتدبت فيه للتأليف " . [(٢)]

وأشار الى مصنفات مشابهة في تاريخ مدن أندلسية ، لبعض معاصريه كمزية ألمرية لأبي جعفر بن خاتمه ، من أصحابه ، وتاريخ ألمرية وباجة لأبي البركات ابن الحاج [(٣)] بالاضافة الى كثير من

---

(١) انظر ترجمته في الاحاطة مج / ٣ ص ١٧٦ .
(٢) الاحاطة مج / ١ ص ٨٥ .
(٣) راجع الاحاطة مج / ١ ص ٨٣ .

التواريخ السابقة أندلسية ومغربية ومشرقية.(١)

سبب تأليفه :

يذكر ابن الخطيب في مقدمة كتابه السبب لتأليفه صراحة ، فيقول : " تذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخا هـزّ اليها ــ علم الله ــ وفاء وكرم ، ... ، كتاريخ مدينة بخارى لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن سليمان الغفار ، وتاريخ أصبهان لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الحافظ .. الخ ".(٢)

ثم يعدد الكثير من كتب تواريخ البلدان وتراجم رجالها ، ومن بينها تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، الى أن يقول : " فداخلتني عصبية لاتقدح في دين ولا منصب ، وحمية لا يذم في مثلها متعصب ، ... ، ... ، ورأيت أن هذه الحضرة ــ يعني غرناطة ــ التي لا خفاء بما وقرّ الله من أسباب ايثارها ، وأراده من جلال مقدارها ، جعلها ثغر الاسلام ، ومتبوأ العرب الأعلام ، ... ، ... ، ... ، فكم ضمت جدرانها من رئيس يتقي الصباح هجومه ، ... ، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها ، ... ، ... ، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه ، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبر يمينه ، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجة الخط ... الخ ".(٣)

ومن هذا النص يتضح أن الدافع لتأليف الاحاطة دافع وطني .

---

(١) راجع الاحاطة مج / ١ ص ٨١ ومابعدها .
(٢) الاحاطة مج / ١ ص ٨١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

منهج التاريخ في الاحاطة:

ذكر ابن الخطيب في مقدمته لكتابه أن باعثه على تصنيف تاريخ لمدينة غرناطة كان مارآه من مصنفات في تواريخ مدن أخرى، حشد من أسمائها الكثير على اختلاف مناهجها في التأليف، ومن بين ماذكر من مشاهير هذه الكتب في المشرق (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ،[1] وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ.[2]

ومع أنه لم ينص على احتذاء كتاب معين مما ذكره، فان منهج التأليف في الاحاطة تتضح فيه مشابهة شكله لهذين الكتابين الشهيرين بالمشرق، من ناحية التاريخ للمدينة ثم الترجمة لرجالها، كما قال في مقدمة كتابه: "ذكرت البلدة ــ حاطها الله ــ منبها على قديمها، وطيب هوائها وأديمها، واشراق علاها، ومحاسن حلاها، ومن سكنها وتولاها، وأحوال أناسها، ومن دال بها من ضروب القبائل وأجناسها".[3]

وهذا على غرار ماقاله ابن عساكر: "وقدمت قبل ذلك جملة من الأخبار في شرف الشام وفضله، وبعض ماحفظ من مناقب سكانه وأهله، وماحضوا به دون أهل الأقطار، وامتازوا به على

---

(١) انظر ترجمته في الأعلام مج/١ ص ١٧٢.
(٢) انظر ترجمته في الأعلام مج/٤ ص ٢٧٣.
(٣) الاحاطة مج/١ ص ٨٧.

سائر سكان الأمصار ، ماخلا سكان الحرمين ، وجيران المسجدين العظيمين".[١]

وعلى غرار ماقاله قبلهما الخطيب البغدادي في مقدمة تاريخ بغداد ، حيث قال : " هذا الكتاب تاريخ مدينة السلام ، وخبر بنائها ، وذكر كبراء نزالها ، وذكر وارديها ، وتسمية علمائها".[٢]

وعلى هذا فان الاحاطة يحتوى على فنين من فنون النثر متصلين اتصالا وثيقا هما : (فن التاريخ ، وفن التراجم) .

وقد قسم ابن الخطيب كتابه هذا الى قسمين :

القسم الأول : في حلى المعاهد والأماكن ، والمنازل والساكن .
القسم الثاني: في حلى الزائر والقاطن ، والمتحرك والساكن .

وسنتحدث عن القسم الأول في هذا الفصل ، أما الثاني فسنعرض له في فصل التراجم.

... ...

والقسم الأول تعريف بمدينة غرناطة ،[٣] جعله ابن الخطيب في فصول هي :

---

(١) تاريخ دمشق مج/١ ، ص ٥٠
(٢) تاريخ بغداد ج/١ ص ٣٠
(٣) من ص ٩١ الى ص ١٤٣٠

١) فصل في اسم المدينة ووضعها على الاجمال والاختصار.

٢) فصل في فتح هذه المدينة ، ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها ، وماكانت عليه أحوالهم ومايتعلق بذلك من تاريخ.

٣) فصل في ذكر ماآل اليه حال من ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى المعاهدين على الايجاز والاختصار.

٤) فصل في ذكر ماينسب الى هذه الكورة من الأقاليم التي نزلتها العرب بخارج غرناطة ، ومايتصل بها من العمالة ، وفيه فصول :

أ - فصل يتحدث فيه عما يحف بسور المدينة من القرى والجنّات القريبة ، ويعنونه بقوله : " فصل فيما اشتملت عليه خارج المدينة من القرى والجنّات والجهات".(١)

ب - فصل يتحدث فيه عما يحيط بالمدينة من الجبال ومابها من الخيرات.

جـ - فصل يتحدث فيه عما يحيط بما خلف السور من القرى والبساتين.

٥) فصل يتحدث فيه عن سِير أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم باختصار.

٦) فصل فيمن تداول هذه المدينة من لدن أصبحت دار امارة باختصار واقتصار.

---

(١) الاحاطة مج/١ ص١١٥.

ويلاحظ في هذا القسم أنه قد اختلط به كثير من الأدب الجغرافي ، لذا سنعرض لبعض هذا القسم في فصل الأدب الجغرافي .

ويمتاز تاريخه لمدينة غرناطة بالايجاز والاختصار ، وقد أشار هو الى ذلك في مواضع كثيرة ، واعتذر في آخر القسم عن ذلك بقوله : " وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار ويأتي في أثناء التعريف برجالها كثير من تفصيل ماأجمل ".(١)

وعلى الرغم من شدة ايجاز الكاتب في هذا القسم الا أنه أعطى صورة شبه كاملة عن مدينة غرناطة من حيث اسمها وتاريخها ، وذكر بنائها ، وفضلها ، ووصف تضاريسها ، ومناخها ، ومايتصل بها من القرى والضواحي ، وماتشتهر به من الزراعة والصناعة ، بل تعدى ذلك الى ذكر أهل المدينة فتحدث عن أحوالهم ، وعقائدهم ، وأنسابهم ، وعسكرهم ، وزيّهم ، وقُوتِهم ، وعُملتهم ، وبعض عاداتهم ، وصفة نسائهم ، الى غير ذلك مما يعطي صورة شبه تامة عن المدينة من جميع نواحيها .

ويمكن القول أن أكثر مافي هذا القسم ، وخاصة الجزء الذى تحدث فيه عن أهل غرناطة يعتبر من صنع ابن الخطيب ووضعه ، وهذا مما يدل على قدرته على وضع التاريخ الاجتماعي ، يقول في معرض حديثه المجمل عن أهل غرناطة : " وطاعتهم للأمراء

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

محكمة ، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة ، وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادّة ، وشعورهم سود مرسلة ، وقدودهم متوسطة ، معتدلة الى القصر ، وألوانهم زهر مشربّة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية ".(١)

ويقول عن نسائهم: " وحريمهم حريم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ،الا أن الطول يندر فيهن".(٢)

وقد يمزج حديثه بشيء من النقد الاجتماعي على شاكلة قوله بعد وصف نساء غرناطة: " وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين الصبغات ، والتنفيس بالذهبيات والديباجات ، والتماجن في أشكال الحلي ، الى غاية نسأل الله أن يغضّ عنهن فيها عين الدهر ، ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفي لطفه ، بعزته وقدرته".(٣)

ويميل ابن الخطيب كثيرا ـ في هذا القسم ـ الى احياء الصور والمشاهد التي يتحدث عنها ، كقوله في وصف اغتيال

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٤.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩.
(٣) المصدر السابق والصفحة.

السلطان أبي الحجاج عام ٧٥٥ هـ، في معرض حديثه عن الحكام والسلاطين الذين توالوا على عرش غرناطة: " ثم اغتاله ممرور من أخابيث السوقة، قيضه الله الى شهادته، وجعله سببا لسعادته، فأكبّ عليه في الركعة الأخيرة من ركعتي عيد الفطر، بين يدى المحراب خاشعا ضارعا، في الحال الذى أقرب مايكون العبد من ربه، وهو ساجد، وضربه بخنجر مهيئ للفتك به، في مثل ذلك الوقت، كان — زعموا — يحاول شحذه منذ زمان، ضربة واحدة على الجنب الأيسر من ظهره، في ناحية قلبه، فقضى عليه، وبودر به فقتل".(١)

وحين يصل ابن الخطيب بالحديث الى ذكر سلاطينه وأرباب نعمته يبالغ في الثناء عليهم، واطرائهم، كقوله عن أبي الحجاج السالف الذكر: " لباب هذا البيت، وواسطة هذا العقد، وطراز هذه الحلية "(٢) وكقوله عن الغني بالله: " وولي بعده - أى بعد أبي الحجاج — محمدٌ ولده، أكبر بنيه، وأفضل ذويه خلقا وخلقا، وحياء وجودا، ووقارا وسلامة وخيرية ".(٣)

ومما يحسب لابن الخطيب في هذا القسم من كتابه روعته في عرض الأفكار، وتنظيم المادة العلمية على الرغم مما امتاز به هذا القسم من القصر والايجاز.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٢، ١٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٣.

مصادر هذا القسم من كتاب الاحاطة:

اعتمد ابن الخطيب في هذا القسم من كتابه على بعض الكتب التي تحدثت عن تاريخ الأندلس ، وقد ذكر بعضها في بعض المواضع ككتاب تاريخ البيرة للملاحي[١] المتوفى عام ٦١٩ هـ ،والأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي[٢] المتوفى عام ٥٣١ هـ.

وأحيانا يكتفي بذكر أصحاب هذه الكتب مثل أبي مروان ابن حيان المتوفى عام ٤٦٩ هـ[٣] ، وأحمد بن محمد الرازى المتوفى عام ٣٤٤ هـ[٤] ، ومعاوية بن هشام من رجال القرن الرابع[٥] ، وابن القوطية المتوفى عام ٣٦٧ هـ.[٦]

كما اعتمد أيضا في بعض الموضوعات على الوثائق الرسمية ، يقول عند حديثه عن أنساب أهل غرناطة: " وأنسابهم حسبما يظهر من الاسترعات[٧] ، والبيعات السلطانية ، والاجازات ، عربية يكثر فيها القرشي ، والفهرى ، والأموى .. الخ ".[٨]

---

(١) راجع الاحاطة مج / ١ ، ص ٩٣.
(٢) " " مج / ١ ، ص ١١٠.
(٣) " " مج / ١ ، ص ٩٢ ، ١٠٣.
(٤) " " مج / ١ ، ص ٩٧ ، ١٠٤.
(٥) " " مج / ١ ، ص ١٠١.
(٦) " " مج / ١ ، ص ١٠٠.
(٧) الاسترعات: علق المحقق على هذه الكلمة بأنها ربما تكون الاشراعات ، والاشراع بمعنى الظهير أو المرسوم السلطاني .
(٨) الاحاطة مج / ١ ، ص ١٣٥.

وقد ينقل ابن الخطيب بعض الأخبار دون أن يشير للمصدر الذى نقل منه ، ويكتفي بقوله ، " قال بعض المؤرخين " أو ماشابه ذلك.

... ...

الطابع الأدبي في هذا القسم من كتاب الاحاطة:

على الرغم من شدة الاختصار في هذا القسم من الكتاب الا أنه يلاحظ فيه بعض الطابع الأدبي المتمثل في حرص ابن الخطيب على ايراد بعض النصوص الأدبية ، كالأشعار التي أوردها في وصف غرناطة:

" بلد يحف به الرياض كأنه .·. وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة .·. ومن الجسور المحكمات سواره" (١)

" أحن الى غرناطة كلما هفت .·. نسيم الصبا تهدى الجوى وتشوقه
سقى الله من غرناطة كل منهل .·. بمنهل سحب ماؤهن حريقه" (٢)

والأشعار التي أوردها في امتداح ضاحية (عين الدمع) احدى ضواحي غرناطة ، ومنها :

وليلا بعين الدمع وصلا قطعته .·. وأنجمه بين النجوم سعود

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٥.
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٧.

ترى الحسن منشور اللواء بسرّه .·. وظل الأماني في رباه مديد[١]

... ...

أسلوبه في هذا القسم من كتاب الاحاطة:

وأسلوب ابن الخطيب في هذا القسم من كتابه أسلوب مرسل في غالبه ، يمتاز بالسلاسة والوضوح ، ويعمد في بعض الأحيان الى استخدام الصور من خلال التشبيهات ، كقوله في معرض حديثه عن أهل غرناطة: " تبصرهم في المساجد أيام الجمع، كأنهم الأزهار المفتحة ، في البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة ".[٢]

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥.

اللمحة البدرية في الدولة النصرية [(١)]

تاريخ تأليفه :

أشار ناشر الكتاب في مقدمته الى أنه ألف عام ٧٦٣هـ [(٢)]،وهذا ليس بدقيق ، لأن ابن الخطيب ، ابتدأ تصنيف كتابه هذا في فترة نفيه أى بين عامي (٧٦٠ ، ٧٦٣ هـ) ، ولم ينته منه الا في عام ٧٦٥ هـ كما يشير في نهايته حيث يقول : " ... الى حين الفراغ من التأليف وهو آخر محرم فاتح عام خمسة وستين وسبعمائه". [(٣)]

وهذا يعني أن الكتاب لم يؤلف في فترة واحدة ، وانما امتدت فترة تأليفه بين عامي (٧٦٠ ، ٧٦٥ هـ). [(٤)]

... ...

منهجه في اللمحة البدرية :

يؤرخ هذا الكتاب لدولة معينة ، وهي الدولة النصرية في غرناطة ، ويبدأ التاريخ فيه منذ تولي أول حكام بني الأحمر

---

(١) نشر هذا الكتاب بعناية (محب الدين الخطيب) عام ١٣٤٧هـ ،بالقاهرة ، وبصدره ترجمة لابن الخطيب بقلم محمد على الطنطاوى .
(٢) اللمحة البدرية ، ص ١٠ .
(٣) اللمحة البدرية ص ١١٩ ، ويلاحظ أن هناك خطأ ، حيث كتب التاريخ (وتسعمائة) بينما الصحيح (وسبعمائة) .
(٤) راجع أيضا تاريخ المغرب الوسيط ، المقدمة ص ح .

عرش غرناطة عام ٦٣٥ هـ [١]، وينتهي بتاريخ الفراغ من تأليف الكتاب عام ٧٦٥ هـ.

وقد قسّم ابن الخطيب كتابه هذا الى خمسة أقسام:

"القسم الأول : في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملك سريرها ، وأحكم تدبيرها .

القسم الثاني : فيما يرجع اليها من الأقاليم والأقطار ، على الايجاز والاختصار.

القسم الثالث : فيمن دال بها من أمير وسلطان شهير.

القسم الرابع : في عوائد أهلها وأوصافهم على تباين أصنافهم.

القسم الخامس: في نسق الدول ، واتصال الأواخر منها بالأول". [٢]

ويلاحظ القارئ للكتاب امتزاج الوصف البلداني أو الجغرافي والتاريخ والتراجم فيه ، كما يلاحظ أن القسم الخامس منه ، وهو الذى يخص ذكر ملوك بني نصر ، وتاريخهم ، هو أكبر أقسامه ، حيث تقع الأقسام الأربعة الأولى في سبع عشرة صفحة [٣]، بينما يقع القسم الخامس في تسع وثمانين صفحة. [٤]

وقد تحدث في القسم الأول عن غرناطة ، من حيث اسمها ،

---

(١) راجع اللمحة البدرية ، ص ٢١ ، ٢٢.
(٢) اللمحة البدرية ، ص ١١
(٣) هي الصفحات من ١٢ الى ٢٩.
(٤) = الصفحات من ٣٠ الى ١١٩.

وموقعها ، وصفتها ، وبعض فضائلها ، وتاريخ افتتاحها ، وأهم القبائل التي سكنتها منذ الفتح .

كما تحدث في القسم الثاني عن الأقاليم والحصون التي ترجع اليها ، متناولا ذلك بالتفصيل الذى يدل على قدرته في الوصف البلداني .

وفي القسم الثالث ذكر ـ بايجاز ـ الملوك الذين تعاقبوا على حكمها منذ عصر الطوائف الى عصر بني الأحمر ، ثم قدم ملخصا لتاريخ بني الأحمر حتى فترة استبداد البرميخو على الحكم بين عامي (٧٦١ ، ٧٦٣ هـ) .

وقد جعل في هذا القسم فصلا عن فروع البيت النصرى ، أشار فيه الى أعلامهم ، وقال في نهايته : " .. حصل القصد من ذكر أولي النباهة من هذا البيت لما عسى أن يجره ذكر ، أو يدعو اليه تاريخ أو خبر ". (١)

وفي القسم الرابع تحدث عن سكان غرناطة في عصره ، مفصلا الحديث عن أوصاف رجالهم ونسائهم ، ولباسهم ، وسلاحهم ، ومبانيهم ، وطعامهم ، وعملتهم ، وبعض عاداتهم ، وغير ذلك مما يدخل تحت التاريخ الاجتماعي .

وتناول في القسم الخامس سلاطين بني نصر الذين تعاقبوا

---

(١) اللمحة البدرية ، ص ٢٦ .

على عرش غرناطة حسب ترتيب فترة حكمهم ، مفصلا الحديث عنهم واحدا واحدا ، من حيث نشأته ، وحاله وسيرته ، وأولاده ، ووزراؤه ، وكتابه ، وقضاته ، والملوك على عهده ، وبعض أخباره ، ومولده ، ووفاته ، الى غير ذلك من الأمور.

... ...

مقارنة بين كتابي اللمحة البدرية ، والاحاطة :

الواقع أن كتاب اللمحة البدرية يختلف عن الاحاطة من حيث موضوعه ، ذلك لأن اللمحة البدرية يؤرخ لفترة زمنية محددة ، ولدولة معينة ، هي دولة بني نصر.

بينما يحاول ابن الخطيب في الاحاطة الترجمة للمشاهير الذين دخلوا غرناطة منذ الفتح الاسلامي الى عصره ، دون الاهتمام أو التقيد بفترة زمنية خاصة ، أو دولة معينة.

ولهذا فقد رتب التراجم فيه على طريقة الحروف الهجائية ، بينما اتخذ الترتيب الزمني أساسا لترتيب من أرخ لهم من النصريين في اللمحة البدرية ، وهذا هو الذى جعل كتاب اللمحة البدرية أقرب الى التاريخ منه الى التراجم.

أما من حيث المنهج ، فقد اتفق كتاب اللمحة على الاحاطة ، في أن كلا منهما صدر بتعريف لمدينة غرناطة ، امتزج فيه

التاريخ بالوصف البلداني.[١]

ويجد القارئ لهذين الجزئين في الكتابين تماثلا كبيرا، يصح معه القول أنه نقل من أحدهما في الآخر، غير أن ماجاء في اللمحة كان شبه مختصر عما جاء في الاحاطة.[٢]

وثمة تماثل بين ماجاء في الكتابين، في ترجمات السلاطين من الأول، محمد بن يوسف الى السابع (أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل).

بينما تختلف ترجمته فيه للغني بالله عما جاء في الاحاطة، من حيث أنه جعل الحديث عنه في اللمحة على قسمين، مراعيا بذلك الترتيب الزمني للدول.

كما أن ترجمته للغني بالله في الاحاطة يكثر فيها الاطراء والمديح والتملق، عما في اللمحة، ولعل السبب في ذلك يرجع الى اختلاف الظروف عند كتابة كل من الترجمتين، اذ يبدو أنه في اللمحة البدرية قد كتب القسم الأول من ترجمة الغني بالله قبل استعادته لعرشه، ويظهر ذلك من قوله: "وانصرف الى رنده في أوائل الشهر المذكور — أى جمادى الأولى من عام ثلاثة وستين وسبعمائة —[٣] في الثامن منه، وهو الآن بها الى

---

(١) سنحاول دراسة بعض الأدب الجغرافي في هذا الكتاب في فصل الأدب الجغرافي.
(٢) راجع اللمحة البدرية من ص ١٢ : ٢٩، والاحاطة مج / ١ من ص ٩١: ١٤٣.
(٣) أشار الى ذلك في بداية الكلام.

عهد تأليف هذا الكتاب [١]، وكتب القسم الثاني في فترة متأخرة تصل الى عام ٧٦٥ هـ ، وهي سنة الفراغ من تأليف الكتاب.

بينما يمكن القول أن ترجمة الغني بالله في الاحاطة لم تكتب الا بعد عودته الى عرشه ، ويظهر ذلك من قول ابن الخطيب في فصل (ترتيب دولته الأولى) : "اذ هو ذو دولتين ، وسوغ ولايتين ، عززهما الله بملك الآخرة ... الخ" [٢]، كما يظهر أيضا من الأحداث التي ذكرها أثناء الترجمة اذ يصل بعضها الى عام ٧٦٩ هـ. [٣]

ولعل السبب في كثرة اطرائه ومديحه وتملقه لسلطانه في الاحاطة راجع الى ماكان عليه وضعه ـ أثناء ذلك ـ في الدولة ، من كثرة الحاسدين الذين راحوا يوغرون عليه صدر السلطان.

ولهذا جاءت ترجمته له في الاحاطة في أكثر من سبعين صفحة ، [٤] بينما وقعت ترجمته في اللمحة البدرية في أقل من عشرين صفحة. [٥]

وقد يرجع الى نفس السبب شدة انتقاصه وشتمه في الاحاطة لاسماعيل بن يوسف أخي الغني بالله ، وصهره محمد بن اسماعيل ،

---

(١) اللمحة البدرية ، ص ١٠٢.
(٢) الاحاطة مج / ٢ ص ١٥.
(٣) راجع السابق ص ٨٣ (الغزو لفتح جيان).
(٤) راجع السابق من ص ١٣ الى ص ٩١.
(٥) راجع اللمحة البدرية من ص ١٠٠ الى ١١٤ ، ومن ص ١١٧ الى ص ١١٩.

وكل من عمل في دولتيهما ، وان كان قد تحدث عنهم في اللمحة الا أنه لم يطل الحديث عنهم ، ولم يصفهم بتلك الأوصاف التي وصفهم بها في الاحاطة.

ومن هنا كان التاريخ لدولة بني نصر في اللمحة البدرية أكثر موضوعية منه في الاحاطة ، وان كان لا يخلو أيضا من تزييف الحقائق ، وعدم تحري الدقة.

... ...

مصادره في اللمحة البدرية :

اعتمد ابن الخطيب في هذا الكتاب على كتب تاريخية قديمة ، أشار الى بعضها في سياق الكتاب كتاريخ ابن القوطية ،[(١)] وتاريخ ابن حمامة ،[(٢)] وتاريخ عريب ،[(٣)] وتاريخ أبي القاسم الملاحي ،[(٤)] وتاريخ ابن عذارى المراكشي ،[(٥)] وان كانت اشاراته لنقله من هذه الكتب قليلة جدا.

كما نقل — كعادته — من بعض مؤلفاته المنثورة ، حيث نقل من كتاب (الاماطة عن وجه الاحاطة فيما أمكن من تاريخ

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١٥.
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٨.
(٣) انظر المصدر السابق والصفحة.
(٤) انظر المصدر السابق ، ص ١٩.
(٥) انظر المصدر السابق ، ص ٣٥.

غرناطة)[١] ، ومن كتاب (طرفة العصر في أحوال بني نصر)[٢] .

ونقل أيضا من منظومتيه التاريخيتين (رقم الحلل)[٣] ، و(قطع السلوك)[٤] .

كذلك أحال في مواضع كثيرة الى بعض كتبه كالاحاطة ،وطرفة العصر ، ونفاضة الجراب[٥] ، وسبب الاحالة الى هذه الكتب ، هو أنه لا يرغب اطالة الحديث في هذا الكتاب ، كما أشار الى ذلك في نهايته .[٦]

الطابع الأدبي في كتاب اللمحة البدرية :

يتمثل الطابع الأدبي في هذا الكتاب فيما يلي :

١ ـ الاهتمام بالجانب الأدبي لبعض الشخصيات ، فقد وضع فصلا خاصا عن شعر وتوقيع محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ثاني السلاطين والمتوفى عام ٧٠١ هـ[٧] ، كما قال عن ثالثهم ، محمد بن محمد بن محمد بن يوسف المتوفى عام ٧١٠ هـ:" وكان

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٧ .
(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٧ ، ٦٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٦٠ .
(٤) انظر المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٥) انظر المصدر السابق ، ص ١٩ ، ٦١ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٩ .
(٦) راجع المصدر السابق ، ص ١١٩ .
(٧) راجع المصدر السابق ، ص ٣٨ .

يقرض الشعر ، ويصغي اليه ، ويثيب عليه ، فيجيز الشعراء ، ... ، ويعرف مقادير العلماء ، ... ، ... ، حار النادرة ، حسن التوقيع ، مليح الخط". [١]

ثم أفرد فصلا خاصا لشعره ، أورد فيه جزءا من قصيدة طويلة مطلعها :

واعدني وعدا وقد أخلفا ∴ أقل شئ في الملاح الوفا [٢]

٢ ـ ايراد بعض النصوص النثرية والشعرية :

فمن ذلك ما أورده من نثر وشعر مما كتب على قبور بعض السلاطين ، كالسلطان محمد بن يوسف أولهم ، المتوفى عام ٦٧١ هـ ، [٣] وحفيده ، ثالث السلاطين المتوفى عام ٧١٠ هـ [٤] وغيرهما .

كما أورد بعضا مما قيل في رثائهم ، كقصيدة ابن الجياب في رثاء محمد بن محمد بن يوسف وتهنئة ولي عهده والتي مطلعها :

" مصاب جليل وصنع جميل ∴ وملك سعيد ،وأجر جزيل". [٥]

---

(١) اللمحة البدرية ، ص ٤٨ .
(٢) راجع المصدر السابق ، ص ٤٩ .
(٣) راجع المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) راجع المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٥) اللمحة البدرية ، ص ٤٦ .

وأورد أيضا نتفا من المراثي التي قيلت في السلطان اسماعيل بن فرج المتوفى عام ٧٢٥ هـ [١]، وقصيدة طويلة لابن شيرين ، يرثي بها سادس السلاطين محمد بن اسماعيل المتوفى عام ٧٣٣ هـ ، مطلعها :

" استقلا ودعاني ∴ طائفا بين المعاني " [٢]

وأورد جزءا من قصيدة لأبي زكريا الحكيم في مدح السلطان اسماعيل بن فرج ، يقول في مطلعها :

بحيث البنود الحمر ، والأسد الورد ∴ كتائب سكان السماء لها جند [٣]

وجزء آخر في نفس الغرض لابن الجياب أولها :

أما مداك فغاية لم تسبق ∴ أعيت على غرّ الجياد السبّق
فاشرح بسعدك كل معنى مشكل ∴ وافتح بسيفك كل باب مغلق [٤]

ومن القصائد الطوال أورد قصيدته التي ألقاها بسلا أمام السلطان أبي سالم المريني لمّا خُلع الغني بالله ، وفيها يمدح أبا سالم ، ويطلب منه العون له ولسلطانه ، ومطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ∴ وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهر

---

(١) راجع المصدر السابق ، ص ٧٦ .
(٢) اللمحة البدرية ، ص ٨٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

وفيها يقـول :

وهـذا ابن نصر قد أتى وجناحه ∴ مهيض ،ومن علياك يلتمس الجبر

ومنهـا :

أعده الى أوطانه عنك راضيا ∴ وطوقه نعماك التي مالها حصر

وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها ∴ فقد صدهم عنه التغلب والقهر(١)

٣ ـ ذكر النوادر والطرائف الأدبية:

فمن ذلك ماأورده في معرض الحديث عن كتاب السلطان محمد بن محمد بن يوسف ، من أنه " أقام كاتبا عنه مدة ، الى أن أبرمه انحطاطه في هوى نفسه ، وايثار المعاقرة ، ... ، فأخره عن رتبته ، وأقامه في عداد كتابه ، وتحت رفده ، وفي ذلك قال (أي الكاتب) من قصيدة:

أفي عادة الانصاف والعدل أن أُجفىٰ

لأن زعموا أني تحسيتها صرفا"(٢)

ومن النوادر أيضا ماأورده في معرض الحديث عن ثالث ملوك بني نصر ، حيث يقول : " أنشده يوم قعوده على سرير أبيه ثاني يوم وفاته أحد الشعراء في غرض التعزية

---

(١) راجع اللمحة البدرية ، ص ١٠١ ومابعدها .
(٢) اللمحة البدرية ، ص ٤٠ .

والتهنئة قصيدة أولها :

على من تنشر اليوم البنود .·. وتحت لواء من تسرى الجنود

فقال له السلطان : "على هذا الزّبلّح [(١)] الذى ترى قدّامك — يعني نفسه — فاستطرفها الناس وخجل الشاعر". [(٢)]

ومن ذلك أيضا ماأورده في سيرة خامس ملوك بني نصر ، حيث يقول : " واعتنى بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبذل في فداء بعض أعلامهم مايعزّ بذله ، ونقل منهم بعضا من حرف خبيثة ، فزعموا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشكر له ذلك". [(٣)]

وجعل فصلا عن ذكاء محمد بن اسماعيل سادس السلاطين ، قال فيه : " حدثني ابن وزير جده القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال : تذوكر يوما بحضرته تباين معنى قول المتنبي :

أيا خدد الله ورد الخدو .·. د ، وقد قدود الحسان القدود

وقول امرئ القيس:

وان كنت قد ساءتك مني خليقة .·. فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

---

(١) يقول ناشر الكتاب أنه لم يجد معنى لهذه الكلمة في المعاجم ، وأنها ليست من عامية المغرب ، ولعلها من عامية الأندلس ، راجع السابق ص ٤٨ ، هامش (٤) .

(٢) اللمحة البدرية ، ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

وقول ابراهيم بن سهل :

اني له من دمي المسفوك معتذر .·. أقول حملته من سفكه تعبا

فقال ، رحمه الله ، بديها — على حداثته — (بينهم مابين نفس ملك عربي ، وشاعر عربي ، ونفس يهودى تحت الذمة ، وانما تتنفس النفوس بقدر هممها) ، أو مامعناه هذا".[(١)]

وذكر في معرض الحديث عن شجاعة هذا السلطان ، أنه رمى أحد النصارى "بمزراق[(٢)] محلى السنان ، رفيع القيمة ، فأثبته ، وتحامل الطعين يريد الباب ، فمنع من الاجهاز عليه وانتزاع الرمح الذى كان يجره خلفه ، وقال : (اتركوه يعالج به جرحه ان أخطأته المنيه)".[(٣)]

قال ابن الخطيب معلقا على هذا : "فكان كما قال الشاعر في مثله ، ...،

ومن جوده يرمي العداة بأسهم .·. من الذهب الابريز صيغت نصولها
يداوى بها المجروح منها جراحه .·. ويتخذ الأكفان منها قتيلها[(٤)]

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٨.
(٢) المزراق : رمح قصير انظر : المصباح المنير ص ٢٥٢.
(٣) اللمحة البدرية ، ص ٧٩.
(٤) المصدر السابق والصفحة.

٤ - النقد الأدبي :

ومن الطابع الأدبي في هذا الكتاب ، بعض العبارات النقدية التي يرسلها ابن الخطيب في طيات الكتاب ، وهي قليلة ، منها قوله عند الحديث عن شعر ثاني السلاطين: "وقفت على كثير من شعره ، وهو نمط منحط بالنسبة الى أعلام الشعراء ، ومستطرف من الملوك أمثاله والأمراء".[١]

ويقول أثناء الحديث عن شعر ثالث السلاطين : "كان شعره مستطرفا من مثله ، لا ، بل يفضل به الكثير ممن ينتحل من الملوك الشعر".[٢]

٥ - استخدام النثر الفني :

ومن الطابع الأدبي أيضا استخدام الأسلوب الأدبي في الكتاب ، والتعبير بالصورة ، وهذا يظهر لقارئ الكتاب بيسر وسهولة ، ومن أمثلته ، قوله بعد أن تحدث عن أقاليم غرناطة : "وهذه الأقاليم منها ما استمرت الى الآن شهرته بما دعي به ، ومنها ما عم الجهل به على عادة الدهر ، مبلي الأسماء والمسميات ، وماحي الأعلام والسمات".[٣]

وقوله في صيغة مدح لبني نصر ، بعد الحديث عن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩.
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٩.
(٣) المصدر السابق ، ص ١٩.

الملوك الذين تعاقبوا على عرش غرناطة قبلهم: " وجمع الله ماأساره[1] العدو من الأندلس بعد الخضم والقضم ، على قوم من خيار الأمة ، .... ، .... ، ... ، ... ، يعرفون ببني نصر ، رقعوا الخرق ، وشعبوا النأى[2] ، وزجوا الأيام بين أطماع وهدنة ، ومنعة وانحياز ، ومدافعة وجهاد وموافقة ".[3]

ويقول في معرض الحديث عن ثاني ملوك بني نصر: " وطما عليه بحر من الفتنة لأول أمره ، وتكاثر المنتزون عليه والثوار ، وارتجت الأندلس ، فثبت لزلزالها ، رابط الجأش ، ثابت المركز".[4]

وأثناء الحديث عن خلع ثالث السلاطين يقول : " فأحيط به ، وجعل عليه الحرس ، وتسومع بالكائنة ، فوقع البهت ، وسال من الغوغاء البحر ... ".[5]

ويقول عن حال رابع السلاطين: " وكان فتى أى فتى لو ساعده الجد ، والأمر لله من قبل ومن بعد ".[6]

ومن الدقة في الوصف ، والقدرة على احياء المشاهد ، قوله

---

(١) أساره : أبقاه .
(٢) شعبوا : أصلحوا .
(٣) اللمحة البدرية ، ص ٢١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٥٤ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

أثناء الحديث عن بعض الأحداث في أيام السلطان الرابع ، بعد أن ذكر دخوله غرناطة: " فابتدره الناس من صائح ومشير بشوبه ، ومتطارح بنفسه . . ".[١]

ومن الصور الأدبية أيضا ، قوله في معرض الحديث عن أبي الحجاج: " وأجاز البحر ، . . . ، فافلتت من مكيدة العدو التي تخطاها أجله ، وأوهن حيلها سعده ".[٢]

وقوله عنه أيضا أثناء التاريخ للأحداث في أيامه: " وعلى عهده تغلب العدو على قلعة يحصب ، . . . ، . . . ، . . . ، ثم تهنأ السلم ، والتحف جناح الأمنة ".[٣]

ومن الصور الحية التي ينقلها ابن الخطيب بقلمه ، تصويره لحادثة قتل اسماعيل ابن يوسف ، تاسع السلاطين ، على يد صهره الذى ساعده في خلع الغني بالله .[٤]

. . . .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٧ .
(٤) راجع المصدر السابق ص ١١٦ ، ١١٧ .

أهم مميزات كتاب اللمحة البدرية الأدبية والتاريخية:

١) الاهتمام بالوصف الجمالي عند الحديث عن محاسن بعض الشخصيات ، أو عند الحديث عن مدينة غرناطة من خلال انتقاء الألفاظ ، والتأثير بالأسلوب ، والايحاء بالعبارات، يقول عن السلطان يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب على عهد ثاني ملوك بني نصر: " وكان ملكا صالحا ظاهر السذاجة ، سليم الصدر ، مخفوض الجناح لقومه ، شارعا أبواب الدالة عليه منهم ، أشبه بالشيوخ منه بالملوك في اللغط ، والاغضاء عن الجفوة ، والنداء بالكنية ، وهو الذى استولى على ملك الموحدين ، واجتث شجرتهم من فوق الأرض ، وورث سلطانهم".(١)

ويقول عن حمراء غرناطة: " ومدينة (الحمراء) دار الملك ، مطلة على معمورها ، في سمت القبلة ، تشرف عليها منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تعشي العيون ، وتبهر العقول ، وتنحدر من فضول مياها ، وأفياض حوائرها ، وبركها الى سفحه جداول تسمع على البعد أهزاجها".(٢)

٢) العناية أحيانا بالصور الوصفية لاتمام رسم الشخصية المؤرخ

---

(١) اللمحة البدرية ، ص ٤٢.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٤.

عنها ، وذلك كقوله عن أبي الحجاج يوسف: " كان أبيض ، أزهر ، أيدا ، [1] مليح القد ، جميل الصفات ، براق الثنايا ، أنجل ، رجل الشعر ، أسوده ، كث اللحية ، وسيما ، ... ، يفضل الناس بحسن المرأى وجمال الهيئة ". [2]

وكقوله عن اسماعيل بن يوسف ، المتصير اليه ملك غرناطة بخلع الغني بالله: " كان فتى وسيما بدينا على حداثة سنه ، ... ، ... ، حسن الصورة والقد ". [3]

٣) لا يحاول في رسم الشخصيات ، التدقيق ، ونعني به الوصول الى أدق ملامح الشخصية ، ولكنه يحاول أحيانا استيفاء الصورة — قدر ماأمكن — من خلال التعريف بالمؤرخ عنه من الناحيتين الوصفية ، والأخلاقية ، واستعراض أكثر جوانب شخصيته ، يقول عن أول سلاطين بني نصر ، الغالب بالله: " كان هذا السلطان آية من آيات الله في السذاجة ، والسلامة ، والجهورية ، جنديا ثغريا ، شهما أيدا عظيم التجلد ، رافضا للدعة والراحة ، مؤثرا للتقشف ، والاجتزاء باليسير ، متبلغا بالقليل ، بعيدا عن التصنع ، جافي السلاح ، شديد الحزم ، موهوب الاقدام ، عظيم التشمير ، محتقرا للعظيمة ، مقربا لصنفه ، مصطنعا لأهل بيته ،

---

(١) أيدا : قويا .
(٢) اللمحة البدرية ، ص ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

فظا في طلب حقه ، مباشرا للحرب بنفسه ، ... ، يخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر التبدى ، ويستشعر الجد في أموره ".[1]

ويقول عن ابن هذا السلطان ، السلطان محمد بن محمد بن يوسف: " كان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة ، وحزما ، ممهد الدولة الذى وضع ألقاب خدمتها ، وقدر مراتبها ، ... ، ... ، بسعة الذرع ، وأصالة السياسة ، ورصانة العقل ، وشدة الأسر ، ووفور الدهاء ، وطول الحنكة ، وتملؤ التجربة ، مليح الصورة ، تام الخلق ، بعيد الهمة كريم الخلق ، عظيم الصبر ، كثير الأناة".[2]

٤) يميل في هذا الكتاب الى الأسلوب المرسل والابتعاد عن التصنع والتكلف ، عند رواية الأحداث ، وسوق المعلومات ، فلا يتعثر في قيود المحسنات ، يقول عن أبي الحجاج ، في فصل (الأحداث في أيامه) : " وكان الغالب على أيامه الهدنة والصلاح والخير ، ... ، ... ، وفي أيامه بنيت المدرسة العجيبة ،بكر المدارس في حضرته ، فتمت وكملت أوقافها ، وبني الحصن السامي الذروة المنبي عن القدرة في الجبل المتصل بقصبة مالقة ، فعظم به الفخر ، وجلّ الذكر".[3]

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

٥) ومن مميزات الكتاب ، التفصيل الدقيق والرائع ، في الوصف الجغرافي ، ويظهر ذلك واضحا في القسم الأول الخاص بالحديث عن غرناطة ، من حيث موقعها [١] ، وفي القسم الثاني الخاص بذكر الأقاليم التي تتصل بها . [٢]

٦) ويهتم في الكتاب ، بالتاريخ الاجتماعي ، حيث جعل فصلا خاصا عن عوائد أهل غرناطة ، وأوصافهم [٣] كما تحدث بتفصيل عن أصول سكان غرناطة محاولا تحديد قبائلهم وأصولهم العربية . [٤]

٧) وأحيانا يعالج في هذا الكتاب بعض ماينقل من تاريخ في محاولة لنقده أو تصحيحه ، وذلك في اشارات سريعة ، كقوله في معرض الحديث عن أقاليم غرناطة : " واقليم الفحص خمسة أقاليم : همدان ، والغخار ، وأنبلاط ، وقلويش ، والكابس ، ذكر ذلك أبو القاسم الملاحي وغيره ، وأغفل أكثر ما أثبت ، وجلالة هذه المدينة أعظم " . [٥]

... ...

---

(١) راجع المصدر السابق ، ص ١٢ ومابعدها .
(٢) راجع المصدر السابق ، ص ١٨ ومابعدها .
(٣) راجع المصدر السابق ، ص ٢٧ ومابعدها .
(٤) راجع المصدر السابق ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٥) اللمحة البدرية ، ص ١٩ .

المآخذ عليه في اللمحة البدرية:

من المآخذ عليه تملقه واطراؤه لأرباب نعمته ، سلاطين الدولة النصرية ، وخاصة السلطان محمد الخامس (الغني بالله) ، وان كان ماجاء في هذا الكتاب ، أقل بكثير مما جاء في الاحاطة كما سلفت الاشارة.

كما يؤخذ عليه عدم الموضوعية في التاريخ ، واخفاء بعض الحقائق التي تعد من مخازي بني نصر ، ويظهر ذلك واضحا في حديثه عن رجوع الغني بالله الى ملكه ، حيث فصل القول في أعمال الأعلام عن هذا ، وأشار فيه الى أن الغني بالله قد تنازل لسلطان قشتالة عن بعض الحصون الاسلامية مقابل الاستعانة به في استرجاع ملك غرناطة ،(١) بينما يتحدث عن هذا الأمر هنا ، فيقول: "عاد (أي الغني بالله) الى ملكه من غير مظاهرة ولا حيلة ، وقد خلص الى الله قصده ، وظهر من ملك قشتالة انتباذه ، وضاق عن الصبر مسلكه ، فصرف وجهه الى مالقة مستميتا ، ففتح الله له حصون طريقه اليها ... الخ".(٢)

ومن ذلك أيضا امتداحه لأبي الجيوش نصر بن محمد رابع ملوك بني نصر ، المتوفى عام ٧٢٢ هـ ، بينما يذكر القلقشندى في صبح الأعشى أن هذا السلطان: "أساء السيرة في الرعية ،

---

(١) راجع تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٠.
(٢) اللمحة البدرية ، ص ١١٧.

والصحبة لمن عنده من غزاة بني مرين". [١]

وذكره ابن الخطيب نفسه في أعمال الأعلام بما يظهر منه أنه كان يستعين بملوك النصارى على المسلمين. [٢]

... ...

أسلوبه في كتاب اللمحة البدرية:

يتسم أسلوب ابن الخطيب في هذا الكتاب بالبساطة والسهولة والسلاسة ، والقصد الى تنسيق المعلومات التاريخية ، ويتفاوت من حيث التقيد بقيود الفن ، والارسال حسبما يقتضي الموقف، حيث تكون الحاجة الى السرد والمتابعة.

ولذا امتاز الكتاب في أغلبه بالتحرر من المحسنات البديعية ، وقلة السجع ، وعدم التكلف فيه ، وبهذا يمكن القول أن هذا الكتاب واحد من كتب ابن الخطيب التي صاغها على طريقة النثر المرسل.

... ...
... ...
...

---

(١) صبح الأعشى ، مج / ٥ ، ص ٢٥٢.
(٢) راجع تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٩١.

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام

وقد ألف ابن الخطيب هذا الكتاب أثناء اقامته بالمغرب بعد هروبه من الأندلس ، وكان تأليف الكتاب "عقب وفاة السلطان عبد العزيز المَريني سنة (٧٧٤ هـ) وتنصيب الوزير أبي بكر بن غازى لولده السعيد ملكا ، فقد أثار خصوم ابن غازى حملة شديدة على تولية الطفل ، فألف ابن الخطيب كتابه هذا ليثبت فيه أن لهذا الحادث نظائر كثيرة في التاريخ الاسلامي وأنه تصرف سليم لا يخالف أحكام الدين في شيء".(١)

ويقسّم ابن الخطيب كتابه هذا الى ثلاثة أقسام كبيرة هي :

"القسم الأول : ويتناول تاريخ المشرق الاسلامي ، وهذا القسم لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد .(٢)

القسم الثاني : وهو عن تاريخ الأندلس ، وقد نشر بعناية المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٤م (٣) ، تحت عنوان (تاريخ أسبانية الاسلامية) .

القسم الثالث: ويتناول تاريخ المغرب العربي ، وقد نشر هذا القسم

---

(١) مقدمة الاحاطة من انشاء محمد عبد الله عنان ج/١ ص ٧٢ ، وانظر نفح الطيب مج/٥ ص ١٨٠ ، ومقدمة كتاب تاريخ أسبانية الاسلامية ص (ز) ومابعدها ، ومقدمة تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ص (أ) ومابعدها .

(٢) راجع مقدمة (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) ص ٥ .

(٣) راجع مقدمة الاحاطة مج/١ ص ٧٢ .

بتحقيق الدكتور محمد مختار العبادى ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني تحت عنوان (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) .

وسنتحدث بالتفصيل عن كل من القسمين المطبوعين فيما يلي :

... ...

القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام
أو
[١ - تاريخ أسبانية الاسلامية]

هذا هو القسم الثاني من أقسام الكتاب ، و"هو عبارة عن تاريخ عام للأندلس منذ الفتح العربي حتى عصر المؤلف أى حتى القرن الثامن الهجرى ، وقد أضاف اليه ابن الخطيب مختصرا لتاريخ الممالك المسيحية الأسبانية مثل قشتالة وأرجون والبرتغال".(١)

وهذا القسم من كتاب أعمال الأعلام " مهم من حيث أنه أول تاريخ شامل للأندلس موجود حتى الآن".(٢) ذلك لأن ابن الخطيب قد تجاوز الاطار الموضوعي الذى وضعه لمؤلَّفه ، فلم يقتصر فيه على صغار السن من الملوك والحكام بل جعل كتابه تاريخا عاما للمشرق والمغرب والأندلس ، غير أنه عندما يصل بالحديث عن ملك أو سلطان صغير السن يشير الى ذلك بمثل قوله : " وهو من شرط الكتاب".

ويرى بروفنسال محقق هذا القسم من الكتاب أن ابن الخطيب اذا كان " يمر سريعا بما حدث في أسبانيا قبل القرن العاشر المسيحي (الرابع الهجرى) متبعا دون كبير اختلاف كتاب البيان

---

(١) مقدمة (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) ص ب .
(٢) السابق والصفحة.

المغرب لابن عذارى المراكشي ، فهو يعالج تاريخ مايلي ذلك باطناب ودقة لانجدهما عادة في التواريخ المنشورة الى يومنا هذا.[(١)]

... ...

سبب تأليف الكتاب:

أشرنا سلفا الى أن السبب الذى دعا الى تأليف هذا الكتاب هو الظروف السياسية التي وقعت في الفترة الأخيرة من حياة ابن الخطيب ، ذلك أنه عقب وفاة سلطان المغرب أبي فارس بويع لابنه الصغير السعيد ، بنظارة الوزير ابن غازى فثار خصوم الوزير ضد تولية الطفل ، ومن بين أولئك الخصوم بعض من كبار أهل غرناطة ، فألف ابن الخطيب هذا الكتاب ، ليبين أن في التاريخ الاسلامي حوادث مشابهة ، وأن هناك الكثير ممن بويع لهم ولم يبلغوا الحلم ، ورفع هذا الكتاب للوزير ابن غازى ، وأشار الى ذلك في مواضع كثيرة من هذا القسم من الكتاب.[(٢)]

ويبدو أن هذا هو السبب الظاهر وراء تأليف الكتاب بأقسامه الثلاثة ، ولكن في نظرى أن هناك سببين آخرين دفعاه الى تأليف الكتاب ، وخاصة هذا القسم الخاص بتاريخ الأندلس ، وكانا

---

(١) مقدمة تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ح .

(٢) راجع السابق ، ص ٥٧ ، ٦٨ .

السبب في تفصيله للأحداث التي عاصرها.

وهذان السببان هما :

الأول : أن ابن الخطيب حاول في هذا الكتاب تصحيح بعض الأخطاء والنظرات التاريخية التي ضمنها كتبه السابقة كالاحاطة واللمحة البدرية ، وكشف بعض الحقائق التي حاول اخفاءها في كتبه التاريخية السابقة ، وأقصد بذلك ماكان يخص عصر بني الأحمر في غرناطة.

الثاني : أن ابن الخطيب ألف هذا الكتاب ليكشف فيه الأسباب الحقيقية التي دفعته الى هجرة وطنه ، ومفارقة سلطانه ، وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي أغاظت سلطانه الغني بالله ، ودفعته الى المطالبة فيما بعد برأس ابن الخطيب.

... ...

منهج الكتاب:

لم يكتف ابن الخطيب في هذا الكتاب بذكر الأشخاص الذين بويع لهم قبل الاحتلام ولكنه كان يعرض لتاريخ أسبانيا منذ الفتح الى عصره ، واذا مامر خلال ذلك بأحد من الحكام صغار السن أشار الى ذلك ــ كما أسلفنا ــ ومن أمثلة هؤلاء المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن المتوفى عام (٣٦٦ هـ) [1] ،

---

(١) راجع السابق ، ص ٤١ .

وهشام بن الحكم المؤيد بالله[١]، وعبد الملك حفيد المنصور بن أبي عامر[٢] المتوفى عام (٤٥٦ هـ) ، ومحمد بن اسماعيل النصرى سلطان غرناطة المتوفى عام (٧٣٣ هـ) [٣]، وغيرهم.

وابن الخطيب يهتم لمبدأ الترتيب الزمني في التاريخ ، فاذا ماذكر شيئا على خلاف ذلك قدم له باعتذاره ، كقوله عند الحديث عن بني جهور في فصل (أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف) : " وكان من الترتيب أن نقدم من تقدم بالزمان من هؤلاء الرؤساء — يعني ملوك الطوائف — واستحق تقدم الذكر بتقدم وقت ظهوره ، وانما ابتدأنا بهؤلاء الجهاورة اعتناء بمحل ولا يتهم دار الملك قرطبة ".[٤]

ويحترم كذلك مبدأ الترتيب الجغرافي حتى أنه يعتذر عن تقديمه لتاريخ الأندلس على تاريخ المغرب بقوله: " كان الأولى بنا أن نذكر بعد دول الملوك بالمشرق من يتصل بهم من حدود البلاد المغربية ، من الجهات الافريقية ، وماوراءها غربا الى البحر المحيط ، وبعد ذلك نكر على الأندلس بالذكر، ونصرف القول بعد الفراغ من متصل البر الى ذكر ماوراء البحر، لكنا راعينا في ذلك غرضين: أحدهما المناسبة في الأموية ،

---

(١) راجع السابق ، ص ٤٣ .
(٢) راجع السابق ، ص ١٩٥ .
(٣) راجع السابق ، ص ٢٦٥ .
(٤) السابق ، ص ١٤٤ .

فان ملوك الأندلس منهم انما بقايا الدولة بالمشرق ، وفرع عن أصولها ، .... ، ... ، ... ، والثاني مابنينا عليه من الختم بالدولة المرينية ، لنبدأ الكتاب بذكر السلف الواجب الحق ، ونختمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحق ، فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك ، وعقبنا بالملك ، وختمنا منهم بختام المسك".(١)

... ...

مصادر الكتاب:

اعتمد ابن الخطيب في تأليف هذا القسم من الكتاب على الكثير من المؤلفات والكتب التاريخية القديمة ، من ذلك مثلا — مما أشار اليه في متن الكتاب — (المتين) و (أخبار الدولة العامرية) لابن حيان ، وتاريخ ابن خميس ، وتاريخ الميزابي ، وطبقات القضاة للخشني ، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، وغيرها .

وهو حين ينقل من الوثائق والكتب السابقة يشير الى ذلك أحيانا ، وفي بعض الأحيان يكتفي بالاشارة الى اسم المؤلف كأن يقول مثلا : قال ابن حزم أو قال ابن حيان ، وأحيانا ينقل بعضا من الروايات والأخبار دون أن يوثقها ، أو يبيّن المصدر

---

(١) السابق ، ص ٣ .

الذى نقلت منه ، ويكتفي بأن يقول قبل ذلك زعموا ، أو قالوا ، أو قال بعض المؤرخين ، أو ماشابه ذلك من العبارات [١]، وهذا عيب يقع كثيرا في هذا القسم من كتابه.

واعتمد في مواضع قليلة على النقل من الروايات الشفهية كقوله بعد أن تحدث عن بيوت النباهة في اشبيليه : (حسبما ذكر لي أبوبكرابن الوزير أبي عبدالله ..) [٢]، وكقوله : " حدثني صدر الشرفاء ، وعلم الجلساء ، أبو القاسم بن قاضي الجماعة أبي علي الحسن بن يوسف الحسني .. " [٣].

وأحال كثيرا الى بعض مؤلفاته كالاحاطة ، واللمحة البدرية ، وأشار الى بعضها الآخر عند ورود مايناسب ذلك [٤]، غير أنه لم ينقل منها لا من المنثور ، ولا من المنظوم [٥].

وهو عند ما ينقل من كتب السابقين ينقل بالنص غالبا ، واذا مااختصر شيئا ذكر ذلك وأشار اليه [٦].

ويحاول أحيانا نقد ومعالجة ماينقل ، كقوله بعد الحديث عن المتأمر بجيّان يوسف بن عبد الرحمن بن جزى المتوفى عام ٥٨٩ هـ :

---

(١) راجع السابق ، الصفحات ٢٩ ، ٣٢
(٢) السابق ، ص ٣٤.
(٣) السابق ، ص ٣٠٥.
(٤) انظر السابق ، ص ٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٠.
(٥) اعتمدت في ذلك على فهرس الكتب التي ذكرت بالمتن.
(٦) راجع تاريخ اسبانية الاسلامية ، ص ٨٠.

"وعندى أن القاضي المتأمر بها غيره "[1]، وكقوله بعد أن أورد خبر قتل حاكم سرقسطه منذر بن يحي عام ٤٣١ هـ ، على يد ابن عم له: " وعلى ماتقرر من قتل منذر أكثر الحكايات الا أن صاحب (المغرب) ذكر في كتابه في سنة ٤٣٨ هـ حديث آل المنذر، فقال مانصه: وذلك أن أمر سرقسطة كان الى رجل من التجيبيين يسمى منذر بن يحي ، فكان من قواد الدولة العامرية ، ومات في أمد الفتنة ، فورث ملكه ابنه يحى بن منذر ، وكانت سنه فيما يذكر تسع عشرة سنة ، فتسمى بالحاجب معز الدولة، فاحتقره بنو عمه ، وتواطئوا على قتله مع كبير منهم دخل يوما للسلام عليه ، فضربه بسكين في صدره ، كان سبب ميتته ، وخرج هذا القاتل ، فاجتمع عليه بنو عمه ، وولوه أمرهم ، وكان عاهر الفرج : ذكر أنه كان يدخل على النساء الحمام ، فانكروا فعله ، وقام عليه أهل سرقسطة ، وهموا بقتله ، فخرج فارا بنفسه ، وأقام أهل سرقسطة دون أمير ، فبعثوا الى سليمان بن هود ، فولوه على أنفسهم ، فبقي أميرهم الى أن مات".[2]

ثم يحاول ابن الخطيب التوفيق بين آراء المؤرخين ، ومعالجة مانقله من كلامهم بالنقد والتحليل تحريا للدقة والموضوعية ، فيقول معقبا على ذلك: " فان كان ماذكره ـ يعني صاحب المغرب ـ صحيحا ، فيظهر أن منذر بن يحي ولي بعده ولد له

---

(١) راجع السابق ، ص ٢٥٩.

(٢) السابق ، ص ٢٠٠.

أو أخ سمي لأبيه ، فجرت عليه الحادثة الشبيهة بالحادثة عليه ، والا فهو وهم من المؤرخ ، والمشهور في ثوار الأندلس ، وملوك الطوائف انما هو منذر بن يحي".[(١)]

... ...

الطابع الأدبي في هذا القسم من الكتاب:

يمتاز هذا القسم من الكتاب بالطابع الأدبي ، وقد أشار ابن الخطيب في بدايته على اشتماله على جانب أدبي حيث يقول : " وشأننا في هذا القسم قريب ، مما بنينا عليه من الاختصار والتقريب ، الا ماكان المستظهر والغريب ، أو المتأخر القريب ، فقلما خلونا من الاسهاب ، وتزيين الكتاب بالآداب ، وحسبنا الله ميسر الآراب ، لا اله الا هو".[(٢)]

ويتمثل الطابع الأدبي فيما يلي :

١ - كثرة نقل ابن الخطيب عن البلغاء ، والاكثار من ايراد الشواهد والنصوص الأدبية شعرا ونثرا .

٢ - ايراد الطرائف والنوادر من الأخبار والحكايات الأدبية.

٣ - اصطناعه الأسلوب الأدبي في التعبير والتصوير.

---

(١) السابق ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) السابق ، ص ٤ .

وهذا كله طبع الكتاب بسحة أدبية واضحة.

فمن النقول الأدبية:

أ ـ الأشعار:

المتمعن في الأشعار التي أوردها ابن الخطيب في هذا القسم من كتابه يجد أنها على أربعة أنواع:

الأول: أشعار يوردها لتوضيح بعض المعاني ، ووصف الأحوال التاريخية ، وهذا يدل على أن الشعر عنده أداة للمنهج التاريخي.

ومن هذا النوع قصيدة أبي الحسن بن الجدّ التي يمدح بها يوسف بن تاشفين والتي مطلعها:

في كل يوم غريب فيه معتبر ∴ نلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس ∴ دوائر السوء لا تبقي ولا تذر[1]

الثاني: أشعار يوردها كشواهد ، وتعقيب على بعض الأمور التي تدعو للاعتبار والاستبصار ، وهذه لا تتعدى البيت والبيتين ، ومنها ما عقب به بعد الحديث عن ولاية الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد في سن مبكرة ، حيث أورد قول الشاعر:

---

(١) السابق ، ص ٢٤٢.

لا يضير الصغير حدثان سن .'. انما الشأن في سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم .'. لم تنله بالركض كف مغير (١)

الثالث: أشعار يوردها ليبين من خلالها الجانب الأدبي في بعض الشخصيات التاريخية ، وهذا كثير يخص به الكتاب ، ومنه ماأورده من مقطوعات لعبد الرحمن الداخل المتوفى عام ١٧٢ هـ ، في حنينه لوطنه ، يقول فيها :

أيها الراكب الميم أرضي .'. اقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بأرض .'. وفؤادى ومالكيه بأرض (٢)

وقوله في شأن نخلة أذكرته وطنه :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة .'. تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى .'. وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة .'. فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي (٣)

ومن ذلك أيضا ، أورد مقطوعة للحكم بن هشام المتوفى عام ٢٠٦ هـ ، وهي التي قالها في جوارٍ كان مغرما بهن ، يقول فيها :

ظل من فرط حبه مملوكا .'. ولقد كان قبل ذاك مليكا

---

(١) راجع السابق ، ص ١٥٧.
(٢) السابق ، ص ١٦٤.
(٣) السابق والصفحة.

ان بكى أو شكا الهوى زيد ظلما .·. وبعادا يدني حماما وشيكا
تركته جآذر القصر صبا .·. مستهاما على الصعيد تريكا[1]

ويدخل في هذا النوع أيضا بعض الأشعار التي أوردها منسوبة للمعتضد بن عباد[2] المتوفى عام (٤٦١ هـ) ، كما يدخل فيه أيضا القطعة التي أمر المعتمد ابن عباد المتوفى عام (٤٨٨ هـ) أن تكتب على قبره ، والتي يقول منها :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى
حقا ظفرت بأشلا ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
بالخصب ان أجدبوا بالري للصادى[3]

الرابع: أشعار أوردها ابن الخطيب لمجرد اشباع نزعته الأدبية ، وهذه كثيرة أيضا ، وهي في أغلبها قصائد مطولة ،ومنها قصيدة صاعد البغدادى المتوفى عام ٤١٧ هـ ، في تهنئة المنصور بن أبي عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ، بفتح بعض المدن ، يقول في مطلعها :

---

(١) السابق ، ص ١٧.
(٢) راجع السابق ، ص ١٥٧.
(٣) السابق ، ص ١٦٤.

جددت شكرى للهوى المتجدد ∴ وعهدت عندك منه مالم يعهد

اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى ∴ غضا وعاد الملك عذب المورد

ووقفت في شاني حنين وقفة ∴ فرأيت صنع الله يؤخذ باليد (١)

وقصيدة ابن دارج القسطلي المتوفى عام ٤٢١ هـ، في مدح سليمان بن الحكم المتوفى عام (٤٠٧هـ) والتي مطلعها :

هنيئا لهذا الملك روح وريحان ∴ وللدين والدنيا أمان وايمان

فان قعيد الخزى قد ثل عرشه ∴ وان أمير المؤمنين سليمان

سمي الذى انقاد الأنام لأمره ∴ فلم يعصه في الأرض انس ولا جان (٢)

ومنها أيضا قصيدة لابن دراج السالف الذكر في مدح خيران العامرى المتوفى عام ٤١٩ هـ ، يقول في مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ∴ وبشراك قد آواك عز وسلطان

هو النجم لا يدعى الى الصبح شاهد ∴ هو النور لا يخفى على الشمس برهان (٣)

كما أورد أيضا بعض الأشعار التي قيلت في تهنئة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر بولاية العهد .(٤)

وأورد أيضا في هذا القسم من كتابه بعضا من الأشعار التي

---

(١) السابق ، ص ٧٢ .
(٢) السابق ، ص ١٢٣ .
(٣) السابق ، ص ٢١٢ .
(٤) راجع السابق ص ٩٤ ومابعدها .

قيلت في رثاء بعض الملوك والسلاطين والأمراء ، كالمقطوعات والقصائد التي رثي بها المعتمد بن عباد [1] ، ومنها قصيدة طويلة لابن عبد الصمد مطلعها :-

ملك الملوك أسامع فأنادى .·. أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور فلم تكن .·. فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا .·. وتخذت قبرك موضع الانشاد [2]

ومن ذلك أيضا قصيدة طويلة لابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠ هـ في رثاء بني الأفطس ، مطلعها :

تسر بالشئ لكن كي تغرّ به .·. كالأيم ثار الى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها .·. لم تبق منها وسل ذكراك من خبر [3]

ومن رثاء الملوك أيضا ، أورد ماقاله الشيخ أبوبكر بن شيرين في رثاء السلطان محمد بن اسماعيل النصرى المقتول عام ٧٣٣ هـ ، والتي مطلعها :

استقلا ودعاني .·. طائفا بين المغاني
وانعما بالصبرانى .·. لا أرى ماتريان [4]

وهي طويلة أيضا .

---

(١) راجع السابق ، ص ٩٤ ومابعدها .
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ص١٦٥ .
(٣) السابق ، ص ١٨٦ .
(٤) السابق ، ص ٣٠١ .

وأورد كذلك مما يدخل تحت هذا النوع ، بعض القصائد التي قيلت في رثاء المدن ، كقصيدة أبي عامر بن شهيد المتوفى عام ٤٢٦ هـ ، في رثاء قرطبة ، والتي يقول منها :

مافي الطلول من الأحبة مخبر ∴ فمن الذى عن حالها نستخبر
لا تسألن سوى الفراق فانه ∴ ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا (١)

ومن ذلك أيضا قصيدة أبي المطرف بن عميره في رثاء بلنسية ، وهي طويلة يقول في مطلعها :

مابال دمعك لايني مدراره ∴ أم مالقلبك لا يقر قراره
أللوعة بين الضلوع لظاعن ∴ سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه ∴ بعد الدنو وأخلفت أوطاره (١)

هذا بالاضافة الى بعض أشعار ابن الخطيب نفسه التي أوردها في هذا القسم من الكتاب ، وسنتحدث عنها في معرض الحديث عن الجانب الذاتي في الكتاب.

... ...

ب ـ الرسائل والكتب:

أيضا من الطابع الأدبي في الكتاب كثرة نقل ابن الخطيب

---

(١) السابق ، ص ٢٧٣.

لبعض النصوص النثرية ، من ذلك مثلا نقله من رسالة له أثناء الحديث عن قرطبة ، حيث أورد قوله عنها : " قرطبة ، وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية الطامية ، والأطواد الراسخة الراسية ، والمباني الباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية . . الخ ".(١)

كذلك من النصوص النثرية يورد رسالة بعث بها يوسف بن تاشفين المتوفى عام ٥٠٠ هـ الى المستعين بالله أحمد بن هود المتوفى عام ٥٠٣ هـ ، وقد أورد هذه الرسالة ليؤكد بها على أن ابن تاشفين لم ينازع ابن هود هذا كما فعل مع بقية ملوك الطوائف.(٢)

ومن النصوص النثرية يورد ابن الخطيب رسالة بعث بها الخليفة هشام المؤيد بالله الى عبد الملك بن المنصور ابن أبي عامر ٣٩٩ هـ ، وهي ظهير يقضي بتسمية عبد الملك بالمظفر.(٣)

ومن ذلك أيضا يورد جزءا من رسالة بعث بها المنصور ابن أبي عامر ٣٩٢ هـ الى كافة جنده ، يعتب عليهم بما ظهر من نكوصهم في احدى المعارك.(٤)

---

(١) السابق ص ١٤٦

(٢) راجع تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ١٧٣.
(٣) راجع السابق ، ص ٨٨.
(٤) راجع السابق ، ص ٧٢.

ومن نصوص النثر أيضا مانقله ابن الخطيب عن ابن حزم المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، في رثاء قرطبة ، حيث نقل قطعة نثرية طويلة ، يقول منها ابن حزم: " وقفت على أطلال منازلنا ، ... ، ... ، فرأيتها قد محيت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها وغيرها البلى ، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ،وفيافي موحشة بعد الأنس ، وآكاما مشوهة بعد الحسن .. الخ "[١] وهذا النص المنقول طويل .

ومن النصوص النثرية أيضا ، نصا كتابين طويلين تبادلهما ابن هود ، والخليفة المستنصر العباسي ببغداد .[٢]

... ...

٢ - ايراد الطرائف والنوادر من الأخبار والحكايات الأدبية :

ومن الطابع الأدبي في هذا القسم من الكتاب ايراد بعض من النوادر والطرائف الأدبية ، فمن ذلك قوله بعد الحديث عن جرأة الناصر لدين الله على الدماء : " حدث شرطيه أنه استدعي للقصر ليلا ، فأمره بضرب عنق جارية لا نظير لها في الدنيا ، وهي تسترحمه فلا يرحمها ، قال : وسمعت للسيف

---

(١) السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) راجع نص الرسالتين في السابق ص ٢٨٠ ومابعدها .

في عنقها صوتا لم أعلم ماهو ، فلما ضمت عليها النطع[1] ، وخرجت بها الى الحفرة ، ألفيت عقدا قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا ، ورجعت فأعلمته ، فقال: اذهب به فهو لك".[2]

ومن الحكايات الأدبية الغريبة ، قوله: " ومن غرائب سعد ابن أبي عامر أن صاعد بن الحسن نديم المنصور أهدى اليه أيلا[3] سمنه على عادة أهل الأندلس ، وسماه غرسيه باسم العلج ملك الروم ، وأنفذه الى القصر يوم السبت المنتصف من ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ ، وكتب معه بهذه الأبيات متفائلا:

ياحرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل
ياسلك كل فضيلة ونظام كل جزيلة وثراء كل معيل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من .·. مقداره أهدى اليك بأيل
سميته غرسية ، وبعثته .·. في حبله كيما يتاح تفاؤلي
فلئن قبلت فتلك أنعمُ منةٍ .·. أسدى بها ذو منحةٍ وتطول

فاتفق أن خيل المنصور لقيت النصراني جزافا ، وهو يتصيد فأسرته ، وجاءت به ، فكان من الاتفاق الذى عظم منه العجب".[4]

---

(١) النطع : جلد يوضع تحت الشخص المراد قتله.
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٤٠.
(٣) الأيل : هو التيس الجبلي ، انظر المصباح المنير ، ص ٣٣.
(٤) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٦٨ ، ٦٩.

ويتحدث عن ذى الرياستين أبي مروان عبد الملك بن رزين بن هذيل حسام الدولة ، فيذكر أنه : " كبا به فرسه يوما وقد ركب متصيدا ، فسقط سقطة أوهنت قواه ، ودعته الى ملازمة مثواه ، وبلغه أن أحد حساده شمت بوقيعته ، وسر بصرعته ، فقال :

اني سقطت ولا جبن ولا خور ∴ وليس يدفع ماقد شاءه القدر
لا يشمتن حسودى ان سقطت فقد ∴ يكبو الجواد ، وينبو الصارم الذكر
هذا الكسوف يرى تأثيره أبدا ∴ ولا يعاب به شمس ولا قمر [(١)]

ومن النوادر والأخبار الأدبية ، مايرويه في معرض الحديث عن أحد متأخرى المرابطين ، وهو أبو القاسم بن قسي ، مدعي الهداية ، الذى كان يجزل العطاء على الناس ، ويحشو عليهم المال من غير عدد ، ويزعم أنه يصله من السماء ، حيث يروى ابن الخطيب : " أن رجلا من البادية قال لأصحابه ، وقد أعطاه : عجبا لهذا المال الذى يصل الامام من السماء كيف عليه طابع المرابطين ، ولم يكن عليه طابع غير ذلك ، ونقل له هذا الحديث فكان آخر العهد بذلك الرجل " . [(٢)]

ومن النوادر الأدبية أيضا مايرويه عن مدعي الهداية سالف الذكر ، وأنه كان يقول : " أنشدني ربي في المنام :

---

(١) السابق ، ص ٢٠٧ .
(٢) السابق ، ص ٢٥١ .

اردد على قوس العلى أوتاره .·. وارم العدا بسهامها المقاره
وانفض يديك بشلب مفتاح البلا .·. والمنجيات وأمها المختاره
ويكون ذاك اذا تكاثرت العدا .·. وتملأت قنن الجبال نصاره

ولما نقد عليه قوله في نصارى (نصاره) غضب ، وقال: (كذا قال لي : قل نصاره) فمضى على هذا السبيل".[1]

ويهتم ابن الخطيب بذكر النوادر والحكايات والأخبار التي تثير في النفس كوامن الشجن ، لغرض الاعتبار ، ومن ذلك قوله بعد أن وصف خلع أهل قرطبة لهشام بن محمد آخر المروانيين : " وذكر بعض خدمة المسجد أن أول ماسأل (هشام) الشيوخ الداخلين عليه احضار كسيرة يسد بها جوع طفلة صغيرة له ، اذ كان قد ضمها اليه ساترا اياها بكمه من برد ليلته ، وكانت تشكو له الجوع ، ذاهلة عما أحاط بها ، فتزيد في همه ، وسأل سراجا يتأنس به نساؤه ، فأبكى من كلمه اعتبارا بعادية الدهر".[2]

كما يهتم أيضا بايراد الحوادث الفاجعة ، والتفصيل في تصويرها ، يقول بعد أن تحدث عن بعض رؤساء الطائفة البربرية : " وجميع من ذكرنا زاحمهم المعتضد ابن عباد بمنكب العز

---

(١) السابق ، ص ٢٥٢.
(٢) السابق ، ص ١٣٩.

والصبر والسلاطة ، فأرداهم تارة بالقهر والغلبة ، وتارة بالحيلة ، وكان في آخر أيامه قد صرف وجه السياسة الى استمالتهم بالصلات والمودة الى أن وجه اليهم في الزيارة ليتجمل بهم في اعذار ، فأتوه في أحسن زى ، وأفخم أبهة ، وقد كانت تكررت زيارتهم له أفذاذا قبل ذلك ، فجاؤوا اليه مباهين في مائتي فارس من رؤساء قبائلهم ، فأكرمهم ، وأمر بتطبيب الحمام لهم ، وحملهم اليه عبيده ، وهم الثلاثة أمراء المذكورون ، أبو نور ، وابن نوح ، وابن خزرون ، فلما دخلوا الحمام ، وقعدوا بازاء حوضه ، أمر فبني عليهم خلف دفة الحمام ، ولما فرغ من البناء أمر موقد النار بالزيادة والالحاح في الاحراق ، فالتهب الحمام ، ولم يجدوا مخرجا منه ، فكان آخر العهد بهم ، وأقام ذلك الحمام معطلا الى آخر أيام العباديين ، ووجه العساكر الى بلادهم ، فاحتوى عليهم ، ونزل باقيهم الى اشبيلية فصاروا من رجاله ".(١)

... ...

٣ - الاهتمام بالجانب الأدبي في الشخصيات التاريخية وايراد بعض من أدبهم:

ومن ذلك قوله عن عبد الرحمن بن الحكم أحد حكام الأمويين بالأندلس والمتوفى عام ٢٣٣ هـ ، " وكان ذا حظ في البلاغة ،

---

(١) السابق ، ص ٢٣٩.

تورد عليه بعض مواليه بشأن استخدامه بلطائف الرغبة وترقيق الملاطفة ، فقال له : لم يتقدم لك عندنا خبرة نوليك بها ، ولا تجربة نقدمك بسببها ، غير مارأيناه من بلاغتك ، وحسن خطابك فيما يرد علينا من كتبك ، فان كنت كاتبها ، فقد جودت وأحسنت ، وان كنت تطلبت بعنايتك ، وتخيرت بفضل همتك من حسن ذلك عنك ، فقد أحسنت في العناية ، وفضلت في الهمة ، فأنت بكلتى الحالتين متقدم ، وقد رجونا باستلطافك لعلمك ، وتهذيبك لخدمتك ، وقد وليناك على الرجاء فيك ، فصدق ماخيله الظن بك ، فانك ان حافظت على أدنى حظك أدركت أقصاه ، وان أحسنت في بدئه ، نلت أحسن عقباه".[1]

ومن ذلك أيضا ماقاله بشأن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن المتوفى عام ٣٠٠ هـ ، حفيد عبد الرحمن السالف الذكر ، حيث يقول ابن الخطيب : " وكان الأمير عبد الله ذا حظ من الشعر وحسن التوقيع : اعتذر اليه بعض مماليكه يوما ، فوقع على عذره : (وان مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبئ عن باطل تنصلك ، ولو بؤت بذنبك ، واستعذت لجرمك لكان أحجى لك وأسدل لستر العفو عليك أ.) ، فكتب اليه : انما أنا بشر ، ومايقوم بي عذر ، فقال : مهلا عليك ورويدا بك ، تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وماللذنب مجال بينهما ، وقد وسعك الغفران".[2]

---

(١) السابق ، ص ١٩.
(٢) السابق ، ص ٢٦.

ويقول عن سليمان بن الحكم بن سليمان: "كان أديبا شاعرا مدركا متأنيا ، ... ، ... ، وشعره متداول مشهور".(١)

ويقول عن عبد الله بن بلقين: "كان عبد الله بن بلقين جبانا ، مفتمد السيف ، متكاسلا عن الخيل ، زاهدا في النساء ، موصوفا بالضعف ، لكنه يكتب الشعر ، ويتحدث فيما تتحدث فيه الطلبة ، وقفت على ديوان بخطه ألفه بعد خلعه بمدينة أغمات".(٢)

... ...

٤ - لزوم النثر الفني :

ومن الطابع الأدبي في هذا القسم من الكتاب ، لجوء ابن الخطيب أحيانا الى النثر الفني لتصوير شعوره ، أو لتقرير المعاني السامية الرفيعة ، واظهارها ، مما يتطلب سمو العبارة أو للتعبير عن المواقف العاطفية أو المواقف التي تفيد العظة والاعتبار عموما .

ومن ذلك قوله في نهاية الحديث عن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى ، بعد أن أشار الى مانغص به القدر عليه من قتل ولديه: "ولا أوحش الله من دنيا تطيب بعد قتل

---

(١) السابق ، ص ١٢١ .
(٢) السابق ، ص ٢٣٥ .

ولـد ، ولـو أن صحبتها بـلا أمـد ".(١)

ومن ذلك قوله في وصف نكبة المعتمد بن عباد : " فغرب مكبولا ، مدال العز ، مسلوب الملك ، بعد أن جرت عليه أهوال ، واستقر بأغمات ، واقتات من غزل بناته ، وجرت عليه خطوب شهيرة ، يهون سماعها مصائب الزمان ، وحوادث الحدثان ، وبأغمات ماتت حظيته قبله ، وله في التفجع عليها ، ورثاء نفسه وانذاره بسرعة لحاقه بها ، وذكر معهده وأيامه ، وتقلب الأحوال به ، أقوال مفتتة للقلوب ، مفجرة للغروب ، مسلّية عن متاع الدنيا المسلوب ".(٢)

ومن النثر الفني المناسب للشرح العاطفي ، قول ابن الخطيب في معرض الحديث عن نكبة الشاعر ابن عمار على يد المعتمد بن عباد : " وصدرت عن ابن عمار من الأشعار في غرض استقالته واستعطافه كلمات شهيرة ، تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتعفي على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب ".(٣)

وقد يلجأ في مواضع الاعتبار والاتعاظ والتبصر الى السجع ، كقوله عن ضعف دولة آل عبد المؤمن في آخر عهدها : " ثم انهم

---

(١) السابق ، ص ٢٨ .
(٢) السابق ، ص ١٦٤ .
(٣) السابق ، ص ١٦١ .

ضعفوا واختلفوا ، ولو شاء الله ما اختلفوا فثارت الثوار ، وكثرت الغوار (١) ، واشتعلت للفتن النار". (٢)

ومن ذلك قوله عند الحديث عن نهاية بني مردنيش في شرق الأندلس: " ولم يطل الزمان بالشرق أن انهار ، وأجاب الكفار ، فكان آخر العهد ببني مردنيش ، فهم بين قتيل وشهيد ، ومنتقل من تونس الى ايالة التوحيد.". (٣)

ومن اللجوء للنثر الفني المسجوع في المواقف المشحونة بالعاطفة ، قوله بعد الحديث عن سقوط بعض المدن الأندلسية الكبيرة في يد العدو: " وكم تبع هذه الأمهات من بنات ، وهتكت من حرمات ، وترك الاسلام من عيون وجنات ". (٤)

ومن المواضع العاطفية التي يلجأ فيها ابن الخطيب الى النثر الفني ، قوله بعد أن ذكر قصة مبايعة أهل الأندلس لسلطان صغير السن هو السلطان محمد بن اسماعيل بن فرج المتوفى عام ٧٣٣ هـ ، وعدد من كان فيهم من شيوخ الكتاب المبرزين : " ما منهم مقهور على البيعة بغلبة قبيل ، ولا مجبر على اقتحام سبيل ، ولا مدعي ضرورة ، ولا مستحفظ تقية مشهورة ، ولا مهاجر بدينه عن بقعة مهجورة ، وعم الولد البايع حاضر ، والى سحنة

---

(١) الغوار: يقصد بهم المغيرين ، ويبدو أن استخدام الكلمة غير صحيح .
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٧٠ .
(٣) السابق ، ص ٢٧٤ .
(٤) السابق ، ص ٢٩٣ .

عينه ناظر ، والقرابة صامتون ، . . . ، وكافل الولد جريح مخبول ، وعلج مجهول ، وموشق مهبول ، والربع مأهول ،والقول مقبول ، وسن الولد غير مجهول ، وماثمّ الا تزاحم على الشهادة ، وتهالك في ابتغاء الحسبة أو في الهوادة ، وتمسك بالعادة ، وتسليم فيما ظهر لولي الأمر من الارادة ، فمتى نبس أهل الأندلس بانكار بيعة صبي صغير ، أو نيابة حاجب أو وزير ، فقد عمّوا وصمّوا ، وحصروا بربع الانصاف فأعرضوا وما ألموا ، وبما سنوه لغيرهم ذمّوا ، ولم يكف مبايعة الصبي غير البالغ ، ولا القرشي المرفوع في الذراع ، المستعد به للنزال في سبيل الله والقراع ، وتقديمه لم يستوف للحلم زمانا ، ولم يعرف بعد ختانا ، حتى قتل ظلما وعدوانا ، وأشهد فيه بالكفر زورا وبهتانا . . الخ".(١)

ولا شك أن ابن الخطيب يهدف من وراء الاشارة لهذه الحادثة الى اثارة مشاعر السخط والمقت على أولي الأمر بالأندلس لاستنكارهم مبايعة سلطان المغرب صبيا ، وهم قد بايعوا من دونه سلطانا عليهم ، ثم شهدوا عليه بالكفر زورا وبهتانا ، وسكتوا عن قتله عدوانا وظلما .

ومن اللجوء للنثر الفني الذى يهدف من ورائه الى تقرير المعاني السامية ، قوله بعد أن تحدث ــ بصراحة لا مثيل لها ــ

---

(١) السابق ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

عن حاله في أخريات حياته : " هذا تقرير حالي ، في انتقالي وارتحالي ، الذى علقت به اليمين ، والدعاء والتأمين ، فمن عذر فالله مثيبه ، ومن حمل بعدها فالله حسيبه ، فقد علم الصدق من يعلم السر وأخفى ، ويقرب زلفى ، ويجزى الجزاء الأوفى ، فالدنيا أحلام ، والعمر منام ، وان جرت الأقدار ، وراب الايراد والاصدار ، وتعاور الخسف والابدار ، فالدار الآخرة هي الدار ، وكأني بسرح الحياة قد اجتوي [1] ، وبساط الوجود قد طوي ، وعند الله القسطاس الذى لا يجوز ، والحكم العدل الذى يرضى به البر والفجور ". [2]

ومن النثر الفني في مجال التصوير والوصف الجمالي والوجداني ، واظهار الأسف والحسرة ، قوله بعد الحديث عن أيام سليمان بن الحكم بن سليمان المتوفى عام ٤٠٧ هـ : " وكان ملكه الذى عفا على محاسن العباد والبلاد ، بوطن الجهاد ، وذهب منه بالطارف والتلاد ، واذ قرطبة حضرة الدنيا ، وأم القواعد من غير ثنيا ، حر النار ، وبرد الشفار ، وترك حديثها محلا للاعتبار ، ثلاث سنين وعشرة أشهر ، ألوت بمحاسن المصر الأنيق ، وذهب برونقه الشهير ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي الكبير ". [3]

---

(١) اجتوى : بغض راجع أساس البلاغة ص ٧٠ .
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣٢١ .
(٣) السابق ، ص ١٢٥ .

ومن النثر الفني في وصف بعض رجالات التاريخ المشاد بهم قوله في معرض الحديث عن أبي عبد الرحمن بن طاهر: " وكان صدر زمانه ، والمثل السائر في بلاغته وبيانه ، فأجرى أمور بلده ، وذهب فيها من العز الى أمده ، مستغنيا بوافر نسبه ، وسائرا من الحزم فيها على مذهبه ، الى أن أفسدت بها حاله مع جيرانه فحسدوه ، ومورد الردى أوردوه ".(١)

ومن النثر الفني أيضا قوله أثناء حديثه عن أحوال ملوك الطوائف: " وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب ، والافتراق ، الى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعبّاد الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة ارث ، ولا في الأمارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، واقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار" الى أن يقول: " وهم مابين مجبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، مامنهم من يرضى أن يسمى ثائرا ، ولا لحزب الحق مغايرا ،وقصارى أحدهم أن يقول: (أقيم على مابيدى حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه) ، ولو جاء عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيرا لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعمارا ، وخلفوا آثارا ، وان كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ، ومرتضى

---

(١) السابق ، ص ٢٠١.

وموفق ، ومستكف ، ومستظهر ، ومستعين ، ومنصور وناصر ومتوكل".[(١)]

والحق أن كلام ابن الخطيب هذا عن حال ملوك الطوائف كلام قيم ، فيه تصوير صادق وتحليل بارع ، ووصف دقيق ، وسخرية مرّة ، وتهكم بالغ بملوك الطوائف ، وتبصير بحالهم وتنبيه على الاعتبار بهم ، وتحذير من سلوك طريقهم ، واتباعهم.

ومن التزامه للنثر الفني قوله عن مبايعة هشام المؤيد :
" ولما توفي الحكم المستنصر بالله بويع ولي عهده هشام الملقب بالمؤيد بالله ، والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ، ثم زهرة بسّامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ، وكان بكرسي العامرية مجلاها ، ثم تلاها ماتلاها ، وأرخص الحطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله أن لا يصيبه عائنه الذى يعانيه ، والمباني قد بلغت السماء سموا ، وزاحمت الكواكب علوا ، والبلاد قد بلغ فيها الى قاصي الاهتمام ، وفرغت نباتها من لبنات التمام"
الى أن يقول : " ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول ، وبني الأعمام الفحول ، أسود الهياج وغيوث المحول ،[(٢)] وهشام يومئذ صبي صغير يناهز عشر سنين ، ... ، ... ، والكل على علم ، من أنه لم يبلغ الحلم".[(٣)]

---

(١) السابق ، ص ١٤٤.
(٢) غيوث جمع غيث ، والمحول والمحْل القحط .
(٣) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٤٣ ، ٤٤.

ويلاحظ فيما نقلناه من هذا النص الاطالة والتفصيل والبسط ، كما يلاحظ أيضا التزام ابن الخطيب للسجع ، والنثر الفني لعناية خاصة بهشام المؤيد ، لأنه ساقه مثلا باهرا في الأندلس ، وسابقة شاهدة على صحة بيعة الصبي ، ونيابة الوزير في القيام بأمور الدولة ، تأييدا لصحة نيابة الوزير ابن غازى ، وبيعة الصبي أبي زيان محمد السعيد .

ومن نماذج المهارة الأدبية في بلوغ المعنى والوفاء بالغرض في تعبير فني رائع ، قوله في معرض الحديث عن المنصور ابن أبي عامر: " وان أطلقنا في أخبار ابن أبي عامر القول لم نقف عند غاية ، فقد أجمع المشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعدا لا نحس يخالطه ، وأعطي اقبالا لا ادبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت الى غيره ، ..... ، ..... ، ... ، وكان الناس يعجبون من نجح رأيه كلما ارتكب في الشورى مخالفة ، أو سلك مضاضة ، وكان مهيبا ، وقورا ، فاذا خلا ، كان أحسن الناس مجلسا ، وأبرهم بمن يحضر منادما ومؤنسا ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة والامتنان ، لا يغفر هازلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحدا من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك الى قتل ولده عبد الله صبرا بالسيف بما هو معروف ". (١)

ويقول مواصلا الحديث عن المنصور ، وواصفا له بكلام يعد من نماذج البراعة في الوصف والتصوير: " وكانت الجزالة والرجولة

---

(١) السابق ، ص ٧٤ .

شوبه الذى لم يخلعه الى أن وصل الى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، ولا يفضل لذة على لذة التدبير ، وحلاوة نهيه وأمره ".(١)

... ...

٥ - استخدام الصور البيانية:

ومما يطبع هذا القسم من الكتاب بالطابع الأدبي أيضا ، استخدام ابن الخطيب للصور البيانية أثناء بعض تعابيره.

من ذلك تصويره لعاقبة التائرين بقرطبة حيث يقول: " وسر أهل قرطبة بولاية المهدى سرورا عظيما ، وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرحبات والأرباض ، غافلين عما خبأ القدر لهم في ذلك من المكروه الذى أباد خضراءهم ، وفرّق جموعهم ، وأجاع بطونهم ، وسلب أموالهم ، وهدم دورهم ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ، سنة الله في الرعايا اذا بطرت ، وملت العافية ، ودانت بحب الادالة والقلق بالملوك ، والشره الى الثورات ".(٢)

ويقول مصورا ماكان بين المعتمد بن عباد وابن هود في معرض الحديث عن الأخير: " وكان بينه وبين المعتمد بن عباد ،

---

(١) السابق ، ص ٧٥.
(٢) السابق ، ص ١١٢.

مايكون بين الفحول في الهجمات ، والليوث في الأجمات".(١)

ومن الصور البيانية قوله أثناء حديثه عن بعض المعارك التي دارت بين ابن عباد وبعض خصومه : " وقُتل قائدُ باديس الذى كان معهم ، وركب السيف أعناق من معه".(٢)

ويقول في معرض الحديث عن تصيير أمر الأندلس الى ملوك لمتونه (المرابطين) : "... ، ... ، الى أن شاع في المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء ، واستيلاؤهم على المغرب ، وأنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس بفقه ، وأنه اسلام جديد ، فحدقت الى سمته العيون ، وصرفت اليه الوجوه ، ثم ارتفع اليه الصراخ ، ثم أعملت الاشارات ، ثم مدت الأيدى ... الخ".(٣)

ويلاحظ في العبارات السابقة قوة التعبير ودلالته ، والتدرج في تتابع الصور.

ومن التصوير الأدبي الرائع قوله عن ملوك الطوائف في معرض الحديث عن ملك قشتالة أدفونش بن فرذلند : " وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ، مالم يجعله بين الضرائر المترفات ، والعشائر المتغايرات ، فلم تتصل لهم في الله يد ، ولا نشأ على التعاضد عزم ،

---

(١) السابق ، ص ١٧٢.
(٢) السابق ، ص ٢٤٠.
(٣) السابق ، ص ٢٤٣.

ولا توجه الى الاستكثار قصد ، انما كان وكدهم في التماس المحل من وده[١]، وابراز الفضل من خطوته ، والتنفق عنده ، والترافع اليه ، والاستظهار به ، وقد قعد للتضريب بينهم والمفاسدة ، وأطل بذروة التغلب والتحكم ، مفتوح اليد ، مقبول الزايدة ، واجتلاب الفائدة ، الى أن استولى على طليطلة."[٢]

ومن الصور البيانية أيضا قوله عن أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب بمرسية : " ولم يقم بالأمر حتى قعد ، وكانت عليه للنصارى وقيعة لم يحكم فيها المصاف ، ولا عرف القتال فهلك فيها جملة من المسلمين." [٣]

ومن ذلك قوله عن أبي عمر حكم بن سعيد بن حكم الأموى بمنورقة: " وله أولاد كالنجوم جمالا ووسامة ".[٤]

ومنها أيضا قوله عن السلطان نصر بن محمد المتوفى عام ٧٢٢ هـ لما تأزمت الأمور بينه وبين السلطان أبي الوليد اسماعيل: " فكشف عن وجه المنابذة ، وأبدى ناجذ الشر ، وتحرك السلطان أبو الوليد فنازله".[٥]

ومن التصوير الأدبي الرائع وصفه لمصرع السلطان محمد بن

---

(١) الضمير هنا يعود على ملك قشتاله.
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٤٤.
(٣) السابق ، ص ٢٧٥.
(٤) السابق ، ص ٢٧٧.
(٥) السابق ، ص ٢٩٤.

اسماعيل بن فرج المتوفى عام ٧٢٣ هـ على يد بني أبي العلى ادريس بن عبد الله ، حيث يقول : " .. تعرضوا له أثناء طريقه قافلا الى مالقة في بعض أساطيله ، وقد وصل الى الوادى المنسوب الى السقاثين برسم ركوبه ، فأوقعوا به بضفة وادى السقائين ، .... ، .... ، وبقي — رحمة الله عليه ورضوانه — خلل ما فرغ من بيعة أخيه ، مطروحا معرى من ثيابه مسلوبا الا من فضل الله وثوابه ، ثم عطفوا عليه ، فاحتملوه ، ودفنوه بمالقه ، وما صلّوا عليه ولا غسلوه ، .... ، .... ، .... ، ولما فرغوا من قتله ، واحكام غدره وختله بدت لهم سيئات ماعملوا ، وعلموا من قبيح صنيعهم ماجهلوا ، وعن العواقب ذهلوا ، لما أمهلوا ، واجتمعوا بعد أيام من دفن أشلائه ، وحط علائه ، وكفران نعمه وآلائه فحشدوا[1] صفات دينه بالظفر ، وكتبوا فيه عقدا بالكفر ، شهد فيه جملة من أعلامهم ونفثت سم المداد في رقه أساود أقلامهم ، .... ، أعظم الله أجره ، كما أعظم نحره ، وضاعف ثوابه ، كما طهر من زورهم أثوابه ، فلقد عبر البحر لغير غرض ، الا ماكان من اقامة جهاد مفترض ، ولقد ارتكب في خلاص الجبل بنفسه النفيسة الخطر ، حتى قضى منه الوطر .. الخ ".[2]

ويلاحظ في هذا الوصف ، الدقة والبسط والتفصيل ، وتوارد

---

(١) ربما الصحيح فخدشوا .
(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٩٨ .

المعاني وتضافرها للوفاء بالفرض ، من خلال استخدام بعض الصور البيانية ، في قالب مسجوع في أكثره.

ومن الصور الرائعة أيضا قوله أثناء الحديث عن اسماعيل بن يوسف المقتول عام ٧٦١ هـ : " وشدت الأم يدها من زوج ابنتها على السراب الفرار ، والزئبق الفرّار ..." (١)

ومن ذلك قوله عن شفاعة سلطان المغرب له عند نكبته بخلع سلطانه عام ٧٦٠ هـ ، " ففكت عني بنان النكبة ، وفتحت بالفرج أقفال الشدة ". (٢)

وقوله عن الحديث عن سكناه مدينة سلا المغربية : " حيث طنبت الحرمة رواقها ، وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها ، تجرى علي بها النعم ، ويظللني المجد والكرم ". (٣)

وكقوله أثناء الحديث عن عودته الى سلطانه محمد الخامس بعد استرجاع عرشه : " وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت ، القاطع بالفوت ". (٤)

وقوله عند الحديث عن وفاة السلطان أبي فارس الذى لجأ اليه في آخر أيامه : " ثم دك الجبل العاصم من الطوفان ،

---

(١) السابق ، ص ٣٠٧.
(٢) السابق ، ص ٣١١.
(٣) السابق ، ص ٣١٣.
(٤) السابق ، ص ٣١٤.

والمسك للأرض عند الرجفان ، فكان موت المولى المرحوم أبي فارس الذى أوينا اليه وعولنا عليه ، ووثقنا بوعده ، وتمسكنا بعهده ، فانخرق الحجاب ، واستأسدت الذئاب ، واستنسرت البغاث والذباب ، وظن أنها الداهية التي لا ترفع ، وأن الوطن بعده انما هو السراب البلقع ، وأن ولد السلطان لا تنعقد له بيعة ، .... ، .... ، ... ، ولم يعلموا ماخبأ الله لفيئة الاسلام من عماد خلف الذاهب ، ومنار أبان بعد أفول البدر المذاهب ، وأن الله سبحانه سد مسده بالوزير الذى خلف العماد ، وصان الحريم والأولاد ، وحفظ البلاد والعباد ، وأقام الحج والجهاد ، المعروف الحق ، والمشهور الجد ، المتميز في حلبة الأمر العلوى بالسبق ، والحسام الذى فتح جبال المغرب وصحارى الشرق".(١)

... ...

من خصائص التأليف في هذا القسم من الكتاب:

١) لعل من أهم خصائص التأليف عند ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب بعد طبعه بالطابع الأدبي هو حياده وموضوعيته ، وهو ما امتاز به هذا الكتاب في جانب التاريخ لأسبانيا عن سائر كتبه ، ذلك لأن ابن الخطيب كان يجامل كثيرا سلاطينه عند ما كان يؤلف كتبا وهو بين ظهرانيهم ، ويحاول

---

(١) السابق ، ص ٣٢٠.

أن يخفي بعض الحقائق التي هي في الواقع من مخازى سلاطين بني نصر ، ولكنه لما انتقل الى المغرب ، وألف هذا الكتاب حاول أن يصحح ويظهر بعض المعلومات التاريخية التي أخفاها في مؤلفاته السابقة ، ولعل هذا واحد من الدوافع الحقيقية التي دفعت ابن الخطيب الى تأليف هذا الكتاب ، كما أشرت سلفا .

والحق أن ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب لا يظهر غلوا في مشايعة ولا معاداة لبني نصر ، ولكنه يلتزم الحياد ، ويقرر الحقائق بموضوعية تامه .

ومن تلك الحقائق التي يقررها ، والتي تعد من مخازى بني نصر ، استعانتهم بالنصارى على المسلمين ، كقوله عن أول سلاطينهم ، وهو السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف المتوفى عام ٦٧١ هـ : " وشرع السلطان أبو عبد الله في استدعاء النصارى لسد بحر الزقاق ونزول الخضراء ".[1]

وكقوله عنه أيضا : " ولما استقر هؤلاء الرؤساء بالمغرب ، حذرهم[2] السلطان ابن نصر على ملكه ، ... ، فاستدعى حينئذٍ الطاغية الى سد فرضة المجاز بطريف ، ... ، ... ، وتملكها العدو ".[3]

---

(١) السابق ، ص ٢٨٩ .
(٢) حَذِرهم : خافهم .
(٣) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٩١ .

وقوله عن نصر بن محمد المكنى بأبي الجيوش ، والمتوفى عام ٧٢٢ هـ ، أثناء الحديث عن معاركه مع أبي الوليد اسماعيل المتوفى عام ٧٢٥ هـ ، " واستدعى نصر جيش النصارى".[١]

ويبيّن الحقيقة في أمر الفتوحات التي تمت لسلطانه الغني بالله والتي أشاد بها في الاحاطة فيقول :" وكان قد أعمل الحركة من مدينة رندة الى أحواز مالقة ، فيسر الله له أمرها ، اذ كان قد استظهر بالطاغية ، وحصل بسببه على جملة من حصون المسلمين ، خاس[٢] الطاغية فيها بعهده ، وأمسكها لنفسه".[٣]

ويلاحظ أن ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب لم يعد يذكر سلطانه بالتعظيم ، ولا المتغلب عليه بالتحقير ،[٤] كما كان الحال في الاحاطة ، بل يشير الى سلطانه في بعض المواضع بقوله " ولما صار الأمر الى هذا الرجل"[٥] يعني الغني بالله فيجرده من كل الألقاب التي كان يصفه بها من قبل .

ولا يكتفي بذلك ، بل يلمز سلطانه ويعرض به ، ويلوح بعيبه لتذلله لعدو الدين والاستعانة به ، فيقول في معرض الحديث عنه ، وعن رجوعه لملكه : " وراضاني أخيرا على التماس

---

(١) السابق ، ص ٢٩٤ .
(٢) ربما الصحيح (خان) .
(٣) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٣١٠ .
(٤) راجع السابق ، ص ٣٠٩ .
(٥) السابق ، ص ٣١٠ .

عهدى ، ... ، ... ، ... ، بعد أهوال تشيب لها الذوائب ، وتذلل لعدو الدين تهون عنده المصائب ، وقاني الله مواقعها". [١]

٢) اشادة ابن الخطيب بالحاجب المنصور ابن أبي عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ ، واطالة القول فيه ، والتفصيل لحياته ،وحسن التنويه به حيث يقول أثناء الحديث عن هشام: " يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولدا ، وأشهرهم بأسا وندى ، وأبعدهم في حسن الذكر مدا ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف معود الاقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات ، واطّرد له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتي المحيا والممات ، وكان هو وبنوه سترا على هشام ورعيته". [٢]

ولعل هذا الاهتمام بالمنصور من قبل ابن الخطيب يرجع الى سببين :

الأول : اعجاب ابن الخطيب بالبطولة ، والاشادة بالأبطال ، والتنويه بهم ، وحشد ماقيل فيهم من جميل القول .

---

(١) السابق ، ص ٣١٤ .
(٢) السابق ، ص ٥٨ .

الثاني : لأنه جعل المنصور مثلا لابن غازى ، وقد أشار هو بهذا

حيث يقول بعد أن أطال الحديث عن المنصور: " ولم نطل القول فيما اختص بدولة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، وكفالة المنصور ابن أبي عامر اياه ، الا لكونه أشبه الأحوال بما نحن فيه من جهة اتفاق الخواص على مبايعة صبى لم يبلغ الحلم".(١)

ويقول بعد أن ساق نبذة من تاريخ قرطبة في عهد المنصور: " هذه نبذة من أحوال تلك المدينة التي كان أهلها تحت بيعة صبي لم يبلغ الحلم بعمره ، ولا باشر شيئا من أمره ، ونظر نائب عنه يحمي حماه ، ويدافع عداه ، ويصون حرمته ، ويهنئه فضل الله قِبَله ونعمته ، ويخلد آثاره ، ويوفي اجلاله وايثاره ، ويعطي وظائف الدين حقها ، ويوضح من شعائر الشرائع طرقها ، وقد تقرر ما انتهى اليه أمرها من بعده ، وكيف ذهبت سعادتها بذهاب سعده ، وأنجز لها الدهر كالئ وعده ، فحالت أحوالها ، وتغير جمالها ، وشقت عن العورات أسمالها ، وصارت معتبرا لذوى الاعتبار ، ومندبا لناظمي الأشعار".(٢)

ومن هنا وجد في سيرة المنصور وهشام مثلا للخليفة الطفل أبي زيان السعيد ، وأبي بكر بن غازى الوزير القائم بالأمر ،

---

(١) السابق ، ص ٨٣.
(٢) السابق ، ص ١٠٤.

وكان امتداح ابن الخطيب للمنصور ، والاشادة به امتداحا لابن غازى ، وتنويها بأهليته ، وكفايته للقيام بالأمر ، ورعاية الصالح وتأكيدا لصحة بيعة الصبي .

ولم يكتف ابن الخطيب بالثناء غير المباشر على ابن غازى ، بل أشاد به وأثنى عليه في مواضع عدة من الكتاب ، من ذلك قوله عنه : " الوزير الذى خلف العماد ، وصان الحريم والأولاد ، وحفظ البلاد والعباد ، وأقام الحج والجهاد ، المعروف الحق ، المشهور الجد ، المتميز في حلبة الأمر العلوى بالسبق ، والحسام الذى فتح جبال المغرب ، وصحارى الشرق ".(١)

٣) يحاول ابن الخطيب مجاملة المغاربة الذين صار في كنفهم ، فيمتدح من اتصل به أو أعانه من ملوكهم خلال نكبته الأولى ، فيقول عن السلطان أبي سالم : " وجرت بين صاحب الدولة وبين المتصير اليه ملك المغرب يومئذ السلطان المقدس أبي سالم رحمة الله عليه ورضوانه ، المفاوضة في استجلاب المستقر بوادى آش الى المغرب ، بقصد ابتغاء الهدنة ورفع الفتنة ، فلما تم ذلك ، جعل الحديث في أسرى عمدة ، والاشارة بخلاصي ، وبعث الله لي من حيث لا احتسبه في الكون جدا وحمية ، فتم بعد لجاج ، واشارة عجاج ،

---

(١) السابق ، ص ٣٢٠ .

واستخلصني الله".[١]

ومن المجاملة للمغاربة ، والاحتراس من الاساءة لهم قوله بعد الحديث عن مشاهير العامريين " ونحن نذكر بعدهم من أمكن من مشاهير الرؤوساء من الطائفة المغربية المسماة عند مؤرخي الأندلس بالطائفة البربرية ".[٢]

٤) الولوع بذكر الحكايات النادرة والغريبة وحكايات التنبوء ، من ذلك قوله عن مدينة الزاهرة : " وذكروا أن المنصور ابن أبي عامر بانيها كان يرى في منامه كأن الله اطلع عليهما وتجلى لها ، فسأل عن ذلك ابن الهمذاني ، فأخبره بخرابها ، وتلا قوله تعالى : (فلما تجلى ربك للجبل جعله دكا)[٣] ، فكان المنصور متى تذكر هذه الرؤيا تنغص عيشه".[٤]

٥) اشتمال الكتاب على جانب ذاتي يتمثل فيما يلي :

أ ـ تضمين الكتاب بعضا من أدب ابن الخطيب ، شعره ونثره ، فمن الشعر أورد أبياتا رثى بها المعتمد بن عباد ، حينما وقف على قبره بأغمات عام ٧٦١ هـ ، يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ∴ رأيت ذلك من أولى المهمات

---

(١) السابق ، ص ٢١١ .
(٢) السابق ، ص ٢٢٦ .
(٣) سورة الأعراف ، آية (١٤٣) .
(٤) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ١١١ .

لم لا أزورك ياأندى الملوك يدا ∴ وياضياء الليالي المدلهمات
وأنت ممن لو تخطى الدهر مصرعه ∴ الى حياتي لجادت فيه أبياتي
أناف قبرك في هضب يميزه ∴ فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علىً ∴ فأنت سلطان أحياء وأموات
مارئ مثلك في ماضٍ ،ومعتقدى ∴ أن لا يرى الدهر في حال ولا آت[1]

وأورد كذلك أبياتا في بداية هذا القسم من الكتاب يستشهد بها على أن رضى الناس غاية بعيدة المنال ، ويقدم لقصيدته تلك بقوله : " شرحت فيها حالي فيما بليت به بالأندلس من مكايدة الصم البكم الذين لا يعقلون " ، ويقول في قصيدته :

ان تورعت أصبحت حوز الملك ضياعا للجرأة الفجار
أو طردت العفاة خفت من الله اذا ماسئلت عن أوزارى
أو تقاعدت أصبح الأمر فوضى ∴ تلعب الشاة فيه بالجزار
أو تعرضت وانتدبت سمعت النقد في حال الايراد والاصدار
لا يزال الملام عني بحال ∴ حالة الشيخ وابنه والحمار[2]

الى آخر القصيدة .

ومن النثر أورد جزءا من بعض رسائله الأدبية التي تحدث فيها

---

(١) السابق ، ص ١٦٥ .
(٢) السابق ، ص ١٣ .

عن الفتوحات ، وذلك في معرض الحديث عن قرطبة ، حيث يقول فيما أورد : " قرطبة وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحامية الطامية ، والأطواد الراسخة الراسية ، والمباني الباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية . ."(١) الى آخر ذلك.

ب ـ ومن الجانب الذاتي أيضا ايراد المواقف التي تخصه ، اذا ماتحدث عن موقف تاريخي شابه ، ومن ذلك قوله بعد حديثه عن ثورة الربض الشهيرة : " قلت: ولقد باشرت بالأندلس أخا ونظيرا لهذا الموقف الحكي النكد ، أعظم الله به الأجر ، وجعله آخر المواقف الكريهة في الدنيا الا أن الناس اجتمعوا على هذا العهد الذى شهدناه ، والتفوا على رجل من قرابة السلطان ، ولم يكونو همـلا ، فكان الشقاء بهم أشد لولا لطف الله ، وذلك أن السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر ، لما عاد الى الأندلس شره خدامه الى طلب الناس بالذنوب ، وكلهم جان بيده ولسانه ، واتفقت الكلمة الواحدة على الثورة به ، ولحقت ببابه ، والأمر قد كمل استعداده للشر"(٢) ثم يتحدث بحديث مفصل عن هذه الثورة ، منوها بجهوده في العمل على اخمادها ، في مثل قوله : " فلم يستحكم الزوال الا وظهر

---

(١) السابق ، ص ١٤٦ .
(٢) السابق ، ص ١٦ .

اختلاف صاف القوم ، ورسائلي تنفذ الى وجوه الناس"[١]، وقوله " فبادرت من الغد يوم الجمعة المسجد الجامع ، وعلوت ذروة المنبر بكتاب اشهدت فيه على السلطان بترك قديم المؤخذات وحديثها ، ورفع الخوف عن الناس ".[٢]

ومن ايراد المواقف الخاصة أيضا ايراده لحكاية تتضمن الثناء على نفسه،واثبات ولائه لسلاطين المغرب من القدم ، يقول في معرض حديثه عن ملوك النصارى : " أن اليهودى الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى ، حفيد هذا الغنش المذكور ، وصل الينا في حوائجه ، ودخل الى" بدار سكناى مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة ، وعندى القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، وبيده كتاب من سلطان المغرب ، محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن ، وكان محمد هذا قد فر الى صاحب قشتالة ، واستدعي من قبل الملك فسهل له ذلك ، وشرط عليه ماشاء ، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في اطرائه ، فقال لي : (مولاى السلطان دون بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هذا الشخص وكان بالأمس كلبا من كلاب بابه حتى ترى خسارة الكرامة فيه !) فأخذت الكتاب من يده ، وقرأته ، وقلت له : أبلغه عني أن هذا الكلام ماجرك اليه الا خلو بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب والأسود ، وبمن تغسل الأيدى منهم اذا قبلوها ، فتعلم

---

(١) السابق ، ص١٧ .
(٢) السابق والصفحة ، ولعله يشير الى الظهير الذى قرأه على الناس ، راجع فصل الخطابة.

من الكلب الذى تغسل اليد منه ومن لا ، وان جدّ هذا الولد هو الذى قبّل جدك يده ، واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ، ونسبة الجد الى الجد ، كنسبة الحفيد الى الحفيد ! وكونه لجأ الى بلادك ليس بعار عليه ، وانك معرض للجأ اليه ، فيكافيك بأضعاف ماعاملته به) ، فقام أبو الحسن المستقضي يبكي ، ويقبل يدى ، ويصفني بولي الله ، وكذلك من حضرني ، وتوجه الى المغرب رسولا ، فقص على بني مرين خبر ماشاهده مني وسمعه ، وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثيرا ، جعل الله ذلك خالصا لوجهه".(١)

جـ - ومن الجانب الذاتي المباشر في هذا القسم من الكتاب مايجده القارئ في آخره حيث الحديث عن الفترة التي وزر فيها ابن الخطيب ، يقول في قطعة رائعة من الأدب النفسي مصورا ظواهر الحسد والضغينة والحقد في النفوس المستترة وراء المداهنة والملق والمكر: " وصرت أنظر الى الوجوه، فألمح الشرّ في نظراتها ، واعتبر الكلمات فأتبين الحسائف في لغاتها ، والضغينة في كل يوم تستحكم ، والشر يتضاعف ، ونعمة الولد تطلق لسان الحسود ، ... ، والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنّون في الاطراء والمديح ،

---

(١) السابق ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤.

وتحسين القبيح ، والمحالات في الغي ، والتقرب بالسعي ، أنظر اليهم يتناقلون الاشارات بالعيون ، والغامزة بالجفون ، والمخاطبة باللفوز ، فاذا انصرفوا صرف الله قلوبهم ، فقلبوا الأمور ، ونقلوا العيوب ، وأفسدوا القلوب ".[١]

ويقول في قطعة تعد من أدب المكاشفة والافضاء بما في النفس ، وتمتاز بالطبع والصدق والوضوح ، والسلاسة والبساطة:
" وكنت وصلت من المغرب ، ولي ورد من الليل ، ووظيفة من الذكر ، وحظ من الخير ، ضايقني في ذلك كله فضول القول والعمل ، فهجرت السبحة ، وطلقت الورد ، وماطلت الفرض بوقته ، وعصرت الزمان بما لا يغني عني من الله من شئ ، فلا متعة بالمطعوم لاختلال الصحة ، ولا بالنساء لذهاب الشبيبة وضيق زمان الراحة ، ولا باللباس لتبدل الكبرة ، ولا في اكتساب المال لضعف الأمل ، ولم أك قط اتخذت الكسب بضاعة ، ولا صرفت اليه همة ، ولا عملت عليه ، ولا في الوطن فضل يوصل اليه ، وصرت أسهر الليل ، وأتوقع الشر ، وأقف للدنيا موقف المتوقف في تلقي السلاح يمنة ويسرة ،ولا حصول مع هذا كله الا على قوت مكدود ، ... ، ... ، وأنزل الله عز وجل عليّ جبال العجز والكسل ، وسقوط الأمل ، وتوقع الشر ، وفساد الفكر ، وجمع المطالب كلها ، والآمال بأسرها ، الغايات بأجملها ، في حصول راحة ، وتمني خلوة ، وقطع

---

(١) السابق ، ص ٣١٦ .

مابقي للعمر من برهة في دار أمن وخلو من شغب".[١]

٦) ومن مميزات هذا القسم من الكتاب ، اهتمام الكاتب فيه بالأدب السياسي ، فمن ذلك قوله أثناء الحديث عن حكام دولة بني أمية بالأندلس :" والثوار في دول بني أمية متعددون ، شقيت بهم الملوك ، وتنغصت بهم الخلفاء ، واضطروا الى مسالمتهم تارة ، ومحاربتهم أخرى ، وجعلوا رسم الوفاء لمن عاهدوه منهم سياسة لولاها لجلّ الخطب ، ولم يخلص الملك ، والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول : منعة البلاد ، وحصانة المعاقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم ، والثاني : علو الهمم ، وشموخ الأنف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، اذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الاذعان لبعض ، والثالث: الاستناد عند الضيقة والاضطرار ، الى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج في أمورهم يؤدى الى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيوش الى الانتكاب ، وأولياء الدولة الى القتل ، ولا يقوم السرور بغلبة الثائر بما يوازنه من ترحة هذه الأمور".[٢]

---

(١) السابق ، ص ٣١٦ ، ٣١٧.
(٢) السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦.

في هذه القطعة من الفكر السياسي المصوغ في قالب أدبي ، تتضح قدرة ابن الخطيب على سبر أغوار الأمور ، مما يدل على سعة الفكر ، ونفاذ النظر ، فهو بعد أن أوضح سبب كثرة الثوار في الأندلس على بني أمية ، أشار بتأييد الى الطريقة التي كانت تعالج بها الثورات من قبلهم ، موضحا السبب في اتخاذهم هذه الطريقة ، والتي تتمثل في تهدئة الأمور ، وعدم تصعيد المواقف لأن في ذلك فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيش الى الانتكاب ، وأولياء الدولة الى القتل ، ومن هنا تحمل بنو أمية المشاق ، وصاروا يسيغون الصبر للثوار في حسن التأني ، على حد تعبير ابن الخطيب.

ومن الأدب السياسي الذى يشهد بعمق فكر ابن الخطيب وعقلانيته ، ونفاذ نظره ، وصدق تجربته قوله معلقا بعد أن تحدث عن غرور عبد الرحمن بن المنصور ابن أبي عامر: " وهذه سبيل القرون[١] التي سلك عليها معظم أهل الدول ، الا القليل من الحزمة كالمنصور ، فان الحازم من لا يأمن الدهر ، فانه جمّ العجائب ، ولا يبطل طبيعة الممكن فان القريب في الدنيا بعيد ، والبعيد قريب ، والحازم من يزن كلا بميزانه ، ويعد له عدته ، ويعطيه حظا من فكره ، وكفلا من احتياطه ، فان اتسق حال السلامة ، لم يضر حازما حزمه ، ولا محتاطا احتياطه ،

---

(١) هكذا وردت ، وربما الصحيح (الغرور).

ولو لم يكن في ذلك صلاح الا أنه شجا للعدو ، وكمد للمكايد ، في أن يبصره بعيدا عن الغفلة ، فيتهيب رأيه ، ويترك مهايجته ، ويغتنم السلامة معه ، والنجاة منه".(١)

ومن القطع الرائعة في أدب السياسة ، قطعه يصور فيها هموم الوزير ، ومايتكلفه لصلاح الدولة ، ومايجره على نفسه نتيجةً لذلك من عداوات ، يقول فيها : " وفي كل آونة وساعة وأثناء كل تفرد وخلوة ، بعد أن كبر الولد ، واستراح من هم الحرص الخلد ، أخاطب نفسي ، فنقول لها : يامشؤومة ! أما تشعرين لما نزل بك ، حملت هذا الكل على ضعفك ،وأوسعت هذا الشغب في فكرك ، وعمرت بهذه الحظوظ حظ ربك ، وتعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته ، وتسخطي المعطي بما يرى أنك قد منعته من الزيادة في عطيته ، .... ، وتعادين الأهل والقرابة والولد بمنع الأيدى ، والعدل في الشهوات ، وسد أبواب الشفاعات ، وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم ، وتعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها ، ويضر بالدولة امضاؤها ، وتعادين ولد السلطان وحظيته ، فلكل منهم مطلب يختص به ، وطور مشلك بعيد عن التهجم فيه ، والافتيات على صاحب الدار ، وتعادين السلطان بعدله في الشهوات ، والقيام دونه دون كثير من الأغراض ، ومخالفة امرئٍ بحظيه بحسب الهوى من الخدام ،

---

(١) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

وتقريعه في باب افساد الأموال".[1]

٧) ويشتمل الكتاب في طياته على تعليقات وتعقيبات كثيرة لابن الخطيب في مواقف تاريخية متعددة ، فمن تعقيباته الدالة على فقه التاريخ ، والخبرة بأحوال الدول ، قوله بعد أن ذكر عددا من أسماء الذين خرجوا بالأندلس على عبدالله بن محمد الأموى المتوفى عام ٣٠٠ هـ ،: " وانما ألمعنا بذكر أسمائهم المتعددة ، وهم بعض من كل ، وقليل من كثير ، لغرضين: أحدهما التأسي والتعزي ، حتى لا ينكر ملك أن ينازع أو يخرج عليه ، أو تفتن ثغوره ، وتنكث عهوده، واذا تعين المستحق لأمر المسلمين ، أين يوجد مثل من خرج عليه هؤلاء نسبا ومذهبا ، وشروطا مستوفاة ، وقد ساعدهم رعاياهم وفقهاؤهم وعلماؤهم قسرا وطواعية ، وأقطارهم عظيمة ومعاصروهم جلّة ، حتى اقتضوا الأيام التي حدّها الله لهم في كتابه ، منطلقة أيديهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غي أو رشد . والثاني : الاستراحة الى حسن العقبى وماأعده الله من كفاية من استكفاه".[2]

وقد يعقب أحيانا لبيان العبرة فيما ساقه من أحداث وأخبار وأحوال بكلام قيّم يزيد في قيمة الكتاب العلمية

---

(١) السابق ، ص ٣١٥.
(٢) السابق ، ص ٢٧ ، ٢٨.

والأدبية لما يتضمن من نظرات سياسية أو اجتماعية كقوله بعد الحديث عن سلوك الطوائف: " قلت : وهذه جمهرة رؤساء الطوائف وثوار البلاد بالأندلس من بعد انقراض الدولة الأموية، وعلى حين استقرار الدولة المرابطية ، وتغلب سلطانها الأمير يوسف بن تاشفين ، خلا الجو من جميعهم ، وكان فيهم الفاضل والمعلوم والمجهول ، كما يكون فيمن كثر عدده ، واختلف في السير مقصده ، ولا شيء أشبه بالدول كلما ضعفت وتفرقت كلمتها واختلفت ، وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت ، بالأرض المتخذة بالعقاتي[1] والخضر ، والثوار فيها بمنزلة العشب الناجم ، والبقل الناجم ، الذى يعدم عند قوة الفلاح واضطلاعه وقيامه على الأرض ، واتصال مباشرته ، وازالة مايشوش المزدرع من العشب الغاصب ، ومن الحشيش الناصب ، فاذا اشتغل عنه لضعف ، أو مرض أو قلة ذات يد ، ألفي غالبا على الأرض ، مهلكا للفلح ، مبيدا للمال ، فلم تدع الدولة ذات القبيل ، والدين الأصيل منها شيئا مذكورا ، بعد أن شقيت الدنيا بهم دهورا ، ولقي الاسلام بهم وبالا وثبورا ، ولا حول ولا قوة الا بالله".[2]

ومن التعقيبات التي تدل على ادراك فلسفة التاريخ وفقهه ، وتبين الجانب الذاتي الذى أضافه ابن الخطيب ، وأدخله في

---

(١) لم أصل الى معنى هذه الكلمة ، ويبدو أنها اما كلمة مغربية أو فيها تصحيف.

(٢) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١.

العرض الموضوعي ، تعقيبه بعد أن تحدث عن بناء هشام الرضي للقنطرة العظمى بقرطبة ، وكيف أن الناس قالوا انه ما بناها الا لتصيده ونزهته ، فلما بلغه ذلك أقسم ألا يجوز عليها الا لغزو في سبيل الله أو مصلحة ، ويعلق ابن الخطيب على هذا بقوله: " قلت: هكذا شأن الناس مع أرباب الدول ان بنى القنطرة ولا زمها على كرسيه نفعه الله واختار ما نالها من طيبه ، قيل: بناها للهوه وصيده ، ولو كان ذلك فليت شعرى أى شئ كان يعوزهم من منفعتهم بها ، وهلا دعوا له أن يهنيه الله نزهته وصيده ، اذ كانا شافعين في بنائها لهم ، ولو لم يبنها لم يسلم من حملهم لأجل تركها ، فانا لله من الناس ! وما أشبه حال صاحب الدولة بحال الأبن والأب والحمار لا فارق: ذكروا أن رجلا خرج هو وابنه ، ولهما حمار يركبه الرجل ، وابنه خلفه ، فسمع الناس يقولون: ما أعظم جفاء هذا الشيخ ، وأقل حياء ركب هو وابنه حمارا ضعيفا ، فهلا نزل وخفف عنه ."[1] الى آخر القصة ، ثم يستطرد ابن الخطيب بعد ذلك ، ويورد أبياتا في نفس المعنى .

ومن تعليقاته أيضا تعليقه الذى يُشعر بالأسف والحسرة على ما صار اليه حال الأندلس بعد أن أورد قول بعض ملوك المشارقة ، وقد جرى ذكر بعض ملوك الأندلس: " وما الذى يقال في رجل يركب من نتاجه ، ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجه".[2]

---

(١) السابق ، ص ١٢٠
(٢) السابق ، ص ٥٠

فيعلق ابن الخطيب على هذا بقوله: " قلت ولو شاء لزاد : ويأكل من علاجه ، ويتقرب الى الله بجهاد أعلاجه الا أنها اليوم لم يبق بها الا علالة لا تروى من غلة ، ونغاضة مزاد لا يحسن بها قلة ، لم تحفظ ذماءها الا فتن شغلت العدو ، وشرعت الهدو ، لطف الله يمر بها مر النسيم ، بقدرته".(١)

وقد يجنح به مزاجه الأدبي الى الانبعاث والتأمل والغوص في أعماق النفس الانسانية لتفسير المواقف والأحوال العجيبة ، كقوله معلقا على قتل المعتمد لوزيره ابن عمار: " قلت: ولولا أن يطول الكتاب لاستوفيت من ذلك مايعجب استيفاؤه ، وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد في أزمّة حبّ التشفي ، وطلب الانصاف ، فلا تتوقف في مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات،الا للقليل النادر ممن كانت نفسه متصفه بالرحمة في أصل جبلتها ، فهي ساكنة الفورة ، كالمأمون العباسي في العفو عن عمه الذى نادمه على كأس السلافة ، من بعد أن ابتزه ثوب الخلافة ، فتركها مثلا بعده ، ولا يخلف الله لمن اتصل بالحلم وعده ، ومما يؤثر عنه المأمون قوله: (لو علم الناس محبتنا في العفو ، لتقربوا الينا بالجرائم) ، وماكان أجمل بالمعتمد أن يبقى على جانٍ من عبيده قد مكنه الله من عنقه ، لا يؤمل الحصول على أمده ، ولا يحذر تعصب قبيله ، ولا يزيده العفو عنه الا ترفعا

---

(١) السابق والصفحة.

وعزا ، وجلالة وهمة ، وذكرا جميلا ، وأجرا جزيلا ، فلا شيء أمحى للسيئة من الحسنة ، ولا أقتل للشر من الخير ...".[١]

ومن التعليقات المندسّة في طيات الكتاب والتي تمثل ومضات عاطفية في ثنايا السرد التاريخي قوله في معرض الحديث عن ملوك النصارى بالأندلس: " فرجع الملك لأخته ، ملكة ليون فأعطته ولدها فرانك ، فهذا فرانك ملك قشتالة من أمه ، وملك ليون من أبيه ، وهو الذى تملك قرطبة واشبيلية وجيان ومرسية ، وحسبك بهذا الظهور الذى أقام البرهان على أن الدنيا لا تزن عند الله شيئا ، فكم اشتملت عليه تلك المدائن العظيمة من بلاد وعمالات ومنابر ومساجد وأعيان وفرسان وعلماء وأعلام (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد)".[٢]

وكثيرا مايكرر ابن الخطيب في ختام تعقيباته عبارات توحي بالتهوين في أمر الدنيا ، من ذلك قوله بعد أن أشار الى أنه ساق بعض الحوادث للعبرة : " وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة ، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه ، غير مالديه"،[٣] وقوله في نهاية الحديث عن أول ملوك بني عباد : " والدنيا عند الله حقيرة الوزان ، خاملة الشأن".[٤]

---

(١) السابق ، ص ١٦٢.
(٢) السابق ، ص ٣٣٢. والآية رقم (١٨٢) آل عمران.
(٣) السابق ، ص ١٤٥.
(٤) السابق ، ص ١٥٤.

٨) ويهتم ابن الخطيب بالنقد والتحليل الفلسفي لبعض مايورد من أحداث التاريخ ، يقول مشيرا الى تناحر الرؤوس ، وسكوت أولي الأمر من العلماء على تفرق الكلمة ، وتشتت أمر الجماعة ، : " ومحا رسمَ الجماعة ، وتقسم البلادَ رؤساءُ الطوائف ، قد استحاز كل منهم استبداده بنفسه ، ورضي بذلك من بقواعدهم من المسلمين ، على وفور الفضلاء ، وتعدد العلماء ، وانفساح الأقطار ، وتزاحم الأعمار". (١)

وأحيانا يورد كلام بعض المؤرخين الذى يؤيد فكرته في استثارة السخط على ملوك الطوائف ، كقوله : " قال أبو محمد بن حزم : اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها : أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام ، كلهم يتسمى بالخلافة ، وامارة المؤمنين". (٢)

ومن نقده الضمني لبعض التصرفات والأفعال ، قوله في معرض الحديث عن محمد بن اسماعيل المتغلب على الغني بالله ، بعد أن اضطرب أمره فلجأ الى صاحب قشتالة دون أخذ عهد منه على نفسه : " واقتضى رأيه الفائل اللحاق بصاحب قشتالة في طائفة عديدة ممن خاف على نفسه ، ... ، فكان ذلك من غير عهد اتخذه لنفسه ، ولا ذمام أسلفه ،

---

(١) السابق ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٢) السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

ليقضي الله فيه قضاء ، فلم يرع قصده ، وتقبّض عليه ، وعلى من معه ، مخالفا في ذلك لرأى قومه ، وقتله بيده".(١)

ومن فلسفة المواقف وتحليل الأمور ، تصنيفه للناس حينما تتم البيعة لصبي لم يبلغ الحلم ، حيث يرى أن الناس عندئذ يكونون على أصناف،(٢) نجملها فيما يلي :

أ - صنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد ، وهؤلاء هم خدام السلطان وعماله وفتيانه ورجاله بالاضافة الى عمال من ينوب عن الولد ، وهؤلاء يريدون الحكم للصبي ، فلا يثيرون المتاعب.

ب - وصنف آخر راكن الى العافية أيضا ، ولا يهمهم ان حكم شيخ أو صبي ، وهم العاملون في الوظائف الراقية من ديوان الحكم.

جـ - وصنف ثالث يرى نفسه ، أو غيره من قرابته أولى بالحكم من الطفل ، وهذا من الأصناف المنازعة.

د - وصنف من أهل الدنيا والآخرة سالمين لا يريدون الا العدل والسلم سواء حكم طفل أو شيخ وهؤلاء أيضا لا يثيرون المتاعب.

هـ - وصنف همهم العطاء والمال ، فاذا كان الصبي قليل العطاء طعنوا فيه بحجة أنه صبي ، واذا كان شيخا قليل العطاء

---

(١) السابق ، ص ٣٠٩.
(٢) راجع السابق ، ص ٤٤ ومابعدها.

أيضا ، طعنوا فيه بحجة أنه عجوز ، واذا كان الحاكم معطاء ، سكتوا سواء كان شيخا أو صبيا ، وهؤلاء هم أوباش الأسواق ، والحمقى الذين ليس لهم خلاق ، كما يقول ابن الخطيب.

و - وصنف من أهل الآخرة ، لايهتمون للدنيا ، ولا يسألون عنها ، لانشغالهم بربهم وهم جيل قليل.

وتقسيمات ابن الخطيب هذه تنم عن تجربة صادقة ، ونظرة ثاقبه ، وتدل على فكر مستنير نابه ، غير أنه ذكر في بداية تقسيمه هذا أن الناس على أصناف أربعة ، ثم ذكر ستة أصناف ، وهذا ربما يدل على أنه لم يراجع كتابه هذا بعد تأليفه.

٩) واذا كان ربط النتائج بالمقدمات من خصائص الكتابة التاريخية ، فان ابن الخطيب لم يغفل هذا الجانب في كتابه ، فهو كثيرا مثلا مايشير الى أن الفتن والثورات على الحكام والسلاطين مدعاة الى ضعف المسلمين ، وتأخرهم ، وقوة عدوهم خاصة ، اذا كانت الدولة ثغرا من ثغور الاسلام ، فالعدو حينئذ يكون متربصا لانتهاز الفرص ، ومن المواضع التي نبه فيها ابن الخطيب الى ذلك ، وساقها للعبرة قوله أثناء الحديث عن بعض الفتن في أوائل عصر بني الأحمر: "وفي أثناء هذا الهرج ، وهيجان الفتنة ، وانفراد كل يد بما ملكت استولى العدو على مدائن جليلة ، وقلاع حصينة منيعة ، وثغور شريفة ، ... ، وربوع آهلة ، وأطراف

بعز الاسلام الذى وطئها شاهدة مثل مدينة قلهرة ، وانتيشة ، ومدينة سالم ... الخ".[١]

ويقول في موضع آخر: "ومن لدن تَفرقَ شمل الاسلام ، وانشقت عصاه ، وتبددت كلماته ، لم يكن هم عدو الاسلام الا استرجاع البلاد والأقطار ، واستضافة العمالات وافتتاح القلاع ، والاستيلاء على الثغور ، تارة في سبيل المشارطة والاستجارة ، وتارة في سبيل المسالمة والمتاركة ، وتارة بالغلاب والمنازلة ، وقد وقع من ملوكهم التكالب والتنافس ، فصاحب قشتالة وليون يضم ماجاوره ، ويطويه طي السجل ، وصاحب برجلونة يسرى فيما يليه سري النار في الهشيم".[٢]

وهو حين يذكر ذلك يسوق الدلالات البالغة الحجة على مايذكر ، فيقول مكملا قوله السابق: "وحسبك أن هشام بن الحكم ، وهو سلالة الأئمة وبقية الدين والحشمة والبعيد المرمى من الدنية ، خرج في أيام فتنته ومحنته بابن عبد الجبار تسليما على مائتي موضع وحازها العدو ، وحينئذ سوه بالحركة الى نصره ، ولم يفعل ، ثم سلك من بعده سبيله الى أن استولى على طليطلة وماإليها سنة ٤٧٨ هـ ، وحسبك بها فجيعة ، وأعظم بها مصيبة ، وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون ، وعن عواقب الاسلام لاهون".[٣]

... ...

---

(١) السابق ، ص ٢٩٣.
(٢) السابق ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢.
(٣) السابق والصفحة.

اسلوب ابن الخطيب في هذا القسم من كتاب أعمال الأعلام:

الواقع أن اسلوب ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب يتسم عامة بالسلاسة والوضوح واتساق المعاني ، وقوة الترابط ، ويمتاز باستخدام الصور الأدبية.

واذا كانت الاطالة والتكرار من سمات ابن الخطيب العامة في أكثر كتاباته ، فانه يلاحظ هنا أنه لا يميل الى الاطالة والتكرار ، ولا الى النقل من كتبه كعادته ، مما يدل على تغير مزاجه ، وتبدل أحواله النفسية بعد الخروج من الأندلس.

ويحفل ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب بايراد مايصور الشخصيات المتميزة من رجال التاريخ ، ويشبع رغبة القارئ عنهم ، كما في حديثه عن مجاهد العامري صاحب دانية (١) ، وغيره .

ولهذا كله امتاز التاريخ في هذا القسم من الكتاب بغزارة المادة ، كما امتاز بالتبسيط ، وحسن التسلسل والتشويق ، وسهولة العبارة ، وقوة دلالتها ، وجمال تعبيرها .

بعض المآخذ على ابن الخطيب في القسم الثاني من كتاب أعمال الأعلام:

يؤخذ عليه فيه التزامه أحيانا للسجع الذى لا فائدة له ،

---

(١) راجع تاريخ اسبانية الاسلامية ، ص ٢١٧ .

كقوله في معرض الحديث عن الأندلس: " قال لي بعض الفضلاء من أصحابنا الذين حلبوا الأشطار ، وخبروا الأقطار ، وصحبوا الحداة والقطار ، وهو حجة في الأخبار ، ومدرك الأنظار".[1]

كما يؤخذ عليه استهزاؤه بالقاضي النباهي أثناء الحديث عن المنصور ابن أبي عامر ،[2] وهذا مما ينقد به ابن الخطيب ، لخروجه عن غرض التاريخ الذى هو بصدده.

... ...

---

(١) تاريخ أسبانية الاسلامية ، ص ٤٠

(٢) راجع السابق ، ص ٧٨٠

القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام أو
٢ [تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط]*

هذا هو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام لابن الخطيب " ويتناول تاريخ المغرب العربي الاسلامي من أحواز برقة شرقا الى المحيط الأطلسي غربا ".(١)

ويرى محققا الكتاب أنه ينتهي بنهاية غير طبيعية ، ذلك أنه من الناحية الزمنية ينتهي بنهاية عصر الموحدين ، بينما ينتهي القسمان الأولان الى عصر المؤلف ، وللتأكيد على صحة نظرتهما يوردان مقدمة الكتاب ، الواردة في القسم الأول ، والتي نص فيها ابن الخطيب على أنه كان في نيته كتابة تاريخ شامل للمغرب العربي حتى عصره ، ثم يعتقد المحققان بأن الكتاب غير تام ، وأن مؤلفه قد قتل قبل اتمامه.(٢)

... ...

مصادر الكتاب:

الواقع أن ابن الخطيب لم يضع لهذا القسم من الكتاب

---

* حقق هذا القسم من الكتاب أخيرا كل من الدكتور أحمد مختار العبادى ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٤م ، في ٢٧١ صفحة بمجلد واحد ، وقد جعلا عنوانه (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط) .

(١) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - مقدمة التحقيق ص ب.

(٢) راجع السابق والصفحة.

مقدمة كي يشير الى مصادره ، ومن المؤكد أنه أشار الى ذلك في مقدمة الكتاب ، والتي يكون وضعها الطبيعي مع القسم الأول ، الذى مع الأسف ليس بين أيدينا .

ولكنه يشير في متن الكتاب أحيانا الى بعض المصادر ، ككتاب تاريخ المهدية لأبي الصلت المتوفى عام ٥٢٩ هـ [١]، وكتاب الذخيرة لابن بسام المتوفى عام ٥٤٢ هـ [٢]، ورحلة ابن جبير المتوفى عام ٦١٤ هـ. [٣]

كما يذكر أحيانا أسماء بعض المؤلفين دون ذكر كتبهم مثل أبي محمد الرشاطي المتوفى عام ٥٤٢ هـ. [٤]

وأحيانا يبهم مصادره ، ويكتفي بمثل قوله : " قال : أرباب التاريخ " [٥] أو " قال بعض المؤرخين " [٦] أو قال " بعضهم " [٧] أو ماشابه ذلك من العبارات.

وقد ينقل دون الاشارة الى النقل مطلقا كقوله : " يروى عن روح بن حاتم بن المهلب قوله : كنت عاملا لهارون الرشيد على فلسطين فصرفني عنها ، فخرجت منها أريد بغداد فوافى

---

(١) راجع تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٨٠ .
(٢) راجع السابق ، ص ٨٨.
(٣) راجع السابق ، ص ١٠٢.
(٤) راجع السابق ، ص ١٠١.
(٥) راجع السابق ، ص ١٠٨.
(٦) راجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٨٠.
(٧) راجع السابق ، ص ١٩٧.

وصولي نعي أخي يزيد ، فأرسل اليّ هارون ، فلما دخلت عليه قال: ياروح أحسن الله عزاءك في أخيك يزيد ، فقد توفي ، ولا شك أن له صنائع بافريقيه ، فان ولي مكانه غيرك لم آمن عليهم ، فأخرج الى افريقية ، واحفظ صنائعكم".(١)

... ...

منهج الكتاب:

سار ابن الخطيب في هذا الجزء من كتابه على نفس المنهج الذى اختطه وسار عليه في القسم الثاني (تاريخ أسبانية الاسلامية).

فهو لم يقتصر على ذكر الملوك الذين حكموا المغرب من صغار السن ، بل يؤرخ لجميع من حكم المغرب فاذا ورد ذكر ملك أو حاكم لم يبلغ الحلم أشار الى ذلك مقدما له بمثل قوله: "وهو من شرط كتابنا"، ومن هؤلاء المنتصر بن سمعون بن المعتز بن محمد بن مدرار حيث يقول عنه: "ولي المنتصر الأمر صبيا قبل الاحتلام ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو نحوها ، وكانت جدته تدبر أمره ، فهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام".(٢)

ومنهم أيضا صالح بن سعيد المتوفى عام ٣٣٥ هـ ، وهو

---

(١) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٩٠
(٢) السابق ، ص ١٤٧٠

من ملوك الحميريين بالريف المغربي ، يقول عنه ابن الخطيب :
" فبايعه البربر ، وسموه اليتيم لصغر سنه ، وهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ".(١)

ويهتم ابن الخطيب في منهجه في هذا الكتاب بالترتيب الزمني للحوادث ، بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى ، فقد أورد بعد الحديث عن دولة الصناهجة بالمغرب دولة ملوك القبلة ،(٢) مخالفا بذلك بقية المؤرخين الذين كانوا يقدمون دولة الأشراف الأدارسة على بقية الدول المغربية التي قامت قبلها ، وقد أشار الى ذلك في بداية حديثه عن دولة ملوك القبله حيث يقول :
" وانما اتبعنا دولة الصناهجة ملوك أفريقية بهؤلاء ، وان كان الشرفاء العلويون ـ يعني الأدارسة ـ أولى بالتقديم ، ويكون هؤلاء وراءهم لمناسبة قرب الزمان والمكان ، فالعذر في ذلك واضح البيان ".(٣)

وقد أشاد محققا الكتاب بصحة منهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية حيث قالا تعليقا على هذه العبارة : " عبارة جميلة تدل على مدى احترام ابن الخطيب لمبدأ الزمان والمكان ، أو مبدأ الترتيب الزمني والتسلسل التاريخي ، بغض النظر عن أى اعتبار آخر ، وهذا يدل على أصالته كمؤرخ عظيم ، فلقد جرت عادة

---

(١) السابق ، ١٧٦ .
(٢) ملوك القبلة : أى ملوك الجنوب المغربي .
(٣) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ١٣٧ .

المؤرخين الآخرين أمثال ابن أبي زرع ، والسلاوى الناصرى على تقديم دولة الأدارسة ـ لمكانتها الشريفة ـ على غيرها من الدول المغربية التي قامت قبلها ، متخطين في ذلك مبدأ الزمان والمكان ، الذى يعتبر الآن من مقومات الدراسات المنهجية التاريخية الحديثة ".(١)

... ...

غير أنه يؤخذ على ابن الخطيب في كتابه بعض المآخذ بسبب ماوقع فيه من أخطاء تاريخية وعلمية ، تتبعها المحققان ، وأشارا اليها ، وحاولا قدر الامكان تصويبها (٢) ، ومن أمثلة تلك الأخطاء ، عدم الصحة في تحديد تاريخ وفاة يحى بن العزيز بن منصور بن علناس أحد ملوك المغرب ، حيث يذكر ابن الخطيب أنه توفى عام ٥٤٤ هـ ، بينما يذكر غيره من المؤرخين أنه توفى عام ٥٥٨ هـ ، وقد أشار محققا الكتاب الى هذا الخطأ وعلقا عليه.(٣)

... ...

الطابع الأدبي في هذا القسم من كتاب أعمال الأعلام :

هذا القسم من الكتاب وان كان موضوعه التاريخ ـ كسابقه ـ

---

(١) السابق ، ص ١٣٧ هامش ٣.
(٢) راجع السابق ، ص ٧٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٧٧.
(٣) راجع السابق ، ص ١٠٠ هامش ١.

الا أنه امتاز بما امتاز به القسم السابق ، حيث طبع بطابع أدبي يظهر فيما يلي :

أولا : يهتم الكاتب بايراد الأشعار سواء كانت مقطوعات قصيرة ، أو قصائد مطولة ، فمن المقطوعات القصيرة أورد بعضا من أشعار الملوك والحكام الذين تعاقبوا على عرش المغرب ، مثل زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب المتوفى عام ٢٢٣ هـ ، حيث أورد له مقطوعة يقول فيها :

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسي ∴ وأنت تملك انطاقي واخراسي
صدود طرفك عن طرفي اذا التقيا ∴ مجرعي كأس ارغامي واتعاسي
لو لم أبحك حبي قلبي ترود به ∴ لم تستبح مهجتي يا أملح الناس(١)

كما أورد قطعة من شعر تميم بن المعز بن باديس المتوفى عام ٥٠١ هـ ، يقول منها :

بكرّ الخيل دامية النحور ∴ وقرع الهام بالقضب الذكور
لاقتحمنها حربّا عوانا ∴ يشيب لهولها رأس الصغير(٢)

كما أورد أيضا قطعة ليحي بن تميم بن المعز المتوفى عام ٥٠٩ هـ ، يقول فيها :

ألا يامنتهى طربي ∴ ومن لم يعدها أربي

---

(١) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٩١ .
(٢) السابق ، ص ٩٧ .

اذا ماكنت حاضـــرة ∴ شربت الراح بالنخـب
ومهما غبت عن بصـــرى ∴ فواحزني ! وواحربي ![1]

كذلك أورد مقطوعات للحسن بن علي بن يحي بن تميم بن باديس.[2]

ومن القصائد المطولة أورد بعضا مما قيل في مدح بعض ملوك المغرب ، أو رثاء مدنهم ، من ذلك قصيدة ابن حماد الصنهاجي الشاعر المؤرخ المتوفي عام ٦٢٨ هـ ، في رثاء المدينة التي بناها الناصر بن علناس المتوفى عام ٤٨١ هـ ، والتى مطلعها :

ان العروسين[3] لا رسم ولا طلل ∴ فانظر ترى ليس الا السهل والجبل[4]

ومن القصائد المطولة أيضا أورد قصيدة لابن وهبون المتوفى عام ٤٨٧ هـ ، يمتدح فيها يوسف بن تاشفين ويذم فيها الأدفونش ، ويصف معركة الزلاقة التي وقعت في رجب عام ٤٧٩ هـ ، وانتصر فيها المسلمون.[5]

ومن ذلك أيضا قصيدة أبي بكر الصيرفي المتوفى عام ٥٧٠ هـ ، والتي يمتدح فيها حفيد يوسف بن تاشفين ، تاشفين

---

(١) السابق ، ص ٨٠.
(٢) انظر السابق ، ص ٨٤.
(٣) العروسين : اسم لقصر من قصور المدينة.
(٤) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٩٥.
(٥) راجع السابق ، ص ٢٣٨ ومابعدها.

بـن علي المتوفى عام ٥٣٩ هـ ، والتي مطلعها :

يا أيها الملأ الذى يتقنع .·. من منكم البطل الهمام الأروع[١]

وقد يورد بعضا من القصائد المطولة للاستدلال على مايسوقه من شرح تاريخي ، حيث يورد قصيدة طويلة للشاعر الشيعي ابن هانئ الأندلسي المتوفي عام ٣٦٢ هـ ، يستشهد بها على أن أبا تميم معد بن اسماعيل أحد ملوك الشيعة في المغرب ، ادّعى الرسالة ، وأمر مؤذنه أن يقول : (أشهد أن لا اله الا الله ، وأن معدا رسول الله).[٢]

ثانيا : ومن الطابع الأدبي في الكتاب أن ابن الخطيب يورد بعضا من النصوص الأدبية كالرسالة التي بعث بها أحمد القديدى ، أحد كتاب ابراهيم بن أحمد بن الأغلب المتوفى عام ٢٨٩هـ ، وكان ابراهيم قد أمر بحبسه ، فارسل له من السجن يستعطفه برسالة طويلة أوردها ابن الخطيب كاملة في معرض حديثه عن دولة ابراهيم بن أحمد .[٣]

ومن النصوص الأدبية أيضا الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد الى ابنه الرشيد يخبره فيها بنصر المسلمين في موقعة الزلاقة ، وقد أوردها ابن الخطيب

---

(١) السابق ، ص ٢٦٠.
(٢) راجع السابق ص ٥٥ ومابعدها .
(٣) راجع السابق ص ٣٠.

كاملة أثناء حديثه عن يوسف بن تاشفين.(١)

ثالثا: ومن الطابع الأدبي أيضا اهتمام ابن الخطيب بذكر الطرف الأدبية والمواقف النادرة يقول عن ابراهيم بن الأغلب بن سالم المتوفى عام ١٩٦ هـ: "وكان يتولى الصلاة بنفسه بالمسجد الجامع من القيروان ، ولقد عثر يوما ببعض الحصر ، فجمع عند الفراغ من الصلاة وجوه الناس فأمرهم باستنكاهه(٢) ، نفيا للظنة."(٣)

ومن ذلك أيضا قوله في معرض حديثه عن روح بن المهلب : "ومن أخباره أنه بعث الى كاتب له بثلاثين ألفا ، وكتب اليه : "لا استقلها لك تكبرا ، ولا استكثرها تمننا ، ولا استثيبك عليها ثناء ، ولا أقطع عنك بها رجاء".(٤)

ومن عنايته بايراد الطرف الأدبية ، يورد في خبر هروب زيادة الله آخر حكام دولة بني الأغلب في المغرب ، أنه لما رفع الأموال ، وحمل من يعز عليه من جواريه وأمهات ولده "وقفت اليه جارية من قيانه وقد أخذت العود على صدرها ، واندفعت تغنيه لتحركه على رفعها (أخذها معه) ، وتقول :

---

(١) راجع تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦.
(٢) باستنكاهه : أى بشم رائحة فمه كي لا يظن أنه مخمور.
(٣) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ١٤.
(٤) السابق ، ص ١٠.

لم أنس يوم الرحيل موقفها ∴ وجفنها في دموعها غرق

وقولها والركاب سائرة ∴ تتركني سيدى وتنطلق

فدمعت عيناه ، وحط حمل مال عن بغل ، وأمر بحملها عليه ".(١)

رابعا: ومن الطابع الأدبي في الكتاب التنويهات الأدبية ، من ذلك الاشارة الى أن تميم بن المعز بن باديس المتوفى عام ٥٠١ هـ ، من شعراء أبناء الملوك ، يقول عن ذلك: " وتميم أحد شعراء أبناء الملوك ، وممن يناظر ابن المعتز في المشارقة ".(٢)

... ...

تعقيبات ابن الخطيب في هذا القسم من الكتاب:

قد يعقب ابن الخطيب بآرائه التي تستدعيها بعض مايورده من وقائع وأحوال تاريخية ، وفي هذه التعقيبات مايطلعنا على الكثير من علمه وفلسفته وخبره ، وجوانب شخصيته في أخريات حياته.

فمن ذلك قوله بعد الحديث عن أحمد بن محمد بن الأغلب المتوفى عام ٢٤٩ هـ ، والذى لم يمت حتى تحققت رغبته في ادخال ماء الوادى الى الماجل الكبير(٣) بباب تونس ، حيث

---

(١) السابق ، ص ٤٣.
(٢) السابق ، ص ٧٨.
(٣) الماجل: يعني البركة العظيمة.

يقول ابن الخطيب معلقا على ذلك: " وهذا عنوان السعادة والقبول من الله تعالى : فان الانسان عرضة لذهاب اسمه وسماه ، فلو لم يكن في هذه الآثار الا أنها بقاء في الوجود الأول باعتبار ما ، فكيف وبازاء ذلك من النعيم الباقي والوجود الدائم ماعرف، وفقنا الله للخير وتقديم هذا المتاع الفاني الى حيث ننتفع باستغلاله ، ونلجأ الى ظلاله". (١)

ومن تعقيباته التي تكشف طويته ، وتبين عطفه ورقته ، وتدل على سخطه على البطش والتجبر ، والتسلط في الملوك ، وتأثره بما يطالعه من التاريخ قوله بعد الحديث عن قسوة ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وقتله لبناته : " قلت : اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يعقبه رضاك ، ولا تمنحه رحمتك". (٢)

وقوله عنه في موضع آخر: " وانما استكثرنا من ذكر هذه الشناعات والفتكات الفاجعات ليحمد الله من جعل نفسه وماله وولده وأهله في يد من يتقي الله أو يحسن فيه ملكته ، أو يقيل عثرته ، أو يهدر زلته ، ويتذكر ما ابتلي به الناس من النقمات وانتزاع الرحمات مع كونهم أغض ايمانا ، وأفضل زمانا ، أوزعنا الله شكر نعمه ، ولا سلبنا أثواب فضله وكرمه". (٣)

---

(١) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، ص ٢٤.
(٢) السابق ، ص ٣٠.
(٣) السابق ، ص ٣٤.

ويعقب ابن الخطيب على بعض الأحداث بما تستثيره هذه الأحداث في نفسه من خواطر حزينة باكية أسيفة ، كقوله بعد أن نقل بعضا مما ذكره ابن جبير في رحلته عن بعض المدن المغربية : " وذكر مدينة طرابنش ، وأطنب في ذكر الجميع بما لا مرغب في اطالته اذ يجر التفجع ، ويثير التوجع ، أعادها الله دار ايمان بقدرته ".(١)

ويجمل ابن الخطيب رأيه في بعض الدول كقوله بعد الحديث عن دولة المرابطين " وكانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثر الدول جريا على السّنة ، رحمة الله عليهم ".(٢)

وقد يناظر بأحداث التاريخ للتنبيه والاشادة في كل مناسبة ببيعة السلطان السعيد ونظارة وزيره ابن غازي ، يقول بعد أن يورد خبر تشييع جثمان باديس بن المنصور أحد ملوك صنهاجة بالمغرب ، والاتفاق على اقامة ابنه الصغير المعز بن باديس بنظارة عمه (كرامة بن المنصور) : " ولقد أذكرنا حديثه هذا أشبه الأشياء له وهو الانصراف من تلمسان بجنازة السلطان المولى عبد العزيز ، منعقد أمره على ولده السعيد ، لنظر وزيره صدر الأوفياء ، وعظيم الظهراء ، فترحمنا على من قضى وسلف ، ودعونا لمن حضر وخلف ".(٣)

... ...

---

(١) السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) السابق ، ص ٢٦٥ .
(٣) السابق ، ص ٧٢ .

أسلوب هذا القسم من الكتاب:

يكاد يكون النثر في هذا القسم من الكتاب نثرا مرسلا في أكثره يسرد الكاتب فيه أحداث التاريخ سردا موجزا ، غير أنه يلجأ أحيانا الى النثر الفني السجع لتصوير شعوره ،أو لتقرير المعاني الرفيعة السامية والابانة عنها ، أو للتعبير عن المواقف العاطفية.

ومن أمثلة ذلك قوله معلقا بعد أن وصف العباس محمد بن الأغلب المتوفى عام ٢٤٢ هـ بأنه كان " مظفرا في حروبه على بلوغ الغاية في الجهل والأفن[١] ، وكان كوسجا لا لحية له كأنه خصي[٢] ، . . " لكن الأمور لا ترجع الى شكل حسن ، ولا تتوقف على فصاحة ولا لسن ، انما هو رزق مكتوب ، وقدر معتوب ، وظفر منسوب ، وعمل محسوب ، ولا حول ولا قوة الا بالله".[٣]

ومن ذلك أيضا قوله في نهاية حديثه عن الأدارسة : "وكان سلطانهم اذا قوى امتد الى تلمسان واذا اضطرب وانقبض اقتصر على معتصم بالجهة السبتية الى أن ذهب منهم العين والأثر ، وعدم الخُبر ، وسيعدم الخَبر ، فسبحان من لا تغيره الغير ، لا اله الا هو".[٤]

---

(١) فلان مأفون : منزوف العقل ، راجع أساس البلاغة ص ٨ .
(٢) السابق ، ص ٢٠ .
(٣) السابق والصفحة.
(٤) السابق ، ص ٢٢٤ .

ومن المواقف العاطفية التي يعبر عنها ابن الخطيب قوله في وصف ادخال المستنصر صاحب مصر ، ووزيره العرب الى المغرب لمحاربة المعز: " فسبوا البلاد ، وأيتموا الأولاد ، وانتهبوا الطارق والتلاد ، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة ووقيعة شنيعة ، والى اليوم فالخطب بهم لا يرفع ، والوطن الخصيب الرحيب قفر بلقع ".(١)

... ...

ومما يقرب الكتاب من الأسلوب الأدبي استخدام ابن الخطيب بعض الصور البيانية في التعبير عن بعض المواقف ، يقول في بداية حديثه عن المغرب: " وأول ملوكها الأغالبة ، فانهم أقاموا بها ملكا كبيرا ، ... ، ... ، ... ، بعد أن تقدم القوم أمراء من قبل السلف الصالح الذين فتحوا الوطن ، وقادوا اليه الذين فألقى بالعطن(٢) ، مثل عقبة بن نافع الفهرى".(٣)

ويقول أثناء حديثه عن ولاية أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد المقتول عام ٢٩٠ هـ: " كانت ولايته رحمة نسخت العذاب ".(٤)

ومن الصور البيانية أيضا قوله عن حماد بن بلقين بن زيرى

---

(١) السابق ، ص ٧٥.
(٢) العطن: المناخ حول ورد الماء ، انظر أساس البلاغة ص ٣٠٦ ، ويلاحظ أن ابن الخطيب يخطئ في استعمال اللفظ.
(٣) السابق ، ص ٢.
(٤) السابق ، ص ٣٦.

المتوفى عام ٤١٩ هـ: "كان حماد نسيج وحده ، وفريد دهره ، وفحل قومه". [١]

ويقول في معرض حديثه عن مقتل بلقين بن محمد بن حمّاد المتوفى عام ٤٥٤هـ: " وبلغ يوسف بن تاشفين خبره (أى خبر قدوم بلقين عليه) فكر راجعا الى الصحراء خوفا منه ، الى أن قيض له (أى لبلقين) الناصر ، أحد بني عمه ، وأقدم (أى الناصر) عليه اقدام الأسد ، ففرق بين روحه والجسد". [٢]

ويقول أيضا بعد الحديث عن دولة الأشراف الأدارسة بالمغرب: " وكانوا بين لحيّ أسد ، يكابدون دولتين عظيمتين من جهتيهما ، دولة الشيعة ، ودولة الأموية". [٣]

وهناك عبارات لم يوفق ابن الخطيب في صياغتها ، من ذلك مثلا يقول في حديثه عن ابراهيم بن أحمد : " وكان ابراهيم بن أحمد قد بدأ أمره بحسن السيرة ، وسلوك المذاهب الحميدة ، والتماس الخلل الكريمة ، ثم عاد في الحافرة ، وانقلب الى ضد ماكان عليه ، وفسد فكره ، لغلبة مزاج سوداوي ساءت له أخلاقه ، وتغيرت ظنونه ، فأسرف في القتل .. الخ". [٤]

واستخدامه لجملة (ثم عاد في الحافرة) غير دقيق ،

---

(١) السابق ، ص ٨٥.
(٢) السابق ، ص ٨٨.
(٣) السابق ، ص ٢٢٤.
(٤) السابق ، ص ٢٩.

فالعرب تقول : " رجع فلان الى حافرته " أى الى ماكان عليه (١) فلو كان ابراهيم بن أحمد هذا سيئ السيرة ثم اعتدل ، ثم ساءت سيرته مرة أخرى لصحت الجملة ، ولكنه كان في البداية حسن السيرة ، ثم ساءت أخلاقه ، ومن هنا كان استخدام الجملة غير دقيق ، ان لم يكن خطأ يؤاخذ عليه ابن الخطيب ".

... ...
... ...
...

---

(١) راجع : أساس البلاغة ، ص ٨٨.
صفوة التفاسير ، القسم العشرين ، ص ١٣.

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (١)

تاريخ تأليفه :

ألف ابن الخطيب هذا الكتاب ـ كما تشير أكثر الدلائل ـ في الفترة التي قضاها منفيا بسلا ، بين عامي ٧٦٠ - ٧٦٣ هـ (٢) ، ومما يؤكد ذلك أنه ذكره ضمن الكتب التي ذكرها في اجازته لولدى ابن رضوان (٣) ، التي كتبها في المغرب في نفس الفترة.

ولكن من الغريب أن هذه الاجازة وردت أيضا في نفاضة الجراب (٤) ، ولعل في هذا مايدل على أنه قد عاود هذا الكتاب في فترة لاحقة بالزيادة والتنقيح ، خاصة وأنه كان قد أشار في الاجازة الى أن هذا الكتاب يقع في ثلاثة أسفار ، بينما نص في الاحاطة على أنه في أربعة أسفار. (٥)

منهجه في تأليفه :

صنف ابن الخطيب هذا الكتاب في ثلاثة أو أربعة أجزاء ، ولكن لم يصل منه الا جزء واحد فقط ، هو الجزء الثاني ، كما يشير محقق الكتاب. (٦)

---

(١) حقق الجزء الثاني من هذا الكتاب الدكتور أحمد مختار العبادى ، وراجعه الدكتور عبد العزيز الأهواني ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

(٢) راجع نفاضة الجراب ، مقدمة الناشر ، ص ٣ ومابعدها .

(٣) راجع ريحانة الكتاب ، مج / ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٤) راجع نفاضة الجراب ، ص ٣٦٦ .

(٥) راجع الاحاطة ، مج / ٤ ، ص ٤٥٩ .

(٦) راجع نفاضة الجراب ، مقدمة الناشر ، ص ٥ .

وطالما أن أجزاء من الكتاب مفقودة ، فانه لا يمكن التعرف على منهجه الذى اختطه ابن الخطيب له ، من حيث تقسيماته أو أبوابه.

غير أن الجزء الموجود يكاد يكون ــ الى حد ما ــ عبارة عن مذكرات كتبها ابن الخطيب عن الفترة التي ألف فيها هذا الكتاب ، ولعل في عنوانه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) مايدل على هذا.

ويمتلئ هذا الجزء من الكتاب ، برسائل أدبية ، وأوصاف لرحلات ، بالاضافة الى ماتضمنه من قصائد كتبت في مناسبات مختلفة.

وقد ألحق محقق هذا الجزء من الكتاب به خمسة مقاطع ، وجدها متناثرة في بعض الكتب ، وقد نقلت عن أصل (نفاضة الجراب) المفقود ، وسماها (الضائع) ، ووضعها في آخر الكتاب.(١)

التاريخ في هذا الجزء من الكتاب:

يكاد يكون التاريخ في هذا الجزء من الكتاب متناثرا بين النصوص الأدبية ، التي امتلأ الكتاب بها ، ويمكن أن نشير الى الموضوعات التاريخية التي تحدث عنها في هذا الكتاب وهي :

١ ـ فصل في ادالة الدولة بالأندلس ثانية ، وفيه يتحدث عن رجوع الغني بالله الى عرشه.

٢ ـ ذكر أسماء بعض القادة الفارين الى المغرب في عهد البرميخو (السلطان المغتصب).(٢)

---

(١) راجع نفاضة الجراب ، من ص (٢٧١ : ٣٨٦.

(٢) البرميخو: هو السلطان محمد (السادس) بن اسماعيل النصرى ، ابن عم الغني بالله ، وزوج أخته لأبيه ، وسعى مع اسماعيل بن يوسف أخي الغني بالله لأبيه ، في خلع الغني بالله ، وتولي الحكم ، ثم انقلب ضد اسماعيل وقتله واستبد هو بالسلطة ، حتى استرجع الغني بالله عرشه عام ٧٦٣ هـ.

٣ - حالة غرناطة في عهد البرميخو.

٤ - تولية السلطان أبي سالم المريني ، ونهايته.

٥ - عبور السلطان محمد الخامس (الغني بالله) المخلوع الى الأندلس.

٦ - سياسة البرميخو المغتصب ، بعد عبور السلطان محمد الخامس الى الأندلس.

٧ - استبداد الوزير عمر بن عبد الله[1] ، واضطراب الحالة في المغرب.

ويلاحظ أنه لا يهتم في موضوعاته هنا بالترتيب الزمني ، كما أن هذه الموضوعات جاءت متفرقة ، يتخللها موضوعات هي ذاتية أكثر منها تاريخية ، وفيها يتحدث عن أهم ماكتب في تلك الفترة ، وعن وفاة زوجته ، ويصف فيها بعضا من رحلاته ، ولقاءاته ببعض المشاهير من القواد والرؤساء والعلماء.

الطابع الأدبي في الكتاب:

يتمثل الطابع الأدبي في هذا الجزء من الكتاب فيما يلي :

١ - ايراد كثير من النصوص الأدبية ، شعرا ونثرا ، وهذا ظاهر بوضوح لكل من يقرأ في الكتاب.

٢ - الاهتمام والاشارة الى الجانب الأدبي لدى بعض الأشخاص الذين يتحدث عنهم ، ممن التقى بهم في رحلاته وتنقلاته ، كقوله عن القاضي أبي محمد عبد الله الهرغي الزقندرى ، " فاضل متفنن ، .... ، ... ، ... ، غزير الحفظ ، جيد المعرفة ، مضطلع

---

(١) كان وزيرا للسلطان أبي سالم المريني سلطان المغرب ، ثم دبر انقلابا ضد السلطان أبي سالم وقتله عام ٧٦٢ هـ.

بفنون ، سديد النظر ، جمّ المشاركة في حديث ورواية ، وتاريخ وخبر وكلام وفقه ونظم ونثر ".[١]

٣ - التزام النثر الفني في مواضع كثيرة ، واستخدام الأسلوب الأدبي في التعبير ومن أمثلة ذلك قوله: "وقد كان رفع الى السلطان المغرى بالبناء وتخليد الاثار أبي عنان رحمه الله ، خبر ماعليه الناس من اخافة عدوهم ، واهتضام عرصتهم ، واستهداف عقوتهم،[٢] فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة ، فاختير على غلوات منهم ، محل أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأتى فيه اتخاذ الخندق ، غير مثلوم الشفا ، بعيد المهوى ، يبنى السور بما يخرج منه من الثرى ، ويصون الأطباق[٣] المعدة للاختزان عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء ، فشرع في البناء ، واستبعد الفضاء ، ومثلت الأبواب المديدة ، والأبراج المشيدة ، وعاق عن اتمامها هجوم حمامه ، وانصرام أيامه ، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته".[٤]

ومن النثر الفني في الوصف الجمالي قوله: "وانحدرنا عن ذلك المرفق فاسهلنا ببطن الوادي وأرحنا بجلسة موطأة معدة لاستجمام السلطان رحمه الله ، قد ظللتها الأشجار ، تجرى تحتها عين خرارة كأعظم الأنهار ، فوق حصى كدر النحور ، القريبة العهد بلجج البحور ، أو كثنايا الحور".[٥]

---

(١) نفاضة الجراب ، ص ٦٣ .
(٢) العرصة: ساحة الدار ، والعقوة: الساحة والمحلة.
(٣) كذا وأظن الصحيح الأقوات.
(٤) نفاضة الجراب ، ص ٧٥ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠ ، ٥١ .

أهم المآخذ عليه في هذا الجزء من نفاضة الجراب:

١ - الغلو في المديح بقصد التزلف لرجال المغرب ، ومن ذلك قوله عن أبي عبد الله بن حسون بن أبي العلاء: "فريد العصر ، بل الدهر ، في الخلال المبرة ، والخصال الحرة ، من مذكر بالبرامكة ، ... ، ... ، ... ، يهب الكتائب غانمات، ... والجياد عرابا".(١)

٢ - بعض المبالغات في الوصف كقوله في معرض حديثه عن الصعود الى موضع قبر السلطان أبي الحسن المريني : " فاقتحمنا وعرا تزل فيه الذر ، ولا يسلكه مع الحلم الطيف ، وتسنمنا شعابا تعجز عنها العصم".(٢)

وكقوله عند وصفه لرؤية قبر السلطان ، وهي مبالغة بغرض التزلف: "..وبازائه مصراع باب غسلت عليه جثته الزكية ، لا تتمالك العين أن تنثر سلوك دموعها ، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها ، لما عوض ذلك الملك الحلاحل من الخطب الذى عوضه نضرة النعيم ، ... ، ... ، ... ، في المتبوأ الكريم ، واستثقال طلعة البدر ، واستجفاء هبة النسيم بقنن الجبال الغبر".(٣)

٣ - الوقوع أحيانا في معان وعبارات مسفة في ثنايا الحديث عن بعض من يبغضهم من أعدائه ، أو أعداء سلطانه ، كقوله في معرض

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ٦٠.
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٨.
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٩.

حديثه عن زوال دولة السلطان البرميخو: "وقبض على الشيخ المنبت في متيه الضلال، مخيف السابلة، وخاتر العهد، ...، المنحط في مهوى عقد الاباحية بسبب الفاجرة زوجه التي أبدلت فصله، وقلبت عينه، وصيرته في الأمد القريب من طور الأمية والتوحش والغظاظة والغيرة، الى طور السمح بها لمدعي الهوى فيها".[1]

ومن الاسفاف في الوصف، ومجانبة الحيدة، والبعد عن الموضوعية التاريخية، قوله عند الحديث عن السلطان اسماعيل أخي الغني بالله، الذى عمل على خلعه: "ولم يكد الرسول يتوسط سفره حتى أظل ماكان من استلحام[2] سلطان الأندلس اسماعيل بن الأمير أبي الحجاج بن نصر، الباغي على أخيه أحانه الله لسوء سيرته، وشؤم مولده، من ربي موصمة، وحبيس سجن لم يكسبه اعتبارا ولا خشية، ...، يعكف وأمه العشبة الناشئة في المنبت السوء، والأرومة الخبيثة على أسلاب المنكوبين".[3]

ومثل ذلك قوله في معرض الحديث عن قتل السلطان البرميخو لبعض أعوان دولة اسماعيل بن الحجاج: "وحزّ رأسه معززا برأس صنوه قيس، وألحق بهما عبادا وابنه ...، ...، ...، ووزيره الحر الأمين[4] محمد بن أبي الفتح المواصل للجشأ من خوانه، ...، المغرى اليد باكتساح ذخيرته، المحشو الكم بدسائس الرشا الجانية على ماله، وابن عمه العضرفوط،[5]

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٦، ١١٧.
(٢) في الصحاح (استلحم الرجل، اذا احتوشه العدو في القتال) ويقال رجل لحيم أى قتيل، وألحمه الأرض اذا جدله، انظر الصحاح وأساس البلاغة مادة (لحم).
(٣) نفاضة الجراب، ص ١٠٣.
(٤) يقصد هنا التهكم به لا وصفه بالأمانة.
(٥) قال المحقق: "لعلها العضروط، أى اللئيم أو الأجير على طعام بطنه، والجمع عضاريط أى صعاليك. نفاضة الجراب، ص ١٠٤ هامش رقم (٦).

شور النقل ، وبالوعة النبيذ ".[١]

٤ - ومن المآخذ بعض الأخطاء المعنوية ، كقوله في معرض حديثه عن كرم أبي عبد الله بن حسون : "ولقد أقسم بالغموس ، . . . ، . . . ، . . . ، أن لو ألفوا سعته التي تعودها ، لنقدني ثمن ماغصبته بالأندلس . . ".[٢]

واليمين الغموس ، هي الكاذبة التي تغمس صاحبها في الاثم أو في النار ،[٣] وهذا غير مراد اذ لا يتفق مع ثنائه على الممدوح ، وكان الأجدر والأصح أن يقول (أقسم بالأيمان أو اليمين المغلظة) أو ماشابه ذلك .

٥ - وثمة أخطاء لغوية ، كقوله عند حديثه عن السلطان أبي الحسن : " كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة ، . . . ، . . . ، . . . ، محافظا على الصلاة ، قيوما عليها بالليل " ،[٤] والقيوم من أسماء الله الحسنى ، يعني " المبالغ في القيام بتدبير خلقه " ،[٥] وكان الأصح والأفضل أن يقول : (قواما بالليل) .

ومن الأخطاء في اللغة أيضا قوله : " وقصدنا باب الرّحا من أبوابها غلسا نصابح تربة الشيخ . . " ،[٦] وقوله (نصابح) غير صحيح ، والصحيح (لنصبّح) يقال (صبح القوم أى جاءهم صباحا ، ولم يرد (صابح القوم) .[٧]

---

(١) نفاضة الجراب ، ص ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٠ .
(٣) انظر الصحاح : مادة (غمس) .
(٤) نفاضة الجراب ، ص ٤٩ .
(٥) تفسير الجلالين : ص ٣٦ .
(٦) نفاضة الجراب : ص ٦٨ .
(٧) الصحاح : مادة (صبح) .

أهم سمات الكتابة في هذا الجزء من نفاضة الجراب:

١ - اقتضاب الجمل، وايثار الايجاز والتلويح دون التصريح، يقول في معرض حديثه عن الفقيه علي بن العباس بن موسى بن أبي حمو: " ثم جمعت بين الغرة العتيقة، والمهندة المحلاة، والصامت الدثر [1]، هديتُه عن خصاصة متقررة، وحال رقيقة لقصور دخله عن خرجه، وماجره كف يده، ووازع عفته، وجناه الوفاء من نكبته، أصلح الله حاله، وزاده من جميل نظر الملك مايقيم أوده". [2]

٢ - قوة التصوير البياني، وفخامة العبارات، والعناية باختيار الألفاظ الجزلة، مع قصر الفقرات وحسن السبك، ومن نماذج ذلك قوله عند الحديث عن حال غرناطة في عهد السلطان (البرميخو) المغتصب: " وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر، واختلال السيرة وتشذيب الحامية التي لا فوقها، فحضر مدعى وليمة الدائل بها لأول ولايته، رجل الدّبا، [3] فالتهم الخلا والكلا، وأعدم باعدام الغلة أسباب الرخا، وفتح أبواب البلا، وموه لأول أمره ببث النهي عن المنكر، الذى هو جرثومته العظمى، وتصاريفه غايته القصوى، وسمح ببعض المكوس، [4] فأعطى قليلا ثم أكدى، ولم تمر الأيام الا وقد عاد في قيئه، وأضاق الرعايا بشؤمه، وكلفهم ارتباط الأفراس بعد اغرامهم أرزاق جنده، وانزال دورهم بغرباء ديوانه، وانحطّ في مهاوى

---

(١) الصامت كناية عن الذهب والفضة.
(٢) نفاضة الجراب، ص ٥٩.
(٣) الدبا: صغار الجراد، وقوله رجل الدّبا، من اضافة المشبه به الى المشبه.
(٤) المكوس: الضرائب.

الشمات برتبة الأمر ، وأنقص من منصب الملك فقعد للعرض، وقد حشر الناس ضحى في موقف أجلس معه بسريره بعض السوق عاري الرأس ، مثلة من مثل الخلق ، غير مقصر في مخاطبة من سرّ به عن غاية الافحاش ، والتبجح بمعرفة الهنات".[1]

ومن النصوص الشاهدة على ايثاره جزالة الألفاظ ، ومتانة الأساليب ، وتدقيق المعاني ، قوله في معرض حديثه عن تولية السلطان أبي سالم المريني : "وفي ليلة التاسع عشر من شهر ذي قعدة عام اثنين وستين وسبعمائة ، وقعت بأمير المغرب ابراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن الدّبرة ، وأخذته في مجثمه[2] الصيحة ، لتوفر أسباب البغضة ، وتكاثر دواعي الخلعان".[3]

٣ - تدقيق الوصف ، ومن نماذج ذلك قوله أثناء حديثه عن رحلته لجبل هنتاته : " وفي يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم ، توجهنا الى الجبل في كنف أصحابه[4] تحت اغراء بره ، وفي مركب قرة عينه ، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل ، ونساير الجهة،[5] ونشاهد الآثار ، ونتخطى المعاهد ، ونتنشق النسيم البليل ، القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد ".[6]

---

(١) نفاضة الجراب ، ص ١٨٣ .
(٢) المجثم محل الجثوم أي المأوى .
(٣) نفاضة الجراب ، ص ٢١٥ .
(٤) الضمير هنا عائد على عامر بن محمد الهنتاتي .
(٥) كذا ، وأظنها الجبل .
(٦) نفاضة الجراب ، ص ٤٥ .

ومن الدقة في الوصف والاحاطة في تمثيل الموصوفات والموجودات المادية ، قوله في وصف الدار التي بها قبر السلطان أبي الحسن: "وهي دار قوراء نبيهة بالنسبة الى جنسها ، ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر ، متقابلة الأشكال بيوتها ، غير مهذبة الخشب ، بأعلاها غرف من جنسها ، يدور بداخلها برطال[1] مستعمل على أرجل متخذة من اللبن والحجر ، ملبس بالطين ، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء ، قد ترك فيه دائرة كالقصعة ، تباشر الثرى ، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى".[2]

والحق أن ابن الخطيب يمتاز بقدرة فائقة على الاحتفاظ في ذهنه بالصور والأوصاف ، ويعرضها ماثلة كأنما يراها القارئ بعينيه ، مجسدة أمامه.

ويجمع ابن الخطيب بين دقة الوصف واحاطته لتمثيل الموصوفات ، وجلاء المعاني عن طريق الصور البيانية المعتمدة على الاستعارات والتشبيهات ، ومن نماذج ذلك تصويره الرائع لخواطره في التعجب من أمر الموحدين ، كيف دالت لهم – على تواضع نشأتهم وخمول بيئتهم – أقاليم نابهة ومدائن متحفرة عامرة ، واستطاع من خلال الصور البيانية توضيح المفارقة العجيبة بين حال الغالب والمغلوب ، واستثارة الدهشة من أمرهما ، اذ يقول : ".. وكان الانصراف بعد أن ألممنا في تلك المحلة بمسجد امامهم المهدى ودار سكناه ، وأثر مدرسته وسجنه ، كل ذلك من الخمول ... واستهجان الآلة على

---

(١) البرطال في الأسبانية (المدخل) . نفاضة الجراب ،ص ٤٩ هامش رقم (١) .

(٢) نفاضة الجراب ، ص ٤٩ .

حال شبيهة بمباني الدبّر، وقرى النمل ، وأعشاش الخشاش[1] من الطير ، فعجبنا من مفتاح تلك الدويرة المهتضمة ، كيف تملك من القصور العظيمة ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، ولمنبر ذلك المسجد ، كيف أخذ على كونه قمئ الجلسة ، صاحبا لبعض القشر ، بريا من الصنعة ، بأزمة المنابر المتخذة من الألوة[2] ، والصندل المقاصرى في لونيه ، والأبنوس الحبشي ، وأنياب الفيول ، وأرعاها بعصياه ، واستامها بين يدى طاعته ، كالذود الشائل ، والسائمة الواردة ، مابين قرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وأفريقية والمغرب ، سنة الله في ادالة الدول ، وتعقيب النحل ، ألم تر (أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده)".[3]

٤ - ومن سمات الكتابة التاريخية في هذا الجزء من الكتاب ، حدة الانفعال ، وتأجج الشعور في وصف الأشخاص ، وذكر الحوادث ، والبعد عن الحيدة والموضوعية التاريخية ، ويظهر ذلك واضحا في فصل (ادالة الدولة بالأندلس ثانية) حيث يصف السلطان اسماعيل الذى تم له الأمر بعد خلع أخيه الغني بالله ، كما يصف كثيرا من أعوانه وأنصاره ، ويذكر بعض الحوادث التي وقعت عليه ، كقوله : "وفي زوال يوم الأربعاء ، ثامن شعبان ، كبس مثواه ، المضاع القفل ، الخامل السلعة ، فتخطاه

---

(١) الخشاش من الطير: ضعافها .
(٢) الألوة: شجر العود .
(٣) نفاضة الجراب ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

الرجال بعد أن ألزم حفظه ، وانحدر من الدار العليا ، خلل الدوح الأشب[1] ، والمسالك المفروشة ، الى الدار السفلى ذات الصرح الهائل ، فاقتحمها ، ولجأ الحائن[2] الى الذروة في طائفة من الأحداث الزغب الحواصل ، ممن لا يجلي في الكريهة ، ....، ... ، ... ، ولا يعمل بالسلاح ، الا ماكان من علج أبيه المسمى عبادا ، المعين على حياته لتهذيبه ، وتأديبه بحكم الفرس ، وسياسة يونان ، ومكارم الدولتين ، من خبيث جماعة ، سامرى السجية ، معدن من معادن الجهل".[3]

أسلوبه في هذا الجزء من كتاب النفاضة:

يمتاز النثر في كتاب نفاضة الجراب بالجزالة ، والرصانة ، وقصر العبارات واحكامها ومجانبة الترادف ، والتسامي عن السلاسة والسهولة ، والعبارات الشائعة ، والألفاظ المبتذلة ، كما يمتاز بفخامة الصياغة ، والبعد عن الفضول.

ويقع لابن الخطيب فيه أحيانا عبارات مسجوعة ، ولكنها تخلو من السد والاطالة ، والتكلف ، وفيها كثير من التشبيهات والاستعارات والكنايات.

ولعل ابن الخطيب يحاول في أسلوبه هذا التشبه ، أو النظر الى ابن حيان في تاريخه ، خاصة اذا لوحظت حدة الانفعال ، وتأجج

---

(١) الدوح الأشب: أى الحسن.
(٢) حان فلان أى هلك ، أو وقع في المحنة وحرم التوفيق ، نفاضة الجراب ، ص ١٠٤ هامش رقم (١).
(٣) نفاضة الجراب ، ص ١٠٣ ، ١٠٤.

الشعور في ذكر الحوادث ووصف بعض الأشخاص ، ولتوضيح هذه المشابهة نورد نصاً من نصوص ابن حيان في المقتبس حيث يقول في معرض الحديث عن أولية ابن السقاء القرطبي وزير بني جهور:
" كان أبو الحسن ابراهيم بن محمد بن يحى المعروف بابن السقاء قد كابد من شظف العيش في فتاء سنه ، مالاشئ فوقه ، اذ كان يعالج السقط بسويقة ابن أبي سفيان في قرطبة ببضاعة نزرة ،وأعلى ماانتقل اليه عند اكداء تلك الحرفة الاستخراج في جهة الاحتباس ، وارثه عن والده محمد السقاء ، وبأسبابها خدم القضاة ، وتمرن مع الفقهاء ، وهو يقتات معيشته مياومة ، ويأوى ليله الى بيت في دويرة والده محمد بجوفي المسجد الجامع ، يحاضر فيه جماعة اخوة لايجد بينهم الى مدّ ساقه سبيلا ، وماهو الا أن حمل الأمانة على كاهله ، فوضعها أسفل رجله ، وتذكر عض الكلاب لمصاه ، فتحول جرذا للسرق والخيانة ، وابتنى القصور المنيعة ، واقتنى الضياع المغلة ، الى أملاك لاتحصى كثيرة ".[1]

... ...

---

(١) المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .